
بسم الله الرحمن الرحيم


دعاء
الإمام الحسين عليه السلام
في يوم عاشوراء



BP
41 / 709
/ 708 د
5 ح

الحسني، نبيل، 1965 ــ م.

دعاء الإمام الحسين في يوم عاشوراء بين النظرية العلمية والأثر الغيبي: دراسة اسلامية معاصرة / تأليف نبيل الحسني؛ تقديم اللجنة العلمية، محمد علي الحلو. ـ كربلاء: العتبة الحسينية المقدسة. قسم الشؤون الفكرية والثقافية، 1431ق=2010م.

2 ج. ـ (قسم الشؤون الفكرية والثقافية في العتبة الحسينية المقدسة؛ 37).

المصادر.

1. الحسين بن علي (ع)، الإمام الثالث، 4 ـ 61ق. والدعاء ـ دراسةوتحقيق. 2. الدعاء ـ فلسفة. 3. الدعاء تأثير الزمان والمكان. 4. الحسين بن علي (ع)، الإمام الثالث، 4 ـ 61 ق. ـ سياسته وحكومته. 5. عاشوراء ـ فلسفة. 6. العبادة والجهاد ـ تأثير الحسين بن علي (ع)، الإمام الثالث، 4 ـ 61ق. 7. الحسين بن علي (ع)، الإمام الثالث، 4 ـ 61ق. الزيارة ـ فضائل. 8. الحسين بن علي (ع)، 4 ــ 61ق. ــ جزاء الاعداء. 9. واقعة كربلاء، 61ق. ــ تأثير ــ دراسة وتحقيق. (10). الحسين بن علي (ع)، الإمام الثالث، 4 ــ 61ق. ـ أصحاب ـ دراسة وتعريف. (11). الحسين بن علي (ع)، الإمام الثالث، 4 ــ 61ق. والصلاة (12). الحسين بن علي (ع)، الإمام الثالث، 4 ــ 61ق. والتوكل. (13). الحسين بن علي (ع)، الإمام الثالث، 4ــ 61ق. والقومية. (14). الحسين بن علي (ع)، الإمام الثالث، 4 ــ 61ق. العبودية (الإسلام). (15). الحسين بن علي (ع)، الإمام الثالث، 4 ـ 61 ق. ـ عرفان. (16) الحسين بن علي (ع)، الإمام الثالث، 4 ـ 61 ق. ـ علم الغيب. (17) الحسين بن علي (ع)، الإمام الثالث، 4 ـ 61ق. نظرية في الدوافع النفسية للفرد. (18) الكوفة ـ التفكك الإجتماعي ـ 61 ق. ـ فلسفة. (19) كربلاء ـ فضائل ـ أحاديث. (20). دعاء الفرج وعاشوراء. ألف. العتبة الحسينية المقدسة. قسم الشؤون الفكرية والثقافية. اللجنة العلمية. ب. الحلو، محمد علي، مقدم. ج. عنوان.

BP 41 / 709 / 708 د 5 ح

تمت الفهرسة في مكتبة العتبة الحسينية المقدسة قبل النشر

دعاء الإمام الحسين عليه السلام في يوم عاشوراء

بين النظرية العلمية والأثر الغيبي

دراسة إسلامية معاصرة

تأليف
السيد نبيل قدوري الحسني

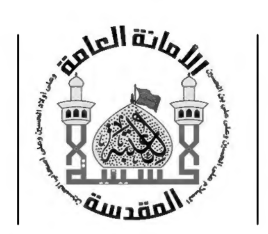
الجزء الأول

إصدار
قسم الشؤون الفكرية والثقافية
في العتبة الحسينية المقدسة

وحدة الدراسات التخصصية في الإمام الحسين عليه السلام

الطبعة الأولى

١٤٣١هـ - ٢٠١٠م

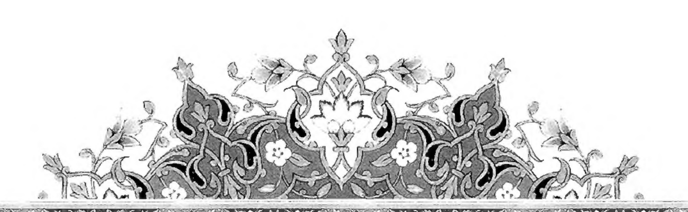


العراق: كربلاء المقدسة - العتبة الحسينية المقدسة

قسم الشؤون الفكرية والثقافية - هاتف: ٣٢٦٤٩٩

Web: www.imamhussain-lib.com

E-mail: info@imamhussain-lib.com



الإهداء

إلى من لم يتمالك الصبر فراقه ففاضت عيناه دموعا

إلى من أثكل الرزايا فأصبح قلبها بفقده مفجوعاً

إلى ريحانة خامس أهل الكساء

وأشبه الخلق بسيد أهل العباء

إلى أول شهيد من آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم في كربلاء

إلى سيدي علي الأكبر عليه السلام

أهدي كتابي هذا.

مقدمة اللجنة العلمية

شهدت الدراسات المتكفلة في الشأن الحسيني تطوراً كبيراً يعكسُ قضيتين أساسيتين :

إحداهما : تنامي الوعي المعرفي لدى النخبة التي وجدت نفسها مضطرةً أن تقرأ الحدث الحسيني على أساس التحولات التي يشهدها العالم في شأن الفكر والثقافة والثورة والتي تُعد قضية الإمام الحسين عليه السلام إحدى ركائز هذا التطور العالمي المنظور في شأن هذا الثلاثي الهائج بالمنعطفات الخطيرة والتي ألزمت النخبة أن تعيد حساباتها في هذا الشأن.

والأخرى : توجه القواعد العامة إلى قراءة القضية الحسينية بكل تفاصيلها الدامية فضلاً عن كل تفاصيلها ودقائقها المعرفية ـ وان كنا لا نفرّق بين الاثنين ، إذ تعد هذه التفاصيل الدامية جزءاً من الرقي المعرفي الذي تجيش بسببه العواطف.

لذا فقد احتلت دراسات القضية الحسينية مساحة واسعة من البحوث ، وهي في الوقت نفسه احتلت شأناً كبيراً من اهتمامات المتابعين لهذا الحدث فضلاً عن اهتمامات الباحثين كذلك.

ولم تتوقف هذه الاهتمامات على نقل الواقعة وتجسيدها ؛ بل تصاعدت إلى تحليل «الجزئية الحسينية» بالبحوث والتنقيب ، وأقصد بالجزئية الحسينية هي تلك الحيثية لاحدى صور القضية الحسينية المتداعية بين الزمان والمكان ، ولا نعني

بالزمان والمكان الكربلائيين وحدهما، بل يتعدى ذلك إلى كل زمان تتوقت فيه مأساة المظلوم، والمكان الذي تستدعيه حادثة الوقع الكربلائي بمتشابهاتها ومحنها.

ولعل دراسة «دعاء الإمام الحسين عليه السلام في يوم عاشوراء» توقفنا على هذه الحالة البحثية.

فظاهرة الدعاء عند الإمام الحسين عليه السلام في كربلاء تستدعي معها دراسات متعددة تجتمع كلها لتعطي شأناً من شؤون الدراسة، وربما البعض سيتوقف في ضرورة هذا السرد البحثي الذي جاء به الكاتب الا أنه إحدى ضرورات استيفاء جهةٍ من جهات الدراسة، فلم يقتصر الكاتب على البحث الدلالي للدعاء عند الإمام الحسين عليه السلام حتى عززه بمقاطع تاريخية وشواهد فلسفية ودراسات تربوية إلى آخرها من البحوث المساعدة التي تتكافل لتُعطي نبذة من نُبذ الدراسة ومقتضياتها. والكاتب مسبوق بالسعي وراء كل ما ينفع القارئ من أجل تعزيز رؤيته البحثية في كل المجالات، فالى المزيد من الدراسات التي تشارك في رفع التضبيب عن رؤية القراء وتُسهم في رفد ثقافتهم بما يتطلع إليه الجميع، شكر الله جهود الجميع وأثابهم بكل خير وللسيد الكاتب كل تقدير وتبجيل بما عرفنا عنه من حُسن المثابرة وعظيم المجاهدة والعمل على تقديم ما هو جديد.

عن اللجنة العلمية

السيد محمد علي الحلو

النجف الأشرف

٢٠ / ربيع الثاني / ١٤٣١ هـ

٧ / ٤ / ٢٠١٠م

مقدمة الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

(الحمد لله على ما أنعم، وله الشكر بما ألهم، والثناء بما قدم، من عموم نعم ابتدأها، وسبوغ آلاء أسداها، وتمام منن أولاها، جم عن الإحصاء عددها، ونأى عن الجزاء أمدها، وتفاوت عن الإدراك أبدها)[1].

والصلاة والسلام على خير الأنام وعلى آله الهداة الكرام الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا.

وبعد:

فإن الحضارة لم تكن وليدة الصدفة لدى الأمم وإن تقدمها لم يكن بضربة عصا ساحر، كما أن رخاءها وازدهارها لم يكونا من صنع مارد، وإنما بفعل إخلاص علمائها ومثابرة أبنائها وهمة فتيانها ووعي رجالها ونسائها.

كما أن تردي الأمم كان بنفاق علمائها وتكاسل أبنائها ولهو فتيانها وجهالة رجالها وانحلال نسائها.

من هنا: احتاجت الأمم إلى دورات إصلاحية تعيد لها نبض حياتها، وتنقي

---

(١) هذا ما ابتدأت به بضعة النبي الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم خطبتها الاحتجاجية التي ألقتها في مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في جمع من المهاجرين والأنصار، (الاحتجاج للطبرسي: ج١، ص١٣٣).

أفكارها كي يكتب لها البقاء وتنهض للإعمار والبناء.

ومن هنا أيضا : احتاجت هذه الأمة إلى مدرسة عاشوراء بكل تفاصيلها كي تعي أسباب ترديها وتعرف مكامن ضلالها وتقف عند عوامل انحرافها ، فأي أمة تستطيع أن تفخر بماضيها وهي قد أقدمت على قتل ابن بنت نبيها وذبح أطفاله الرضع وسبي نسائه وبناته ، وفيهن من لم تتعدَّ الخامسة من عمرها فيوضع أمامهن رؤوس آبائهن وأخوانهن.

وكأن القارئ لتاريخ هذه الأمة يرى نفسه أمام شاشة عرض تقص عليه فيلما سينمائيا عن كوكب فضائي تحيا فيه مخلوقات لم يعرفها بنو البشر قد قدمت إلى الأرض ، فعاثت به الفساد والدمار وهو مذهول وقد أطبقت على صدره الدهشة وهو شاخص العينين فيما لم ير ، ولم يسمع به من قبل.

وبين هذا الدمار وتلك الوحشية التي انفرد بها الإنسان في يوم عاشوراء تبنى مدرسة إصلاحية ، لتتفجر منها علوم ومعارف محمدية ، تسقي القلوب الظمأى وتروي النفوس الجدباء بعد أن أثقلها الجدب وأخباها الرماد.

هكذا هي مدرسة الدعاء في يوم عاشوراء ، حينما تدخلها تحتار وأنت تنظر إلى سيد الشهداء عليه السلام وهو ينتقل بين باحات هذه الصفوف ليزيح عن الأفهام تراكمات الأوهام ، ويجلي عن القلوب سحائب الظلمة فينير العقل بالحكمة ويفتح أبواب علوم جمة ، وتحتار أيضا في تعداد دروسها واتساع باحاتها وتنوع علومها ومعارفها ، حتى تخال نفسك في بلد العجائب أو أنك في عالم آخر لم يعرفه بنو جلدتك ، ولم يألفه بنو جنسك لاسيما وهم بين هارب من فضيحة قتل ابن بنت

النبي الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم، وبين مأسور بفتوى عالم لا يجيز النظر إلى عترة محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وبين متقوقع بثقافة رسمتها أجربة النبيذ.

ولذا: يأتي هذا الكتاب كمحاولة لنقل اليسير مما اختزنته مدرسة الدعاء في يوم عاشوراء من علوم ومعارف وحقائق عديدة إلى القارئ الكريم، مشفوعا ذلك بالكتاب العزيز والحديث الشريف والعلوم الأكاديمية الحديثة.

فجاء الكتاب ضمن محورين المحور الأول يرتكز على بيان الآثار الغيبية في دعائه يوم عاشوراء، والمحور الثاني يرتكز على بيان ما تضمنته الأدعية من نظريات علمية، والنظرية عند الأئمة المعصومين عليهم السلام تختلف بمصداقها عن النظرية التي يتوصل إليها العالم في المؤسسات والهيئات والجامعات المعاصرة؛ إذ ترتكز النظرية عند المعصوم عليه السلام على تفسير الظاهرة أو القانون أو القاعدة طبقاً لعين الواقع، ولذا فهي علمية لاستحالة نفوذ الاحتمال أو الظن إليها، بمعنى لا يكون بيان الإمام يستند على الظن أو عدم الاحاطة الكاملة والشاملة والدقيقة للسنن والقوانين والظواهر الكونية، ونقصد بالكونية جميع ما يمكن أن يدركه الإنسان ويحسه بل وحتى الأشياء التي لم يتمكن من إدراكها ومعرفتها فجميع ذلك علمه عند الإمام المعصوم عليه السلام.

وذلك أن علم المعصوم هو علم حضوري أو لدنّي قال تعالى: في معرض حديثه عن الخضر عليه السلام:

﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾[1].

---

(١) سورة الكهف، الآية: ٦٥.

وقال عزّ وجلّ عن سيد الأئمة وخازن النبوة أبي القاسم محمد صلى الله عليه وآله وسلم:

﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ ﴾[١].

وفي بيانه عزّ شأنه لعلم نوح عليه السلام حينما أمره ببناء السفينة وحمل المخلوقات فيها قال له:

﴿احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾[٢].

وهذا الجمع يستلزم المعرفة التامة والاحاطة الشاملة بجميع ما خلق الله تعالى؛ كي يتمكن نوح عليه السلام من حمل هذه المخلوقات بل يستلزم ذلك معرفته وعلمه بأصناف هذه المخلوقات وأجناسها أي الذكر من الأنثى حتى يتمكن من إعادة دورة الحياة على الأرض، فكم من حيوان ونبات وحشرة خلقها الله تعالى على الأرض، وحملها معه نوح عليه السلام في السفينة.

ولذا لا يمكن أن يكون فعل نوح عليه السلام بغير علم لدنّي علمه الله تعالى إياه.

﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾، بل كما أسلفنا: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ ﴾.

وعليه: تكون نظرية المعصوم عليه السلام هي عين الواقع، ونظرية غيره من الخلق تبنى على مجموعة من الظنون تتفاوت في نسبها وقوتها ومرجحاتها، فقد يصل هذا

---

(١) سورة يس، الآية: ١٢.

(٢) سورة هود، الآية: ٤٠.

العالم أو ذاك من خلال الدراسة والبحث إلى معرفة الحكم بنسبة محدوده تقترب أو تبتعد عن الحكم الواقع والمطابق لعين الحق.

وقد يبتعد كل البعد عن عين الواقع فتكون نظريته واهية سرعان ما يظهر فشلها حينما يأتي عالم آخر يقدم أدلته التي تكتسب أهميتها من خلال قربها من الواقع، ومن ثم إحراز نسبة من الحقيقة التي سنها الله تعالى، من هنا ذهب البعض إلى: (أن النظرية بسبب اتساعها يبقى صدقها احتماليا مهما بلغ النجاح فيها)[1].

وعلى هذا نجد أن نظرية المعصوم هي عين الواقع فلا وجود للإحتمالات فيها ولا ظنون نافذة إليها فهي عين الصدق لأنها ترتكز على فيض من سن السنن وأجراها ومن بيده مقاديرها وتصريفها فكان علم الإمام بها علماً ربانياً ولدنّياً.

أما دورنا هنا هو محاولة إيصال نظرية المعصوم عليه السلام بصفتها حقيقة مطابقة لعين الواقع إلى الباحثين والدارسين من خلال إلزامهم بما ألزموا أنفسهم من التمسك بالظواهر والأدلة التي ارتكزت في مفاهيمهم أنها علمية.

وحيث إن الكمال لله تعالى شأنه ولحبيبه المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم وعترته ثقل القرآن وعدله فإنه قد يخوننا البيان ويفارقنا التوفيق فيما سعينا من أجله في بعض مواضع الكتاب فنسأل الله تعالى العفو والمغفرة ومن رسوله وأهل بيته الشفاعة.

وعليه: استلزم منهج البحث كتابة فصول تسعة تنوعت بحسب مطالب علوم مدرسة الدعاء.

فكان الفصل الأول قد تضمن مفهوم الدعاء ودلالة الكتاب العزيز عليه، وما بينته السنّة المطهرة من تعريف وآثار ودور للدعاء في حياة الإنسان.

---

(١) أسس البحث العلمي، د. محمد نجيب، ود. محمود ميلاد: ص٤٣.

ومن ثمّ الانتقال في الفصل الثاني والثالث إلى خصوصية الزمان والمكان وعلاقتهما بالدعاء، لاسيما ونحن نتحدث عن قضية قد ارتبطت بالسماء وأن المحرك لها هو الإمام المعصوم، وهذا يعني أن المكان الذي تم فيه الدعاء لم يكن مهملاً من العناية الإلهية؛ بل قد كان مسبوقا بالشرافة والكرامة، وإن الزمان الذي رفع فيه الدعاء هو أيضا قد سبق باللطف وحف بالشرف، كما شرف غيره من الأزمنة والأمكنة.

أما بقية الفصول فلقد تمايزت فيما بينها بمزايا وخصائص عديدة، وظهرت فيها سمات اختصت بهذه المجاميع من الأدعية التي كان أولها في صبيحة يوم العاشر؛ وثانيها: أدعيته عليه السلام قبل البدء بالقتال، وثالثها: أدعيته عند مصارع أصحابه؛ ورابعها: أدعيته عند مصارع أهل بيته وخامسها: أدعيته عند قتاله ومصرعه صلوات الله وسلامه عليه.

فكان الدعاء الأول قد امتاز ببيان حقائق عديدة ارتبطت بالعقيدة والعلوم الاجتماعية والنفسية والسلوكية.

وامتازت المجموعة الثانية من أدعيته عليه السلام بحقيقة تحقق الأثر الغيبي الآني، أي في لحظة قوله للدعاء، والمستقبلي، أي ظهور هذه الآثار الغيبية بعد يوم عاشوراء، اختلفت باختلاف الحدث وما تقرره المصلحة الإلهية، فمنها ما كان بعد عاشوراء بأيام ومنها بشهور، ومنها بسنوات قليلة.

وامتازت المجموعة الثالثة من أدعيته عليه السلام ــ وهي التي كانت عند مصارع أصحابه عليهم السلام ــ بـ: دور القائد والإمام وعلاقته برعيته وأشياعه، وشحذ هممهم ومباركة

أفعالهم، وتسارع هذه النخبة في التضحية، وآثار ذلك على العقيدة والنفس والمجتمع؛ فضلا عن بيان الاستحقاق الجزائي والقضائي للجناة في انتهاك هذه الحرمات.

وامتازت المجموعة الرابعة ـ وهي التي اختصت بمصارع أهل بيته عليهم السلام ـ بـ: سمة إظهار الإمام الحسين عليه السلام لحرمة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وما يترتب على ذلك من آثار كونية تستوجب إنزال أنواع من العقوبات الجزائية على الجناة، مع بيان للأسباب التي أدت إلى نشوء هذه الثقافة في المجتمع المسلم على الرغم من مرور نصف قرن على وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

أما المجموعة الأخيرة من أدعيته ـ وهي أدعيته عليه السلام عند مقتله ومصرعه ـ فقد اتسمت بـ: سمات المناجاة والعروج إلى مراتب القرب من الله تعالى، وبلوغ منزلة العبودية المحضة حيث ينزل جده وأبوه وأمه وأخوه والتسعة المعصومون من بنيه:

﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾[1].

فضلا عن احتوائها على مباحث في التربية والاجتماع والنفس والقانون والعقيدة والسير والسلوك بمفهومه العرفاني والأكاديمي.

أما ما واجهني من الصعوبات في البحث فهو ما تعلق بالمجموعة الأخيرة لاسيما دعاءه الملكوتي والسبب في ذلك يعود إلى أمور:

١ ـ لأني أرى نفسي قد صرت على المحك مع الفجائع والرزايا العاشورائية.

٢ ـ ولأن الحديث أصبح يدور عن شخص الإمام الحسين عليه السلام لا عن إفاضته النورانية المتدفقة من معين كلماته.

---

(١) سورة القمر، الآية: ٥٥.

٣ ـ لاختلاف هذه الأدعية عما سبق فقد تدرج الإمام في سلم الدعاء إلى الله تعالى ليصل بنا إلى رتبة المناجاة الملكوتية في آخر أدعيته ؛ وهو ما ارتعدت له فرائصي وتملك الخوف قلبي.

٤ ـ خوفا من التقصير في البيان أو التغافل عن بديهيات الجنان فيحط قدري عند إمام الإنس والجان.

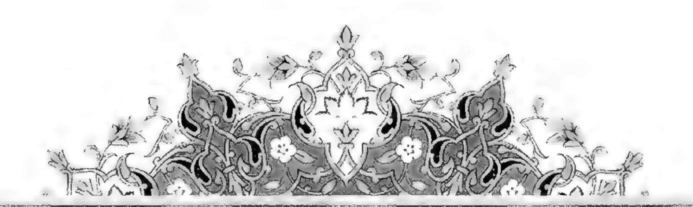
فهذه الأسباب كانت وراء ما مررت به من صعوبة وأنا أتأمل في دعاء الإمام الحسين عليه السلام الملكوتي، لكن كرم سيد الشهداء لا يسع البيان بيانه فقد عودني سيدي على كرمه والجلوس في أفنية محفله وأنا أنظر إليه كيف يغترف لهذا فيغدقه بجوده، وكيف يحسن إلى ذاك فيغرقه بكرمه.

فقد خصني بلطفه وأفاض عليّ بجوده، فكان هذا الجهد الذي أسأل الله تعالى أن يتقبله مني وينفعني به يوم حشري ويعيد خيره على والديّ وولدي ويبلغني أجره؛ إنه سبحانه وتعالى ولي كل نعمة ومنتهى كل رغبة فله الحمد قبل النعم وبعدها والصلاة على حبيبه محمد وآله المطهرين.

﴿وَمَا تَوْفِيقِيَ إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾[1].

من مكتبة العتبة الحسينية المقدسة
في الخامس من شعبان ١٤٣٠هـ
الموافق ٢٨/٧/٢٠٠٩م
السيد نبيل قدوري حسن علوان الحسني

(١) سورة هود، الآية: ٨٨.



الفصل الأول:

مفهوم الدعاء

للوقوف عند مفهوم الدعاء فلابد من الرجوع إلى مناهل المعرفة وقراءة ما ورد فيها من معان ودلالات للفظة الدعاء.

المبحث الأول: الدعاء في اللغة والاصطلاح

المسألة الأولى: الدعاء في اللغة

يقول اللغويون: إن الدعاء على معانٍ متعددة، فهو بمعنى:

ألف: النداء[1]

تقول: دعوت فلاناً، إذا ناديته وصحت به[2].

وقد أورد ابن منظور بعض الأقوال في بيان هذا المعنى كقول ثعلب الذي استدل عليه بقوله تعالى:

﴿تَدْعُواْ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ﴾[3].

باء: الاستغاثة

وهذا المعنى ذهب إليه (الفراء) معتمداً في ذلك على قوله تعالى:

﴿وَادْعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾[4]. فالدعاء هاهنا بمعنى الاستغاثة[5].

---

(١) لسان العرب لابن منظور: ج ١٤، ص ٢٦٠، نشر أدب الحوزة ـ قم.

(٢) عدة الداعي لابن فهد الحلي رحمه الله: ص ١٩، ط مؤسسة المعارف الإسلامية.

(٣) سورة المعارج، الآية: ١٧.

(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٣.

(٥) لسان العرب لابن منظور: ج ١٤، ص ٢٥٧.

جيم: العبادة

وهذا المعنى عند الفراء أيضاً، لقوله تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡۖ فَٱدۡعُوهُمۡ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾[١]. أي: الذين تعبدون[٢].

دال: الاستعانة

وقد ورد الدعاء بمعنى: «الاستعانة» كما جاء في قوله تعالى:

﴿وَٱدۡعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾[٣].

وهذا المعنى اعتمده ابن إسحاق[٤]. فيما ذهب بعض اللغويين إلى تقسيم الدعاء على ثلاثة أوجه، فأظهر كل وجه منها معنى خاصاً للدعاء.

الوجه الأول: «توحيد الله تعالى»، أي: أن يكون الدعاء لله عز وجل هو (توحيده) والثناء عليه، كقولك: يا الله، و(لا إله إلا أنت)، وكقولك: «ربنا لك الحمد»، إذا قلت ذلك فقد دعوته بقولك: «ربنا».

ثم أتيت بالثناء والتوحيد، ومثله قوله تعالى:

﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾[٥].

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٩٤.

(٢) لسان العرب: ج ١٤، ص ٢٥٧.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٣.

(٤) لسان العرب لابن منظور: ج ١٤، ص ٢٥٧.

(٥) سورة غافر، الآية: ٦٠.

الوجه الثاني: إن الدعاء لله تعالى يأتي على معنى: «العفو، والرحمة، وما يقرب من الله عز وجل».

كقولك: «اللهم اغفر لنا».

الوجه الثالث: أن يكون الدعاء لله عز وجل بمعنى: «مسألة الحظ من الدنيا» كقولك: «اللهم ارزقني مالاً وولداً»(١).

ونجد أن كلمة اللغويين قد تعددت في بيان معانيه في الدعاء.

ولكننا من مجموع ما ذكره أهل اللغة في هذا الخصوص يمكننا أن نخرج بالنتيجة الآتية:

إن المراد من الدعاء: هو النداء، ولكن أسبابه تختلف. فمرة: يراد به الاستعانة. وأخرى: الاستغاثة. وثالثة: الرغبة. ورابعة: العبادة(٢).

أما السبب في تسمية هذا جميعاً بـ«الدعاء»؟ فلأن الإنسان يُصَدّر في هذه الأشياء بقوله يا الله يا ربّ يا رحمن(٣)، فلذلك سُمِّيَ دعاءً.

المسألة الثانية: الدعاء في الاصطلاح

قال العارف احمد بن فهد الحلي ﵀ في بيان معنى الدعاء اصطلاحاً هو: «طلب الأدنى للفعل من الأعلى على جهة الخضوع والاستكانة»(٤).

(١) لسان العرب: ج ١٤، ص ٢٧٥.

(٢) أضواء على دعاء كميل للشهيد السيد عز الدين بحر العلوم: ص ١٤ ـ ١٥، ط دار الزهراء ـ بيروت.

(٣) لسان العرب: ج ١٤، ص ٢٧٥.

(٤) عدة الداعي: ص ٢٠، ط مؤسسة المعارف الإسلامية.

المبحث الثاني: الدعاء في القرآن الكريم

ورد لفظ «الدعاء» في القرآن في خمسة مواضع، إلاّ أن هناك آيات عديدة اشتملت على أدعية متنوعة كشفت عن مدلولات كثيرة.

أولاً: مدلول فطري

تظهر بعض الآيات الكريمة أن للدعاء مدلولاً فطرياً عند الإنسان يلازمه دون أن يدرك الملازمة.

فإذا ما تعرض لموارد البلاء أو الشدة أو الحاجة توجه إلى الله داعياً في نوال ما يريد، ولكن الفارق بين الناس هو الاعتقاد بمن يدعونه، واليقين بأنه أهل لذلك ومجيب لدعوة الداعي إذا دعاه؛ وفي هذا الجانب يتفاضل الناس.

فلاحظ أيها القارئ الكريم الآيات التي تدل على تلازم الدعاء مع الفطرة.

١. ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾[1].

٢. ﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾[2].

٣. ﴿وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾[3].

---

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٦٥.

(٢) سورة الروم، الآية: ٣٣.

(٣) سورة لقمان، الآية: ٣٢.

٤ . ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾[١].

ثانيا: مدلول تعبدي

وهنا تدل مجموعة من الآيات أن المراد من خلق الإنسان هو: «العبادة لله تعالى».

ولكي يوفق في تحصيل هذه الغاية فقد زوده الله عزّ وجلّ بالعقل والنطق، فكان العقل مفكراً واللسان معبراً عن الغاية الوجودية للإنسان، وهي العبودية لله تعالى فقال عزَّ شأنهُ:

١ . ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْۖ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًۢا﴾[٢].

٢ . ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِي وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾[٣].

٣. ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾[٤].

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٦٧.

(٢) سورة الفرقان، الآية: ٧٧.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٨٦.

(٤) سورة غافر، الآية: ٦٠.

وقد ورد في الرواية التي أخرجها الشيخ الكليني رحمه الله عن حماد بن عيسى عن حريز عن زرارة عن أبي جعفر ـ الباقر ـ عليه السلام، بيان واضح لهذا المدلول، فقال:

«**إن الله عز وجل يقول:**

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾.

هو الدعاء، وأفضل العبادةِ الدّعاء.

قلت ـ زرارة ـ:

﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾[1].

قال ـ عليه السلام ـ:

الأوّاه هو: الدّعاء[2].

٤. ومن الآيات التي لها مدلول تعبدي في الدعاء هي قوله تعالى:

﴿هُوَ ٱلۡحَيُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۗ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[3].

٥. ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَا﴾[4].

---

(١) سورة التوبة، الآية: ١١٤.

(٢) الكافي، كتاب الدعاء، باب: فضل الدعاء والحث عليه، ج ٢، ص ٤٤٧، ووسائل الشيعة للحر العاملي: ج ١، ص ١٣، برقم (٨٦٢٥).

(٣) سورة غافر، الآية: ٦٥.

(٤) سورة الأعراف، الآية: ١٨٠.

٦. ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾[(١)].

وغيرها من الآيات الكريمة التي تشير إلى أن للدعاء مدلولاً تعبدياً يظهر من خلال قيام الإنسان بالدعاء لله تعالى.

ثالثا: مدلول تفاضلي

مما لا شك فيه إن الأنبياء والمرسلين عليهم السلام هم مثال حكم الله عز وجل في الأرض، وهم أعبدُ الخلق للخالق عزّ شأنه.

ومن هنا:

أشارت بعض الآيات إلى أنهم يتفاضلون فيما بينهم في العبودية والتقرب إلى الله تعالى في كثرة الدعاء له. وقد مرّ في المدلول التعبدي، بأن الدعاء أفضل أنواع العبادة؛ إذ ينطلق اللسان مترجماً لما يختزنه الفكر من معرفة بالله عز وجل.

ولذلك: كانت أدعيتهم عليهم السلام تفاضلية في الرتبة؛ بمعنى آخر: كانت كاشفة عن الرتبة المعرفية بالله تعالى وكاشفة أيضاً عن رتبة العبودية.

فقد ورد في الرواية عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام في معرض بيانه للعقل والجهل وجنودهما، فقال:

«والدعاء وضده الاستنكاف»[(٢)].

فجعل الدعاء من خواص العقل وجنده وضده الاستنكاف وهو من خواص الجهل وأحد جنوده.

---

(١) سورة الأعراف، الآية ٥٦.

(٢) الكافي للكليني رحمه الله، كتاب العقل والجهل: ج ١، ص ٢١.

إذن ؛ فلننظر إلى القرآن كيف يعطي هذا التمايز والتفاضل المرتبي فيما بين الأنبياء عليهم السلام من خلال دعائهم وتقربهم إلى الله تعالى، في حين أن هناك آيات قد دلّت على هذا التمايز دون أن تتضمن لفظ «الدعاء» كتلقي آدم عليه السلام للكلمات التي نزل بها جبرائيل عليه السلام فكان يدعو الله بها كي يتوب عليه[1].

وها هو نوح عليه السلام كيف يدعو الله ويسأله النصر على الظالمين.

١. قال تعالى:

﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴾[2].

والآية الكريمة تتحدث عن السلاح الذي لا يملكه الخصم على مرّ الدهور وهو الدعاء لله عز وجل. فكان نبيّ الله نوح عليه السلام قد استخدم هذا السلاح فانتصر به على عدوه.

٢. أما في شأن إبراهيم الخليل عليه السلام فتظهر الآية سمّو المعرفة عند الخليل بما للدعاء من إعجاز في تحقيق المستحيل، وفي خرق القوانين الطبيعية، وتظهر الآية كم كان عليه السلام موقناً بالإجابة من الله عز شأنه، وأنه لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السموات. فوهب له إسماعيل وإسحاق على كبر سنه الذي ناهز التسعين.

فقال تعالى في بيان حال نبيه إبراهيم:

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴾[3].

---

(١) وهي قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ البقرة، الآية: ٣٧.

(٢) سورة القمر، الآية: ١٠.

(٣) سورة إبراهيم، الآية: ٣٩.

وقال عزّ شأنه:

﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلۡ دُعَآءِ﴾[1].

فكانت الصلاة دالةً على الدعاء، وكان الدعاء دالاً على قبول العمل وارتفاعه.

٣. ثم يحدثنا القرآن الكريم عن نبي الله زكريا عليه السلام وهو يرى مريم عليها السلام وقد تكفل الله تعالى برزقها.

فكان كلما دخل عليها المحراب وجد عندها رزقاً، وكان يرى فاكهة الصيف في موسم الشتاء، وفاكهة الشتاء في موسم الصيف فعندها توجه إلى الله تعالى وتقرب إليه داعياً.

فقال عز وجل:

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥۖ قَالَ رَبِّ هَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةٗ طَيِّبَةًۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾[2].

٤. وفي توجه موسى وهارون عليهما السلام إلى الله بالدعاء، قال عزّ شأنه:

﴿قَالَ قَدۡ أُجِيبَت دَّعۡوَتُكُمَا فَٱسۡتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾[3].

---

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٤٠.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٣٨.

(٣) سورة يونس، الآية: ٨٩.

٥. أما بخصوص الحبيب المصطفى ﷺ فقد أعطي رتبة في أفضل ما يتقرب به العبد إلى الله تعالى ألا وهو الدعاء، فقد قلده القرآن رتبة «داعي الله» وميزه بالعبودية لله عز وجل.

فقال تعالى:

﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبۡدُ ٱللَّهِ يَدۡعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيۡهِ لِبَدٗا﴾[1].

وقال عز وجل:

﴿يَٰقَوۡمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ﴾[2].

وقوله تعالى:

﴿وَمَن لَّا يُجِبۡ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيۡسَ بِمُعۡجِزٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾[3].

وقوله جل شأنه:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا﴾[4].

هذه الآيات وإن كانت تدل على الدعوة إلى الله عز وجل إلا أن لفظة «داعي الله» لتدل أيضاً على أن النبي الأعظم ﷺ كثير الدعاء.

---

(١) سورة الجن، الآية: ١٩.

(٢) سورة الأحقاف، الآية: ٣١.

(٣) سورة الأحقاف، الآية: ٣٢.

(٤) سورة الأحزاب، الآية: ٤٥ ـ ٤٦.

أما بخصوص عترة النبي الأكرم ﷺ، فقد جاء في صفات علي أمير المؤمنين عليه السلام ما أخرجه العاملي رحمه الله عن جعفر بن محمد الأشعري عن ابن القداح عن أبي عبد الله عليه السلام في حديث قال:

«كان أمير المؤمنين عليه السلام رجلاً دعّاءً»(١).

رابعا: مدلول جزائي أخروي

دلّت بعض الآيات على أن الدعاء في الآخرة، هو رتبة جزائية ينالها المؤمن في الجنة. ولأنه كان ينال من الحلاوة في مناجاة الله في الدنيا ما لم يكن ليستغني عنها في الآخرة.

أو بمعنى آخر:

قد أيقن أن الدعاء أفضل ما يتقرب به المؤمن إلى الله عز وجل في الدنيا والآخرة لأن النعيم كل النعيم هو القرب من الله وإحراز رضوانه.

ولذا:

عبّر القرآن عنه بما هو أكبر من نعيم الجنة، فقال عز وجل:

﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾(٢).

فكانت بعض الآيات تحمل مدلولاً جزائياً ورتبياً في الجنة للدعاء.

١. قال تعالى:

---

(١) وسائل الشيعة للحر العاملي، كتاب الصلاة، باب: استحباب كثرة الدعاء، برقم ٨٦٠٩، ج٧، ص ٢٦.

(٢) سورة التوبة، الآية: ٧٢.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴾[١] ﴿ دَعۡوَىٰهُمۡ فِيهَا سُبۡحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٞۚ وَءَاخِرُ دَعۡوَىٰهُمۡ أَنِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾[٢].

خامسا: مدلول سايكولوجي

يختلف الإنسان في التكوين النفسي عن جميع المخلوقات، فهو أضعف من جميع الكائنات في مراحل نموه ولاسيما مرحلة ما بعد الولادة؛ ولأن هذه الفترة طويلة فقد نشأت هذه النفس الإنسانية على الغيريّة والافتقار الشديد إلى وجود غيره حتى في أعلى مراحل النمو والتكامل، إلا وهي مرحلة الشباب والفتوة.

ولذا؛ تندفع النفس إلى البحث عن من يسد لها هذا الافتقار لأنها نشأت على ذلك.

ولقد بين القرآن الكريم هذه النشأة التكوينية للنفس من خلال بعض الآيات، فكانت مدلولاتها النفسية تشير إلى أن الغيريّة قد أصبحت صفة ملازمة للنفس الإنسانية.

إلاّ أن الفارق بين هذه التكوينات النفسية، هو أن النفس المؤمنة بالله عز وجل تفي لبارئها الذي أمدها بالعون، والغنى، والمدد الذي لا ينتهي، ولا ينقطع، ولا ينفد، بالشكر والحمد؛ وأن النفس الكافرة لتجحد النعمة وتنكر فضل المنعم عزّ شأنه.

---

(١) سورة يونس، الآية: ٩.

(٢) سورة يونس، الآية: ١٠.

١. قال تعالى:

﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[1].

٢. وقوله عزّ شأنه:

﴿ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴾[2].

وهنا؛ تدلل هذه الآيات على صفة (الغيريّة) في تحصيل الخير أو في دفع الضُر، وتدلل أيضا على أن الدعاء له ملازمة فطرية مع الإنسان تدفعه إلى التوبة إلى الله تعالى في جلب منفعة أو دفع مضرة؛ في حين تبقى مسألة الاعتقاد بالله عز وجل مكنونةً لحين تحقق المطلب، فإذا ما حصل المراد تميزت النفوس في مستوى إيمانها بالله عزّ وجل.

إذن؛

من خلال هذه المدلولات التي ذكرت آنفاً ظهر لنا المراد من الدعاء، ولعلّ التتبع الدقيق لآيات القرآن الكريم سيظهر لنا مدلولات عديدة للدعاء وحينها سيخرج الكتاب من الغرض المقصود في كتابته ألا وهو الوقوف عند مضامين دعاء الإمام الحسين عليه السلام في يوم عاشوراء.

---

(١) سورة يونس، الآية: ١٢.

(٢) سورة فصلت، الآية: ٥١.

المبحث الثالث: الدعاء في السنّة

قبل الحديث عن منزلة الدعاء في السنة لابد أولاً من بيان معناها.

فالسُنة: بضم الأول وفتح الثاني مع التشديد في اصطلاح المتشرعة على معنيين:

الأول: (قول الرسول ﷺ وفعله وتقريره، بل المطلق من طريقته وهديه ﷺ، وعند الشيعة الإمامية ـ التابعين لأئمة العترة من أهل البيت عليهم السلام، يضاف إلى الرسول قول أئمة العترة الطاهرة عليهم السلام وفعلهم وتقريرهم وهديهم، لأنهم إمتداد رسول الله ﷺ وخلفاؤه حقاً ووارثوه وهم أئمة يهدون إلى الحق وبه يعدلون، وإنهم أئمة معصومون. لا يقولون ولا يعملون إلا على التنزيل والتأويل. وهم معدن علم الله وعلم رسوله ﷺ.

وأما عند الجمهور وعامة المسلمين المعروفين بأهل السنة، يضاف إلى الرسول ﷺ سنة الصحابة وسيرتهم ولاسيما الخلفاء منهم، وأن لهم حق التشريع حسب المصالح المرسلة كما في مسألة المتعتين والطلاق البدعي، وتبديل حي على خير العمل بـ«الصلاة خير من النوم»، وعشرات من نحو هذه التشريعات.

المعنى الثاني: العمل المستحب الذي كان رسول الله ﷺ يواظب على العمل به، ويحضّ المؤمنين عليه، وهو دون الواجب وفوق الندب، كالختان والصلاة بالجماعة، وكتحية المسجد، وفعل النوافل المرتبة ولو يأتي بركعتين منها.

والمراد من السنّة قبال الكتاب: هو المعنى الأول)[1].

---

(١) اجماعيات فقه الشيعة للسيد إسماعيل المرعشي: ج ١، ص ١٥، ط الثانية.

وقد ورد في السُنّة أحاديث عديدة تبين منزلة الدعاء ورتبته العبادية ومدار تأثيره على جميع جوانب الحياة، ويكفي بأحاديث النبي الأكرم ﷺ وعترته عليهم السلام بياناً لما حوته كلمة «الدعاء» من مضامين.

١. أخرج ثقة الإسلام الشيخ الكليني رحمه الله عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام، قال: قال رسول الله ﷺ:

«الدعاء سلاحُ المؤمنِ وعمودُ الدينِ ونورُ السّماواتِ والأرضِ»[1].

٢. وبإسناده قال: قال النبي ﷺ:

«ألا أدلّكم على سلاحٍ ينجيكم من أعدائكم ويدرّ أرزاقكم؟

قالوا: بلى. قال:

تدعُونَ ربّكم بالليلِ والنّهارِ، فإنّ سلاح المؤمن الدّعاءُ»[2].

٣. وبهذا الإسناد، قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام:

«الدعاء مفاتيحُ النّجاحِ؛ ومقاليدُ الفلاحِ؛ وخيرُ الدعاءِ ما صدرَ عن صدرٍ نقيٍّ وقلبٍ تقيٍّ، وفي المناجاةِ سببُ النجاةِ، وبالإخلاصِ يكونُ الخلاصُ، فإذا أشتدّ الفزعُ فإلى الله المفزعُ»[3].

٤. وعن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام:

«الدّعاء ترسُ المؤمنِ ومتى تكثر قرعَ البابِ يفتح لك»[4].

---

(١) الكافي للكليني رحمه الله: ج ٢، ص ٤٦٨، باب: إن الدعاء سلاح المؤمن.

(٢) الكافي: ج ٢، ص ٤٦٨، ح ٣، ثواب الأعمال: ص ٤٥.

(٣) الكافي: ج ٢، ص ٤٦٨، ح ٢.

(٤) وسائل الشيعة: ج ٧، ص ٢٦، ح ٨٦١٠، الكافي: ج ٢، ص ٤٦٨، ح ٤.

٥. عن أبي سعيد البجلي، قال أبو عبد الله الصادق عليه السلام:

«إنّ الدّعاءَ أنفذُ من السّنانِ»[١].

فهذه بعض ما ورد عن العترة عليهم السلام فيما يدل على أن الدعاء هو سلاح المؤمن الذي يكون له من الأثر ما يفوق أثر الرماح.

أما ما للدعاء من أثرٍ في رد القضاء ودفع البلاء فقد ورد عنهم سلام الله عليهم مجموعة من الأحاديث نورد بعضاً منها تيمناً.

١. عن الإمام الرضا عليه السلام قال: قال علي بن الحسين عليهما السلام:

«إنّ الدّعاءَ والبلاءَ ليترافقان إلى يوم القيامة، إنّ الدعاء ليردُ القضاء وقد أبرم إبراما»[٢].

٢. وقال الإمام الصادق عليه السلام:

«إنّ الدّعاء يردّ القضاء وقد نزل من السماء وقد أبرم إبراماً»[٣].

٣. عن زرارة رحمه الله، عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال لي:

«ألا أدلّك على شيءٍ لم يستثن فيه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم».

قلت: بلى. قال:

الدّعاء يردُ القضاءَ وقد أبرم إبراماً وضمّ أصابعه»[٤].

---

(١) الكافي للكليني رحمه الله: ج ٢، ص ٤٦٩، ح ٦، باب: إن الدعاء سلاح المؤمن.

(٢) أخرجه الشيخ الكليني رحمه الله في الكافي، كتاب الدعاء، باب: إن الدعاء يرد البلاء، ج ٢، ص٢٦٩، ح ٤.

(٣) المصدر السابق: ٣.

(٤) المصدر السابق: ح ٦، ص ٤٧٠، ج ٢.

٤. قال أبو الحسن موسى الكاظم عليه السلام :

«عليكم بالدعاء فإنّ الدّعاء لله والطّلب إلى الله يردّ البلاء وقد قدّر وقضي ولم يبق إلا إمضاؤه فإذا دعي الله عز وجل وسُئل صرف البلاء صرفه»[١].

٥. عن الإمام الصادق عليه السلام قال :

«هل تعرفون طول البلاء من قصره؟

قلنا : لا. قال :

إذا ألهم أحدكم الدّعاء عند البلاء فاعلموا أنّ البلاء قصير»[٢].

نكتفي بهذا القدر من الأحاديث الشريفة الواردة عن العترة الطاهرة عليهم أفضل الصلاة والسلام في بيان ما للدعاء من دلائل معرفيّة في إنارة الفكر والقلب ؛ وما له من آثار تكوينية في تغيير مصير الإنسان ونقله من الشقاء إلى السعادة ومن الضعف إلى القوة ، وماله من السنن التي يفتقر إليها الإنسان ويفتقدها في بناء كيانه ومواصلة دوره في الحياة كالصحة والتوفيق وغيرها.

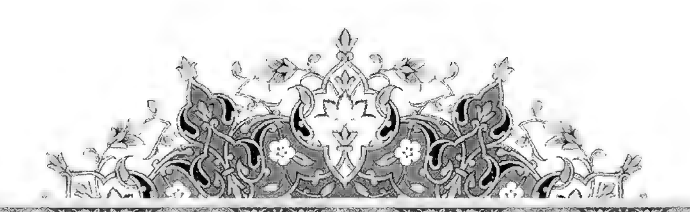
ولكي تكون هذه الوقفة مع الدعاء فيها من البيان ما يمكّن القارئ الكريم من الدخول إلى باحة هذا الصرح العظيم المليء بالجمال والسحر الذي يُسَمّرُ العيون ويقطع الاتصال عن كُلّ ما هو فان.

إنه دعاء الإمام الحسين عليه السلام في يوم عاشوراء.

---

(١) الكافي للكليني : ح ٨، ص ٤٧٠ ، ج ٢.

(٢) المصدر السابق : ج ١ ، ص ٤٧١ ، ج ٢.



الفصل الثاني:

دعاء الإمام الحسين عليه السلام

وخصوصية المكان والزّمان

من الحقائق التي تحدث عنها القرآن الكريم هي امتياز بعض الأزمنة والأمكنة بخصوصيات متعددة منها الشرافة، ومنها الشعيرة، أي العلامة ومنها الاستجابة، ومنها ما اكتسبت خصوصيتها لحدث ما، إما زماناً وإما مكاناً.

فمكة المكرمة (أعزّها الله) لها خصوصيات متعددة منها مكانية ومنها زمانية.

فأما خصوصيتها المكانية فهي:

١. أول بيت وضع للناس، قال تعالى:

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا﴾[١].

٢. وفيها البيت الحرام الذي جعله الله للناس قياماً، قال عز شأنه:

﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ﴾[٢].

٣ ـ وهي فضلاً عمّا خصت به من وجود البيت الحرام ـ الذي بناه إبراهيم الخليل وولده إسماعيل عليهما السلام وهو قوله تعالى:

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ﴾[٣].

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٩٦.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٩٧.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٢٧.

فهي أيضاً موطن سيد الخلق ﷺ ومسقط رأسه، ومحل بعثه، فهذه بعض خصوصيتها المكانية.

أما خصوصيتها الزمانية فهي:

١. الموضع الذي يتوجه إليه المسلم في اليوم خمس مرات بأوقات زمنية محددة للصلاة.

٢. والموضع الذي تشد إليه الرحال زماناً لتأدية فريضة الحج التي تحن إليها النفوس، وتشتاق إليها القلوب وفيها تشترك خصوصية الزمان وخصوصية المكان لأنها محل البيت وجبل عرفة والمزدلفة، وغيرها من المواطن التي تؤدى فيها المناسك بأوقات محددة.

ومن الأمكنة الأخرى التي نالت الخصوصية المكانية هي أرض طوى وهي حقيقة يعرضها القرآن في بيانه لسيرة نبي الله موسى عليه السلام. قال تعالى:

﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى﴾[1].

وقال عز وجل:

﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗا﴾[2].

فهذه الأمكنة التي اكتسبت خصوصيات ارتبطت بالسماء هي مما لا شك فيه تمتلك تناغماً منسجماً مع الدعاء وآلية توظيفه لما يحتاج إليه الإنسان في حياته الدنيوية والأخروية.

---

(١) سورة طه، الآية: ١٢.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٤٣.

أما حقيقة الخصوصية الزمانية في القرآن فقد بدت بشكل واضح في أكثر من موضع ؛ فزمانُ شهر رمضان هو أفضل الشهور عند الله ؛ وقد حوى مع كونه أفضل الشهور على خصوصية أخرى وهي ليالي القدر.

فليلة القدر هي أحدى لياليه ، وهي بحد ذاتها قد خصت من بين الليالي بنزول القرآن والملائكة والروح ، وهي سلام حتى مطلع الفجر.

ومن الخصوصية الزمانية التي بينها القرآن ما كان للثلث الأخير من الليل من الفضل ؛ وهو ما لم يتوفر في غيره من الساعات ، قال تعالى :

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا﴾[1].

أما وقت الفجر فله خصوصية زمانية ارتبطت بتلاوة كتاب الله تعالى :

﴿إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودٗا﴾[2].

وقوله عز وجل :

﴿وَٱلۡفَجۡرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشۡرٖ ۝٢ وَٱلشَّفۡعِ وَٱلۡوَتۡرِ﴾[3].

ناهيك عن الخصوصيات الزمانية الكثيرة في الإسلام خلال السنة ، كيوم الفطر ، ويوم الأضحى ، ويوم الغدير ، ويوم عرفة ، وليلة النصف من شعبان ، وليلة المبعث النبوي الشريف ، وغيرها.

---

(١) سورة المزمل ، الآيات : ١ ـ ٤.

(٢) سورة الإسراء ، الآية : ٧٨.

(٣) سورة الفجر ، الآيات : ١ ـ ٣.

هذه الأزمنة التي شرفها الله وفضلها على غيرها من الأوقات؛ ارتبط بها الدعاء ارتباطاً وثيقاً.

بل كان من لوازمها التي لا تنفك عنها؛ ولا نبالغ إذا قلنا إنّ الدعاء من العلائم التي تعيد لهذه الأزمنة حيويتها وروحانيتها وبهجتها.

ومن هنا:

نستطيع أن نقول: إن هذه الحقائق القرآنية جاءت لتسجل بين دفتيها ما تجلى من خصوصيات مكانية وزمانية في دعاء الإمام الحسين عليه وعلى جده وأبيه وأمه وأخيه والتسعة المعصومين من بنيه أفضل الصلاة وأتم السلام.

وفي هذا البحث نحاول الوقوف والإحاطة بهذه الخصوصيات، كي تكون جواز عبور إلى هذا الصرح العظيم الذي زخر بالتجليات الربانية والعلوم الإنسانية والحقائق الكونية والآثار الغيبية التي رافقت فيوضات عين قدس(١) الله وحجته على خلقه.

فلكل واحدٍ من المكان، والزمان، والدعاء، والداعي، خصوصيات عديدة، وقد جمعت في آن واحد.

---

(١) القدس: أي الطهر، ويقال: القدّوس فعّول من القُدْس، وهو الطهارة؛ وقال الأزهري: لم يجئ في صفات الله تعالى غير القدوس، وهو الطاهر المنزّه عن العيوب والنقائص.

(لسان العرب: ج ٦، ص ١٦٨، مادة "قدس").

وعليه: فالإمام الحسين عليه السلام لكونه من أهل بيت أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا وهو صاحب عصمة، ومثال الحكم الشرعي، فهو بهذا يكون عين الطهر بما للحكم الشرعي من قدسية ونزاهة من العيوب، فهو أحد مصادر الحكم الشرعي الذي اختاره الله وهما (الكتاب والعترة).

المبحث الأول:

الخصوصية المكانية لدعاء الإمام الحسين عليه السلام في يوم عاشوراء

إن المحل والمكان الذي انطلق منه دعاء الإمام الحسين عليه السلام قد امتاز بخصائص مكانية عديدة منها ما بينه النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم ، ومنها ما أظهره أمير المؤمنين من بعده عليه السلام.

ومنها أيضاً: ما كان لزوجات النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه من ذكر لها.

حتى إذا ما وصلنا إلى الأدب والبلاغة والبيان وجدنا هذه الخصائص عند أهل هذا الفن قد دونت في مصنفاتهم نثراً وشعراً.

ولذا؛ فإن أول المبينين لهذه الخصوصية المكانية لدعاء الإمام الحسين عليه السلام هو جده المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم.

المسألة الأولى: الملائكة عليهم السلام تحمل تربة كربلاء إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم

١. أخرج أحمد في مسنده، عن ثابت، عن أنس بن مالك: أنّ ملك المطر استأذن ربه أن يأتي النبي صلى الله عليه وآله وسلم فأذن له.

فقال لأم سلمة:

«**أملكي علينا الباب لا يدخل علينا أحد.**

قال: وجاء الحسين ـ عليه السلام ـ ليدخل فمنعته فوثب فجعل يقعده على ظهر النبي صلى الله عليه وآله وسلم وعلى منكبه وعلى عاتقه.

قال: فقال الملك للنبي صلى الله عليه وآله وسلم :

أتحبه؟.

قال:

نعم.

قال:

إن أمتك ستقتله، وإن شئت أريتك المكان الذي يقتل فيه فضرب بيده فجاء بطينة حمراء فأخذتها أم سلمة فصرتها في خمارها»[1].

لاحظ أيها القارئ الكريم، صريح حمل ملك المطر عليه السلام لتربة كربلاء وحمل أم المؤمنين أم سلمة (رضي الله عنها) لهذه التربة ووضعها في خمارها.

٢. أورد الطبراني عن المطلب بن عبد الله بن حنطب عن أم سلمة (رضي الله عنها)، قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم جالساً ذات يوم في بيتي، فقال:

«لا يدخلن عليّ أحد».

فانتظرت، فدخل الحسين عليه السلام فسمعت نشيج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يبكي!! فأطلعت فإذا الحسين في حجره أو إلى جنبه يمسح رأسه وهو يبكي!؛ فقلت والله ما علمته حين دخل.

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

«إن جبرائيل كان في البيت، فقال: أتحبه؟ قلت: نعم.

---

(١) مسند احمد: ج ٣، ص ٢٤٢، مجمع الزوائد للهيثمي: ج ٩، ص ١٨٧، ط دار الكتب العلمية. مسند أبي يعلى الموصلي: ج ٦، ص ١٣٣، ط دار المأمون للتراث. صحيح ابن حبان: ج ١٥، ص ١٤٣، ط دار الكتب العلمية. المعجم الكبير للطبراني: ج ٣، ص ١٠٦، ط دار الثقافة العربية، إمتاع الإسماع للمقريزي: ج ١٢، ص ٢٣٥، ط دار الكتب العلمية.

قال:

إن أمتك ستقتل هذا بأرض يقال لها كربلاء، فتناول جبرائيل من تربتها فأراه النبي صلى الله عليه وآله »[١].

المسألة الثانية: النبي الأكرم صلى الله عليه وآله يخبر عليا عليه السلام بخصوصية تربة كربلاء

ومن الأحاديث النبوية الشريفة ما دلّ على أن النبي المصطفى صلى الله عليه وآله كان يحدث عن خصوصية تربة كربلاء في مناسبات عديدة. بل الظاهر أن الله عز وجل كان يطلع حبيبه المرسل صلى الله عليه وآله في أوقات مختلفة عما تحمله أرض كربلاء من خصوصية مكانية، ولذا تعددت الأحاديث منه صلى الله عليه وآله إلى أكثر من شخص كما سيمر علينا.

منها إخباره صلى الله عليه وآله أمير المؤمنين علياً عليه السلام:

فعن عبد الله بن نجحي، عن أبيه، أنه سار مع علي عليه السلام وكان صاحب مطهرته، فلما حاذى نينوى وهو منطلقه إلى صفين فنادى علي عليه السلام:

اصبر أبا عبد الله! اصبر أبا عبد الله بشط الفرات.

قلت: وماذا؟.

قال:

---

(١) المعجم الكبير للطبراني: ج ٢٣، ص ٢٨٩، ط دار إحياء التراث العربي. كنز العمال للهندي: ج ١٢، ص ١٢٦، ط دار الثقافة العربية. سبل الرشاد للصالحي: ج ١٠، ص ١٥٣، ط دار الكتب العلمية. سير أعلام النبلاء للذهبي: ج ٣، ص ٢٨٩، مؤسسة الرسالة.

دخلت على النبي ﷺ ذات يوم وعيناه تفيضان.

قلت: يا نبي الله! أغضبك أحد؟ ما شأن عينيك تفيضان؟.

قال: بل قام من عندي جبرائيل قبل فحدثني: أنّ الحسين يقتل بشط الفرات. قال، فقال: هل لك إلى أن أشمك من تربته؟.

قال: قلت: نعم؛ فمد يده فقبض قبضة من تراب فأعطانيها فلم أملك عيني أن فاضتا[1].

ومن الملاحظ في هذه الأحاديث أن جبرائيل عليه السلام كان قد حمل هذه التربة إلى رسول الله في أكثر من موضع لغرض معين تناولناه بالبحث والدراسة في كتاب مستقل[2].

المسألة الثالثة: شرافة تربة كربلاء عند أزواج النبي ﷺ وأصحابه

من الأحاديث ما أشارت ــ وبألفاظ متعددة ــ إلى اتخاذ أم المؤمنين أم سلمة (رضي الله عنها) لتربة أرض كربلاء في خمارها[3]؛ كي ترافقها في نومها ويقظتها

---

(١) الإكمال في أسماء الرجال للتبريزي: ص ٤٥، ط مؤسسة أهل البيت عليهم السلام. الآحاد والمثاني للضحاك: ج ١، ص ٣٠٨، برقم ٤٢٧، ط دار الدراية. مجمع الزوائد للهيثمي: ج ٩، ص١٨٧، ط دار الكتب العلمية. سير أعلام النبلاء للذهبي: ج ٣، ص ٢٨٨، مؤسسة الرسالة.

(٢) أنظر كتاب: حقيقة الأثر الغيبي في التربة الحسينية للمؤلف.

(٣) مسند أحمد بن حنبل: ج ٣، ص ٢٤٢، ط دار صادر بيروت. مسند أبي يعلى الموصلي: ج٦، ص ١٣٣، ط دار المأمون للتراث. صحيح ابن حبان: ج ١٥، ص ١٤٢، ط مؤسسة الرسالة، المعجم الكبير للطبراني: ج ٣، ص ١٠٦، ط دار إحياء التراث العربي. المسانيد للأنصاري: ج١، ص ٢٤٣، موارد الظمآن للهيثمي: ج ٧، ص ١٩٩، ط دار الثقافة العربية.

وهذا يظهر ما لهذه التربة من شرافة علمت بها زوج النبي صلى الله عليه وآله وسلم ؛ وإن لها عند الله شأناً عظيماً ؛ فكان من أمرها أن حملتها معها.

وفي رواية أخرى أن النبي الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم قد جعل هذه التربة وديعة عندها.

أولاً: فعن الأعمش، عن أبي وائل شقيق بن سلمة، عن أم سلمة، قالت: كان الحسن والحسين ـ عليهما السلام ـ يلعبان بين يدي النبي صلى الله عليه وآله وسلم في بيتي فنزل جبرائيل عليه السلام فقال:

يا محمد إن أمتك تقتل ابنك هذا من بعد فأومأ بيده إلى الحسين ـ عليه السلام ـ فبكى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وضمه إلى صدره.

ثم قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم :

وديعة عندك هذه التربة.

فشمها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقال:

ويح كرب وبلاء.

قالت: وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم :

يا أم سلمة إذا تحولت هذه التربة دماً فاعلمي أن (مشهور)[1] قد قتل.

قال: فجعلتها أم سلمة في قارورة، ثم جعلت تنظر إليها كل يوم، وتقول: إن يوماً تتحولين دما ليوم عظيم[2].

---

(١) (مشهور) إشارة إلى الإمام الحسين ـ عليه السلام ـ.

(٢) المعجم الكبير للطبراني: ج ٣، ص ١٠٨، برقم ٢٨١٧، ط دار إحياء التراث العربي، الإكمال في أسماء الرجال للتبريزي: ص ٤٥، ط مؤسسة أهل البيت عليهم السلام ، تهذيب الكمال للمزّي: ←

ولم يكتف النبي ﷺ بإخبار أم سلمة (رضي الله عنها) فقط. بل أخبر عائشة[1]؛ وزينب بنت جحش[2]؛ وأصحابه[3].

بل المستفاد من الروايات: أن الملائكة كانت تحدث النبي ﷺ بحديث كربلاء في مراتٍ عديدة. وأن النبي الأكرم ﷺ لم يملك دمع عينيه وحبس لواعجه وأحزانه، فمرة تراه يحدث بحديث كربلاء دون أن ينتظر من يسأل عن هذه الدموع، ومرة يحبس الحديث فيكون دمع عينيه كأنما ينطق عن لسان فصيح.

المسألة الرابعة: الإمام علي عليه السلام يخبر أصحابه عن شرافة تربة كربلاء

لقد كان الإمام علي عليه السلام يتبع نهج رسول الله ﷺ في بيانه للحقائق الكونية التي ارتبطت بالثقل الأصغر لشريعة الله تعالى؛ وهم عترة النبي المصطفى ﷺ.

فقد كشف عليه السلام لأصحابه عن الخصوصية المكانية لهذه التربة الطاهرة (أرض كربلاء) وأظهر لهم ما ارتبط بها من مأساة كبيرة تحل بعترة المصطفى ﷺ.

→

ج٦، ص ٤٠٨، ط دار الثقافة العربية، مجمع الزوائد للهيثمي: ج ٩، ص ٢٠٤، ط دار الكتب العلمية.

(١) سير أعلام النبلاء للذهبي: ج ٣، ص ٢٨٩ ـ ٢٩٠، ط مؤسسة الرسالة. سبل الهدى والرشاد للصالحي: ج ١٠، ص ١٥٣، ط دار الكتب العلمية. الإكمال في أسماء الرجال للتبريزي: ص٤٥، ط مؤسسة أهل البيت.

(٢) سبل الهدى والرشاد للصالحي: ج ١٠، ص ١٥٤، ط دار الكتب العلمية.

(٣) ينابيع المودة للقندوزي: ج ٣، ص ٨، ط دار الأسرة، البداية والنهاية لابن كثير: ج ٨، ص٣٠١. سبل الهدى للصالحي: ج ١١، ص ٧٥.

فالمقتول بها ريحانة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؛ وأبناؤه، وبناته، وبنو أخوته؛ فكم لآل أبي طالب (رضوان الله تعالى عليه) من دمٍ قد سفك على هذه الأرض؛ وكأنها قد خلقت لهم، وكأنهم خلقوا لها.

ولذا؛ اشتمل حديثه على هذين الجانبين.

أ. أخرج الشيخ المفيد رحمه الله، عن جويرية بن مسهر العبدي، قال:

لما توجهنا مع أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام إلى صفين فبلغنا طفوف كربلاء، وقف عليه السلام ناحية من العسكر، ثم نظر يميناً وشمالاً واستعبر ثم قال:

«هذا ـ والله ـ مناخ ركابهم وموضع منيتهم، فقيل له يا أمير المؤمنين، ما هذا الموضع»؟

قال:

هذا كربلاء، يقتل فيه قوم يدخلون الجنة بغير حساب[1].

ب. ولم يكتف أمير المؤمنين علي عليه السلام بهذا البيان فقط، أي: عند رجوعه من معركة صفين ومروره بكربلاء، بل لطالما كان يحدث الناس من على منبر الكوفة ويعرفهم بيوم عاشوراء وما يحل فيه من المصائب على آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم في أرض كربلاء.

---

(١) الإرشاد للمفيد: ج ١، ص ٣٣٢، ط دار المفيد، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ج ٣، ص١٧٠، ط دار الكتب العربية. كشف الغمة للآربلي؛ ج ١، ص ٢٨٢، ط دار الأضواء. كشف اليقين للحلي: ص ٨٠، ط ردمك. المناقب لابن شهر: ج ٢، ص ١٠٦. مدينة المعاجر للبحراني: ج ٢، ص ٣٩. كنز العمال للهندي: ج ١٣، ص ٦٥٥.

فقد روي أنّه لما حضرت الحسن عليه السلام الوفاة، قال: لأخيه الحسين عليه السلام:

«إن جعدة ـ لعنها الله ولعن أباها وجدها ـ أنّ أباها قد خالف أمير المؤمنين عليه السلام وقعد عنه الكوفة بعد الرجوع من صفين مغالياً منحرفاً لطاعته بعد أن خلفه بالكوفة من الإمامة، ولا يجتمع معه في جماعة ولا من شيعته، ولا يصلي عليهم منذ سمع أمير المؤمنين عليه السلام على منبره، وهو يقول في خطبته: ويح الفرخ، فرخ آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم وريحانته وقرة عينه ابني الحسين من ابنك الذي من صلبك وهو مع ملك متمرد جبار يملك بعد أبيه.

فقام إليه أبو بحر الاحنف بن قيس التميمي فقال له: يا أمير المؤمنين، ما اسمه؟.

قال:

نعم، يزيد بن معاوية ويؤمر على قتل الحسين، عبيد الله بن زياد على الجيش السائر إلى ابني من الكوفة فتكون وقعتهم بنهر كربلاء غربي الفرات، فكأني انظر مناخ ركابهم، وحط رحالهم، واحاطة جيوش أهل الكوفة بهم وأعمال سيوفهم ورماحهم وقسيهم في جسومهم ودمائهم ولحومهم، وسبي أولادي وذراري رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وحملهم على شرس الاقتاب، وقتل الشيوخ والكهول والشباب والأطفال.

فقام الأشعث بن قيس على قدميه وقال:

ما ادعى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما تدعيه من العلم من أين لك هذا؟.

فقال له أمير المؤمنين عليه السلام :

ويلك يا عنق النار، ابنك محمد والله من قوادهم، أي والله؛ وشمر بن ذي الجوشن وشبث بن ربعي وعمرو بن الحجاج الزبيدي، وعمرو بن حريث.

فأسرع الأشعث إلى قطع الكلام، فقال: يابن أبي طالب، أفهمني ما تقول؟ فقال عليه السلام :

ويلك هو ما سمعت يا أشعث.

فقال: يا بن أبي طالب، ما يساوي كلامك عندي تمرتين!! وولى.

وقام الناس على أقدامهم ومدوا أعينهم إلى أمير المؤمنين عليه السلام ليأذن لهم في قتله. فقال لهم:

مهلاً رحمكم الله، والله إني لأقدر على هلاكه منكم، ولابد أن تحق كلمة العذاب على الكافرين»[1].

وللحادثة بقية تكشف عن سوء عاقبة الذين ظلموا آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم. ولقد أوردنا هذا المقدار كي يطلع القارئ الكريم على أن أهل البيت عليهم السلام كانوا يحدثون الناس بتفاصيل دقيقة تتعلق بقضية كربلاء وبيان خصوصيتها المكانية والزمانية وما ارتبط بها من آثر غيبي ابتداءً من بيان أمير المؤمنين عليه السلام لأسماء أولئك الظالمين وما اكتسبوا من جرائم في حق العترة النبوية عليهم السلام، وانتهاءً بما ورد عن الإمام الحجة عجل الله فرجه الشريف لهذه الحقائق.

(١) موسوعة كلمات الإمام الحسين عليه السلام: ص ٢٠٠. مدينة المعاجز للبحراني: ج٣، ص ١٩٦، حديث ٨٢٦، مؤسسة المعارف الإسلامية.

المبحث الثاني: خصوصية تربة كربلاء عند أئمة أهل البيت عليهم السلام

امتازت أحاديث أئمة أهل البيت عليهم السلام بعد واقعة كربلاء بالسعة في تعريف الناس بشرافة هذه التربة المقدسة وبما تحمل من خصائص؛ والسبب في ذلك يعود للنقاط الآتية.

١. لاشتهار المكان بين الناس ومعرفتهم بسبب فاجعة مقتل أهل البيت عليهم السلام.

٢. لتوجيه الناس إلى التحلي بالآداب واللياقة عند توجههم لزيارة صاحب التربة ومشرّفها الإمام الحسين بن علي عليهما السلام.

٣. لنقل الجنبة المعرّفية عند أهل الإيمان من مرحلة العلم بحقيقة الشيء إلى مرحلة العمل.

فكان حملهم لهذه التربة كاشفاً عما توصلوا إليه من معرفة بها.

فتقديسهم لها، واستشفاؤهم بها، وسجودهم لله عليها؛ دافعهُ العلم بخصوصية هذه التربة؛ وهو ما أشارت إليه الأحاديث الشريفة الآتية:

أولا: تقديم تربة كربلاء بالخلق على تربة مكة

روى الحر العاملي رحمه الله في الوسائل، عن أبي جعفر عليه السلام، قال:

«خلق الله كربلاء قبل أن يخلق الكعبة بأربعة وعشرين ألف عام وقدسها وبارك عليها، فما زالت قبل أن يخلق الله الخلق مقدسة مباركة ولا تزال كذلك[1]؛ حتى يجعلها الله أفضل أرض في الجنة، وأفضل منزل ومسكن يسكن الله فيه أولياءه في الجنة»[2].

---

(١) وسائل الشيعة: ج ١٠، ص ٤٠٤، بابه: استحباب التبرك بكربلاء. التهذيب للطوسي رحمه الله: ج٦، ص ٧٢.

(٢) كامل الزيارات لابن قولوية رحمه الله: ص ٤٥٠ ـ ٤٥١ بتحقيق الشيخ جواد القيومي. بحار الأنوار ←

ثانيا: تفضيلها على أرض مكة وأنها حرم آمن

ومن الأحاديث الأخرى التي تحدثت عن خصوصية تربة كربلاء وتفضيلها على أرض مكة هي ما يلي:

١. فعن أبي الجارود، قال: قال علي بن الحسين عليهما السلام:

«أتخذ الله ارض كربلاء حرماً آمناً مباركاً قبل أن يخلق ارض الكعبة بأربعة وعشرين ألف عام وأنها إذا بدل الله الأرضين رفعها الله كما هي برمتها نورانية صافية فجعلت في أفضل روض من رياض الجنة، وأفضل مسكن في الجنة لا يسكنها إلا النبيون والمرسلون.

أو قال:

أولوا العزم من الرسل وانها لتزهر من رياض الجنة كما يزهر الكوكب الدري من بين الكواكب لأهل الأرض يغشى نورها نور أبصار أهل الجنة جميعاً، وهي تنادي أنا أرض الله المقدسة، والطينة المباركة التي تضمنت سيد الشهداء وشباب أهل الجنة»[1].

٢. روى الحر العاملي رحمه الله في الوسائل عن أبي سعيد القماط، عن عمر بن يزيد، عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام:

←

للمجلسي رحمه الله: ج ٥٤، ص ٢٠٢، ط بيروت. الأصول الستة عشر لعدد من المحدثين: ص١٦، ط دار الشبستري بقم.

(١) الأصول الستة عشر: ص ١٧، ط دار الشبستري بقم. وقريب منه في: الوسائل للحر العاملي رحمه الله: ج ١٠، ص ٤٠٣، باب: استحباب التبرك بكربلاء، ط دار إحياء التراث العربي. مستدرك الوسائل للميرزا النوري: ج١٠، ص٣٢٣.

«أن أرض الكعبة قالت: من مثلي وقد بُنيَ بيت الله على ظهري، يأتيني الناس من كل فج عميق؟ وجعلت حرم الله وأمنه؟ فأوحى الله إليها كفي وقري، ما فَضْلُ ما فضلت به فيما أعطيت أرض كربلاء إلا بمنزلة الابرة غمست في البحر، فحملت من ماء البحر، ولولا تربة كربلاء ما فضلتك، ولولا من ضمنته كربلاء لما خلقتك، ولا خلقت الذي افتخرت به فقري واستقري وكوني ذنباً متواضعاً ذليلاً مهيناً غير مستنكف ولا مستكبر لأرض كربلاء، وإلاّ مسختك وهويت بك في نار جهنم»[1].

والحديثان يتضمنان معاني وحقائق كثيرة نعرضها في المبحثين الآتيين:

المسألة الأولى: سنة التفضيل حقيقة كونية وقرآنية

لو نظر الإنسان إلى ما يدور من حوله في هذا الكون الرحب لوجد أنّ الله عز وجل قد فضل خلقاً على خلق، فالأرض فضلها على الكواكب فجعل فيها الحياة وشرفها بالأنبياء وأكرمها بهبوط الوحي، ثم خلق الماء فجعل منه فراتاً عذباً ومنه مالحاً أجاجاً، وفضل التربة بعضها على بعض فمنها الأرض السبخة التي لا ينبت فيها الزرع ومنها الصلبة التي لا يخرج منها إلاّ الحجارة ومنها الأرض الطيبة؛ ولو نظرنا إلى ارض مكة وارض كربلاء لوجدناهما قد أُعدّتا أن تكونا حرمين فكربلاء ضمت جسد سيد شباب أهل الجنة ومكة ضمت بيت الله.

ولذلك ورد هذا الحديث عن الإمام زين العابدين عليه السلام كي يتعرف الناس على الخصائص التي خصت بها ارض كربلاء. لا من قبيل التقليل من شأن ارض

(١) وسائل الشيعة، باب استحباب التبرك بكربلاء، ج ١٠، ص ٤٠٣. الأصول الستة عشر: ص١٦.

مكة، أو الكعبة المشرفة أعزها الله. وإنما من قبيل بيان الحكمة في تفضيل أرض كربلاء، علماً أن التفضيل في الواقع هو حقيقة قرآنية تحدث عنها كتاب الله تعالى وأنها جرت حتى بين الأنبياء والمرسلين عليهم السلام؛ قال تعالى:

﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾[1].

وعليه؛

فالتفضيل سنة كونية وقرآنية، وان أحاديث العترة عليهم السلام إنما جاءت في هذا المورد كي يطلع الإنسان على حكمة الله فيها.

المسألة الثانية: الحكمة في تفضيل أرض كربلاء على أرض مكة

للوقوف عند الحكمة في تفضيل أرض كربلاء على أرض مكة ينبغي أولاً معرفة عوامل الافتخار ودواعيه بمعنى: أن كربلاء ومكة ـ أعزهما الله ـ قد تضمنتا في ثراهما آثاراً تفضيلية كانت هي السبب في هذا التفضيل، ولذا: سنقف بادئ بدء عند هذه الأسباب.

١. فأما مكة، فإن سبب افتخارها على بقية الأراضي هو: لوجود البيت الحرام، وقدوم الحجاج من كل فجّ عميق، وموضع قبلة المصلي في صلاته، وكلا الفرضين، ـ أي: الصلاة والحجّ ـ قد ارتبطا بالبيت الحرام ـ أعزه الله ـ.

٢. أنها حرم آمن، وهذه الحرمة اكتسابية لا ذاتية، بمعنى أنها اكتُسِبتْ من خلال دعوة إبراهيم عليه السلام.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥٣.

قال تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾(١).

٣. أن فيها مقام إبراهيم عليه السلام ولوجود هذا المقام اكتسبت أرض مكة ـ أعزها الله ـ هذا التفضيل والحرمة. قال تعالى:

﴿فِيهِ ءَايَـٰتٌۢ بَيِّنَـٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾(٢).

والآية تدل على أمرين:

الأمر الأول: أن الآيات البينات جمعت في مقام إبراهيم.

الأمر الثاني: لوجود هذا المقام جعل هذا البلد حرماً آمناً، بمعنى آخر: إن الجعل في الحرمة والأمن كان لوجود مقام إبراهيم عليه السلام.

وهذا يدل على أن شرافة المقام من المقيم وهو إبراهيم الخليل عليه السلام؛ ويدل أيضاً على أن هناك فرقاً بين أرض مكة وبين أرض الكعبة المشرفة؛ إذ قد ينصرف الذهن إلى أن التفضيل هو بين أرض كربلاء والكعبة المشرفة وهذا غير صحيح. لأن الحديث يدور في أسباب التفضيل ودواعيه بين أرض كربلاء وأرض مكة.

وعليه؛ إذا كانت هناك أسباب ودواعٍ لتفضيل مكة على غيرها من البقاع؛ فمن باب أولى النظر إلى هذه الأسباب وما تحمل من شأن عند الله تعالى.

بمعنى آخر: إذا كانت أرض مكة تفتخر على بقية الأراضي والبقاع بسبب بيت

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٢٦.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٩٧.

الله المحرم، ومقام إبراهيم عليه السلام فالفخر كل الفخر بمقيم البيت وذريته، أي: بإبراهيم وذريته يكون التفضيل لا بالأرض. وهذه حقيقة قرآنية لا تقبل الريب، قال تعالى:

﴿رَبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ﴾[١].

ثالثا: إن كربلاء هي البقعة المباركة بجانب شاطئ الوادي الأيمن

ومن الأحاديث التي أظهرت الخصوصية المكانية لأرض كربلاء، حديث أخرجه الشيخ الطوسي والشيخ المفيد، والعاملي، والقمي، والنوري (رحمهم الله) وغيرهم.

واللفظ للشيخ الطوسي: عن علي بن الحكم، عن مخرمة بن ربعي، قال: قال أبو عبد الله الصادق عليه السلام:

«شاطئُ الوادي الأيمن الذي ذكره الله تعالى في القرآن هو الفراتُ، والبقعة المباركة هي كربلاء»[٢].

وفي رواية:

«والشجرة هي محمد صلى الله عليه وآله وسلم»[٣].

---

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٣٧.

(٢) التهذيب للطوسي رحمه الله، باب: فضل الكوفة، ج ٦، ص ٣٨. وسائل الشيعة للعاملي: ج ١٤، ص ٤٠٥ برقم ١٩٤٦٧. مستدرك الوسائل للنوري: ج ١٧، ص ٢٣، رقم ٢٠٦٣٤ ـ ٥. المزار للشيخ المفيد: ص ١٥.

(٣) كامل الزيارات للقمي: ص ١٠٩، ط نشر الفقاهة. مستدرك الوسائل: ج ١٧، ص ٢٣. البحار للمجلسي: ج ١٣، ص ٤٩.

رابعا: إنها محل ولادة عيسى عليه السلام والربوة التي التجأت إليها مريم عليها السلام

أخرج الطوسي رحمه الله عن أبي حمزة الثمالي، عن علي بن الحسين عليهما السلام، في قوله:

﴿فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا﴾[1].

قال:

«خرجت من دمشق حتى أتت كربلاء فوضعته في موضع قبر الحسين عليه السلام، ثم رجعت من ليلتها»[2].

وفي رواية: عن أم سلمة (رضي الله عنها) حينما قتل الحسين عليه السلام، قامت فأخبرت بذلك!

فقيل لها: أنى علمت؟!.

قالت: دفع إلي رسول الله صلى الله عليه وآله، وقال لي:

«إذا صار هذا دماً فاعلمي، أن ابني قد قتل؛ فكان كما قال. وقبره في البقعة المباركة والربوة التي هي ذات قرار ومعين بطف كربلاء بين نينوى والغاضرية من قرى النهرين»[3].

---

(١) سورة مريم، الآية: ٢٢.

(٢) التهذيب للشيخ الطوسي: ج ٦، ص ٧٣، حديث ١٣٨ ــ ٩. البحار للمجلسي: ج ١٤، ص٢١٢. تفسير الصافي للكاشاني ج ٣، ص ٢٧٧. الخصائص الفاطمية للكجوري: ج ١، ص ٤٢١. الهداية الكبرى للخصيبي: ص ١٢١، ط مؤسسة البلاغ بيروت.

(٣) دلائل الإمامة للطبري: ص ٧٢، ط دار الذخائر، قصص الأنبياء للجزائري: ٤٠٨، ط مكتبة المرعشي.

خامسا: أنها الموضع الذي ردت فيه الشمس لعلي أمير المؤمنين عليه السلام

من الكرامات التي أكرم الله بها أمير المؤمنين عليه السلام كرامة رد الشمس بعد غروبها. والمتتبع للروايات والآثار الواردة عن العترة عليهم السلام وسيرة المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم ووصيه عليه السلام يجد أن هذه الكرامة قد تكررت له ـ بأبي وأمي ـ مرات عدة.

منها: ما كان زمن النبي الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم بدعوة منه لعلي عليه السلام بأن يخصه الله بهذه الكرامة والمنقبة، وقد شهدها النبي صلى الله عليه وآله وسلم والإمام علي عليه السلام وخلق كثير. وكان هذا الحدث في المدينة[1].

ومنها ما كان في العراق وقد تكررت مرتين.

فالأولى: أوردها الشيخ الخصيبي[2] ـ المتوفى سنة ٣٥٢ هـ في كتابه الهداية

(١) راجع في حادثة رد الشمس لعلي عليه السلام: الكافي للكليني رحمه الله، باب: إتيان المشاهد وقبور الشهداء، ج ٤، ص ٥٦٢. من لا يحضره الفقيه للشيخ الصدوق رحمه الله: ج ١، ص ٢٠٣، وج ٤ ص ٤٣٨، ط جماعة المدرسين بقم. وسائل الشيعة للحر العاملي، باب: حكم الصلاة في أرض بابل، ج ٥، ص ١٨١. خاتمة المستدرك للميرزا النوري: ج ٤، ص ٩٤. الإرشاد للشيخ المفيد رحمه الله: ج ١، ص ٣٤٦، ط دار المفيد، الاحتجاج للطبرسي: ج ١، ص ١٦٦، ط دار النعمان. المناقب لابن شهر: ج ٢، ص ١٤٣. مشكل الآثار للطحاوي: ج ٢، ص ٣٨٨. فيض القدير للمناوي: ج ٥، ص ٤٤٠. السيرة النبوية لدحلان: ج ٢، ص ٢٠١. مناقب الإمام علي عليه السلام للخوارزمي: ص ٦٣. فرائد السمطين: ١ / ١٤٦ ــ ١٤٨. تاريخ ابن عساكر، ترجمة الإمام علي عليه السلام: ج ٢، ص ٢٨٣ ـ ٣٠٥. المناقب لابن المغازلي: ص ٩٨، حديث ١٤١. ينابيع المودة: ج ١، ص ٤١٥ وج ٢، ص ٣٨٢. وغيرها.

(٢) هو الحسين بن عبد الله الخصيبي الجنبلائي أو الجنبلاني، وكنيته: أبو عبد الله؛ نسبةً إلى جده الخصيب أو اسم المنطقة التي ولد فيها، وأما الجنبلائي نسبة إلى جنبلاء بالهمزة، بلدة بين واسط والكوفة.

←

الكبرى ـ قائلاً: (إن أمير المؤمنين عليه السلام سار بعسكره من النخيلة مغرباً حتى أتى نهر كربلاء، فمال إلى بقعة يتضوع منها المسك وقد جنّ عليه الليل مظلماً متعكراً ومعه نفر من أصحابه، وهم: محمد بن أبي بكر، والحارث الأعور الهمداني وقيس بن عبادة، ومالك الأشتر، وإبراهيم الحسن الأزدي، وهاشم المري.

قال ابن عبيد الله بن يزيد: فلما وقف في البقعة وترجل النفر معه وصلى؛ قال لهم: «صلوا كما صليت ولكم علي علم هذه البقعة».

فقالوا: يا أمير المؤمنين لك منن علينا بمعرفتها. فقال عليه السلام:

«هذه والله الربوة ذات قرار ومعين، التي ولد فيها عيسى عليه السلام، وفي موضع الدالي من ضفة الفرات غسلت مريم، واغتسلت، وهي البقعة المباركة التي نادى الله موسى من الشجرة، وهي محط ركاب من هنأ الله به جده رسول الله صلى الله عليه وآله، وعزاه».

فبكوا وقالوا: هو سيدنا أبو عبد الله الحسين؟. قال لهم أمير المؤمنين عليه السلام:

أقوال المؤرخين المعاصرين له كثيرة بين متحامل عليه وحاقد، وبين محب ومخلص، وبين ملتزم في الصمت، منهم النجاشي، وابن الغضائري، وصاحب الخلاصة من المتحاملين عليه. وفي لسان الميزان ـ ترجم له الذهبي بقوله: أحد المصنفين في فقه الإمامية، روى عنه أبو العباس ابن عقدة وأثنى عليه وأطراه وامتدحه، أما السيد محسن الأمين فقد قال في أعيانه: لوصح ما زعموا وما ذهبوا إليه ونسبوه له لما كان الأمير سيف الدولة المعروف والمشهور بصحة عقيدته الإسلامية وولائه للعترة الطاهرة وآل البيت عليهم السلام، صلى عليه وأتم به.

وأورد السيد الأمين: مؤلفات الخصيبي وأورد أسماء من أتوا على ذكرها ومحص تلك الأقوال والآراء المتعددة.

(الهداية: للخصيبي: مقدمة الكتاب إعداد مؤسسة البلاغ لسنة ١٤١١هـ ـ ١٩٩١م).

«اخفضوا من أصواتكم فإنه وإخوانه في هذا السواد وما أحب أن يسمعوا فيحزنوا على الحسين؛ على إن الحسين قد علم وفهم ذلك كله، وأخبره به جده رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم».

ثم قبض قبضة من نشر دوحات كأنهن قضبان اللجين، فاشتمها ثم ردها في أيدينا وقال:

«لا تظنوا أنها من غزلان الدنيا، بل هي من غزلان الجنة، تعمر هذه البقعة وتؤنسها وتنثر فيها الطيب».

قال قيس بن سعد بن عبادة: كيف لنا بان نرسم هذه البقعة بأبصارنا، وهذا الليل بظلمته يمنعنا من ذلك؟. فقال لهم:

«هذا عسكرنا حائر لا يهتدي طريقه».

فقال له محمد بن أبي بكر: يا مولانا ومولى كل مؤمن ومؤمنة، فأين فضلك الكبير لا يدركنا؟ فانفرد أمير المؤمنين عليه السلام بجانب من البقعة، وصلى ركعتين، ودعا بدعوات، فإذا الشمس قد رجعت من مغربها فوقفت في كبد السماء، فهلل العسكر وكبروا وخر أكثرهم سجداً لله؛ ونظروا إلى البقعة وعرفوها وعلموا أين هي من الفرات، وهي كربلاء؛ ثم سار العسكر في الجادة وغربت الشمس[1].

إذن؛ هذه جملة من الأحاديث الواردة عن العترة النبوية صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين تتجلى فيها الخصوصية المكانية لتربة كربلاء. وبدت من خلالها الحكمة في تفضيلها على أرض مكة، بل على جميع بقاع الأرض، وأن الله حفظ بمن تضمنته تربة كربلاء، وهو الإمام الحسين عليه السلام شريعة جده المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم.

---

(١) الهداية الكبرى: ص ١٢١، ط مؤسسة البلاغ ـ بيروت.

المبحث الثالث:

الخصوصية المكانية لتربة كربلاء وعلاقتها بالدعاء

عندما نجد أن الله عز وجل قد جعل في هذا الكون سنة التفضيل في خلقه سواء أكان بين الملائكة أم بين الأنبياء، والمرسلين والأوصياء عليهم السلام؛ أم بين الأماكن والبقاع كـ: كربلاء، ومكة، والمدينة، والكوفة، والنجف، والقدس، وغيرها من البقاع والأمكنة التي كرمها الله عز وجل؛ أو نلحظ هذا التكريم بزمانٍ محدد كشهر رمضان وليلة القدر وغيرها.

فعندها يصبح الأمر بديهياً عند العقلاء أن يتخذوا هذه الأماكن والأزمنة محلاً يتقربون من خلالها إلى الله تعالى. فلو لم يكن هذا الموضع أو ذاك مرضياً عند الله لما أكرمه الله عز وجل وفضله على كثير من خلقه.

فكيف إذا وردت فيه نصوص تدل على هذا التخصيص.

وعليه؛ نجد للدعاء في كربلاء خصوصيةً في التقرب إلى الله تعالى ونيل رضاه.

وأنّ خير ما نستدل به على هذه العلاقة بين الدعاء والمكان ـ ما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام بهذا المورد.

قال عليه السلام:

«وليصيرن الله كربلاء معقلاً ومقاماً تختلف فيه الملائكة والمؤمنون وليكونن لها شأن من الشأن، وليكونن فيها من البركات ما لو وقف ودعا ربه بدعوة لا عطاه الله بدعوته الواحدة مثل ملك الدنيا ألف مرة».

ثم تنفس أبو عبد الله عليه السلام ، وقال :

«يا مفضل إن بقاع الأرض تفاخرت ففخرت كعبة البيت الحرام على بقعة كربلاء، فأوحى الله إليها أن اسكتي كعبة البيت ولا تفتخري على كربلاء، فإنها البقعة المباركة التي نودي موسى منها من الشجرة، وإنها الربوة التي أويت إليها مريم والمسيح، وأنها الدالية[1] التي غسل فيها رأس الحسين عليه السلام وحينما غسلت مريم عيسى عليه السلام واغتسلت من ولادتها وإنها خير بقعة عرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم منها وقت غيبته وليكونن لشيعتنا خيرة إلى ظهور قائمنا عليه السلام»[2].

والحديث يشير بوضوح إلى العلاقة بين الدعاء والمكان، والى أثر هذا المكان الذي خصه الله تعالى بالتفضيل والتكريم في استجابة الدعاء وقبوله.

ومن الأحاديث التي أشارت إلى العلاقة بين الدعاء وأرض كربلاء وحددت موضع الإجابة فيها حديث ورد عن النبي الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم يكشف فيه عن جملة من المميزات الخاصة بهذا الموضع.

فعن طاووس اليماني، عن عبد الله بن عباس، قال :

دخلت على النبي صلى الله عليه وآله وسلم والحسن على عاتقه والحسين على فخذه يلثمهما ويقبلهما ويقول :

«اللهم وال من والاهما وعاد من عادهما».

ثم قال :

---

(١) الدالية : الناعورة التي يديرها الماء، وكأنه يريد ماء الفرات.

(٢) بحار الأنوار للمجلسي : ج ٥٣، ص ١٢.

«يا ابن عباس كأني به وقد خضبت شيبته من دمه، يدعو فلا يجاب، ويستنصر فلا ينصر».

قلت: من يفعل ذلك يا رسول الله ﷺ؟.

قال ـ ﷺ ـ:

شرار أمتي، مالهم لا أنالهم الله شفاعتي.

ثم قال ـ ﷺ ـ:

يا ابن عباس من زاره عارفاً بحقه كتب له ثواب ألف حجة وألف عمرة ألا ومن زاره فكأنما زارني، ومن زارني فكأنما زار الله، وحق الزائر على الله أن لا يعذبه بالنار ألا وإن الإجابة تحت قبته والشفاء في تربته، والأئمة من ولده.

قلت: يا رسول الله، فكم الأئمة بعدك؟. قال ـ ﷺ ـ:

«بعدد حواري عيسى وأسباط موسى ونقباء بني اسرائيل».

قلت: يا رسول الله، فكم كانوا؟.

قال ـ ﷺ ـ:

كانوا اثني عشر، والأئمة بعدي اثنا عشر، أولهم علي بن أبي طالب، وبعده سبطاي الحسن والحسين فإذا انقضى الحسين فابنه علي، فإذا انقضى علي فابنه محمد، فإذا انقضى محمد فابنه جعفر، فإذا انقضى جعفر فابنه موسى، فإذا انقضى موسى فابنه علي، فإذا انقضى علي فابنه محمد، فإذا انقضى محمد فابنه علي، فإذا انقضى علي فابنه الحسن، فإذا انقضى الحسن فابنه الحجة.

قال ابن عباس: قلت، يا رسول الله أسامي لم أسمع بهن قط.

قال لي:

يا ابن عباس هم الأئمة بعدي وإن قهروا، أمناء معصومون، نجباء أخيار، ويا ابن عباس من أتى يوم القيامة عارفاً بحقهم أخذت بيده فأدخلته الجنة.

يا ابن عباس من أنكرهم أو رد واحداً منهم فكأنما قد أنكرني وردّني، ومن أنكرني وردني فكأنما أنكر الله ورده يا ابن عباس سوف يأخذ الناس يميناً وشمالاً فإذا كان كذلك فاتبع علياً وحزبه، فإنه مع الحق والحق معه ولا يفترقان حتى يردا على الحوض. يا ابن عباس ولايتهم ولايتي وولايتي ولاية الله، وحربهم حربي وحربي حرب الله، وسلمهم سلمي وسلمي سلم الله.

ثم قال صلى الله عليه وآله وسلم:

﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾[1]»[2].

(١) سورة التوبة، الآية: ٣٢.

(٢) كفاية الأثر للخزار القمي: ص ١٧، طبع ونشر انتشارات بيدار ــ قم. وسائل الشيعة: ج ١٤، ص ٤٥٢، ط مؤسسة آل البيت عليهم السلام. الصراط المستقيم للعاملي: ص ١٤٥، المكتبة المرتضوية. البحار للمجلسي: ج ٣٦، ص ٢٨٦، ط دار إحياء التراث. جامع أحاديث الشيعة للسيد البروجردي: ج ١٢، ص ٣٩٨، ط المطبعة العلمية بقم.



الفصل الثالث:

الخصوصية الزمانية

لدعاء الإمام الحسين عليه السلام

مثلما ارتبط الدعاء بخصوصية المكان، كذلك ارتبط بخصوصية الزمان، فهناك أزمنة وأوقات اختارها الله عزوجل لكي يتقرب فيها إليه؛ ويلتمس فيها فضله وعفوه ومغفرته، فيمنّ على من يشاء ويختص برحمته من يشاء وهو أكرم الأكرمين.

والشواهد على ذلك كثيرة كشهر رمضان، وليلة القدر، وليلة عرفة ويومه، وليلة الفطر ويومه، وليلة الأضحى ويومه، وليلة المبعث ويومه، وليلة الجمعة ويومها، وليلة النصف من شعبان ويومه، والأيام البيض من كل شهر، وغيرها.

أما ما يتعلق بهذا اليوم الذي وقف فيه ريحانة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يدعو ربه ويناجيه فقد وردت فيه روايات عديدة تكشف إن لهذه البقعة المباركة أياماً ارتبطت بالله عزوجل وبالدعاء إليه.

بل تفيد الروايات أن هذه الأيام التي لله عزوجل والتي يحب عزّ شأنه أن يتقرب له فيها، أنها إذا قرنت بهذا المكان كانت أسرع في الإجابة وأنفذ في قضاء الحاجة لأن الداعي إلى الله عزوجل قد جمع الخصوصية الزمانية والمكانية للدعاء في آن واحد.

والقرآن يعرض هذه الحقيقة الغيبية في مناجاة موسى الكليم عليه السلام فقد اختار الله عزوجل للكليم الزمان والمكان الذي يناجي فيه ربه.

قال تعالى:

﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾[1].

وفي الإسراء والمعراج اختار الله عزوجل لحبيبه المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم الزمان والمكان الذي يعرج منه إلى السماء.

قال تعالى:

﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[2].

فكان المكان هو المسجد الحرام والمسجد الأقصى؛ والزمان كان الليل.

وغيرها من الشواهد والدلائل القرآنية التي تشير إلى حقيقة تعيين الأزمنة والأمكنة التي يتقرب من خلالها إلى الله تعالى.

وعند الرجوع إلى أحاديث العترة النبوية الطاهرة عليهم السلام نجد أن هذه الأحاديث قد خصت هذا المكان بأزمنة محددة يتقرب فيها إلى الله عزّوجلّ.

وهي كالآتي:

---

(١) سورة الأعراف، الآية ١٤٢.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ١.

المبحث الأول:

خصوصية ليلة عرفة ويومه في أرض الحائر الحسيني

امتازت ليلة عرفة بخصوصية خاصة عند جميع المسلمين على اختلاف مدارسهم الفقهية لارتباطها بفريضة الحج ؛ بل قد دلّ حديث النبي الأكرم ﷺ : «**الحج عرفة**»[١].

على تحقق مقصد الحج في عرفة لاجتماع المكان والزمان اللذين يتقبل الله فيهما هذه الفريضة. فهو الموضع الذي منه يرفع الدعاء، وإليه ينظر الله عزّوجلّ بعين الرحمة والمغفرة فيجود بمنّه وفضله على عباده الذين لبوا النداء وقدموا لهذا المكان الذي اختاره وميزه عن بقية الأمكنة والبقاع وحدد له الزمان الذي يقف فيه أولئك الوافدون لطلب رحمته وعفوه ومغفرته ورضاه.

ولذلك ؛ رفدها أئمة العترة النبوية الطاهرة عليهم السلام بضروب عديدة من الأدعية لأنها الموضع الذي ينبغي للمؤمن أن يلهج فيه إلى الله بأنواع الأدعية من التبتل والاستكانة والابتهال والاستغاثة ؛ وغير ذلك مما ورد في مدرسة الدعاء عند أهل البيت عليهم السلام ، وبخاصّة دعاء الإمام الحسين عليه السلام في يوم عرفة ؛ الذي احتوى على أصول وفروع لعلوم مختلفة كالشرعية والإنسانية والطبيعية ؛ فكان بحق منهلاً من مناهل العلم والمعرفة التي يجد فيه الباحث مادته البحثية، ويلمس فيه المفكر نوافذه التأملية.

ومن هنا ؛ نرى أن أحاديث العترة عليهم السلام قد دلّت على مواضع وأماكن أخرى

---

(١) الدروس للشهيد الأول: ج١، ص٤٢٧. مستدرك الوسائل للنوري: ج١٠، ص٣٤. مسند احمد: ج٤، ص٣١٠. سنن الترمذي: ج٢، ص١٨٨.

اقترنت بزمان عرفة[1]، بوصوفه الزمان الذي يفتح الله فيه أبواب رحمته ولطفه. ومن بين هذه الأماكن هو الحائر الحسيني على ساكنه وجده وأبيه وأمه وأخيه والأئمة من بنيه آلاف الصلاة والسلام.

فقد جاءت هذه الروايات لتعرف المؤمنين أن هذه البقعة على أثر الدعاء والعبادة لمن أراد أن يأتي بالمستحبات، أي أن موضع قبر سيد شباب أهل الجنة عليه السلام هو عند الله أخص من جبل عرفة في دخول الجنة لمن لم يدرك الحج المستحب؛ وهو أوفق في نيل رضا الله ورضا رسوله صلى الله عليه وآله وسلم.

كما دلت عليه أحاديث أهل البيت عليهم السلام، والتي منها:

١. عن بشير الدهان قال: قلتُ لأبي عبد الله الصادق عليه السلام ربما فاتني الحج فأُعَرِّفُ[2] عند قبر الحسين عليه السلام؟ فقال:

«أحسنت يا بشير أيما مؤمن أتى قبر الحسين عليه السلام عارفاً بحقه في غير يوم عيد كتب الله له عشرين حجة، وعشرين عمرةً مبرورات متقبلات، وعشرين غزوةً مع نبي مرسلٍ، أو إمام عدلٍ. ومن أتاه يوم عرفة عارفا بحقه كتب الله له ألف حجةٍ وألف عمرةٍ مبرورات متقبلاتٍ وألف غزوةٍ مع نبي مرسلٍ أو إمام عدلٍ».

قال: فقلت له: وكيف لي بمثل الموقف؟. قال: فنظر إلي نظر المغضب[3] ثم قال:

---

(١) وهو اليوم التاسع من شهر ذي الحجة ويومه.

(٢) فأُعَرِّفُ: أي أكون في يوم عرفة عند قبر الحسين عليه السلام.

(٣) وهنا كان غضبه عليه السلام بسبب استعظام السائل للوقوف على جبل عرفة في الحج المستحب واعتقاده بأن هذا الوقوف لمن أراد أن يتنفل أفضل عند الله تعالى من زيارة الإمام الحسين عليه السلام؛ ←

«يا بشير، إنّ المؤمن إذا أتى قبر الحسين عليه السلام يوم عرفة واغتسل بالفرات، ثم توجه إليه كتب الله عزّوجلّ له بكل خطوةٍ حجةً بمناسكها».

ولا أعلمه إلاّ قال:

وغزوة[1].

٢. عن ابن مسكان قال، قال أبو عبدالله الصادق عليه السلام:

«إنّ الله تبارك وتعالى يتجلى لزوار قبر الحسين عليه السلام قبل أهل عرفات ويقضي حوائجهم ويغفر ذنوبهم ويشفعهم في مسائلهم ثم يثني بأهل عرفات فيفعل ذلك بهم»[2].

٣. وفي المصباح عن عمر بن الحسين العرزمي عن أبي عبد الله عليه السلام قال:

«إذا كان يوم عرفة نظر الله تعالى إلى زوار قبر الحسين عليه السلام فقال ارجعوا مغفوراً لكم ما مضى ولا يكتب على أحد منهم ذنب سبعين

←

ولذلك بين عليه السلام حجم الأجر والثواب الذي يناله المؤمن في زيارة قبر الإمام الحسين عليه السلام في هذا الزمان، أي: في يوم عرفة.

(١) الكافي للكليني: ج ٤، ص ٥٨٠، باب: فضل زيارة أبي عبدالله الحسين عليه السلام. من لا يحضره الفقيه للشيخ الصدوق: ج ٢، ص ٥٨٠، باب: فضل زيارة النبي صلى الله عليه وآله والأئمة. التهذيب للشيخ الطوسي: ج ٦، ص ٤٦، باب: فضل زيارته عليه السلام. وسائل الشيعة للحر العاملي: ج١٤، ص ٤٥٩، باب: تأكد استحباب زيارته عليه السلام. مستدرك الوسائل: ج ١٠، ص ٢٨١. بحار الأنوار: ج ٩٨، ص ٨٥.

(٢) وسائل الشيعة للحرالعاملي: ج ١٤، ص ٤٦٥. مستدرك الوسائل للنوري: ج ١٠، ص٢٨٣. بحار الأنوار: ج ٩٨، ص ٣٦. كامل الزيارات لابن قولويه: ص ١٦٥.

يوماً من يوم ينصرف»[١].

٤. عن يونس بن ظبيان عن أبي عبدالله عليه السلام ، قال:

«من زار قبر الحسين عليه السلام يوم عرفة كتب الله له ألفَ ألفِ حجة مع القائم عجل الله فرجه وألفَ ألفِ عمرةٍ مع رسول الله صلى الله عليه وآله وعتق ألفَ ألفِ نسمة وحمل ألفَ ألفِ فرس في سبيل الله وسماه الله عبدي الصدّيق آمن بوعدي وقالت الملائكة فلان صدّيق زكاه الله من فوق عرشه، وسمي في الأرض كروبياً»[٢].

٥. وعن ابن ميثم التمار، عن الباقر عليه السلام قال:

«من بات ليلة عرفة بأرض كربلاء وأقام بها حتى يُعيّد وينصرف وقاه الله شر سنته»[٣].

فهذه الأحاديث وغيرها جاءت لتظهر للمؤمن الذي قدم لزيارة الإمام الحسين عليه السلام في يوم عرفة بأنه نال من الأجر والثواب ما لم ينلهُ متقرب إلى الله عزّوجلّ في جميع البقاع والأماكن المقدسة ولاسيما جبل عرفة.

---

(١) مصباح المتهجد للطوسي: ص ٧١٦. كامل الزيارات، الباب السبعون، ص ١٧١. الإقبال: ٣٣٢. وسائل الشيعة: ج ١٤، ص ٤٦٣. مستدرك الوسائل: ج ١٠، ص ٢٨٥. البحار: ج٩٨، ص ٨٨، بحار الأنوار للعلامة المجلسي رحمه الله: ج٩٨، ص٨٨، ح١٦.

(٢) التهذيب للطوسي: ج ٦، ص ٤٩. الوسائل: ج ١٤، ص ٤٦٠. مستدرك الوسائل: ج ١٠، ص٢٨٥. بحار الأنوار: ج ٩٨، ص ٨٨. كتاب المزار للمفيد: ص ٤٦. مصباح المتهجد: ص٥١٥.

(٣) وسائل الشيعة: ج ١٤، ص ٤٦٤. مستدرك الوسائل: ج ١٠، ص ٢٨٧. البحار: ج ٩٨، ص ٩٠. إقبال الأعمال: ص ٣٣٠. كامل الزيارات: ص ٢٦٩. كتاب المزار للشيخ المفيد: ص٤٨. مصباح المتهجد: ص ٧١٦.

مسألة: كيف يتحقق النظر إلى زوار قبر الحسين عليه السلام مع تقدم وقوف أهل عرفات زمانا لاختلاف الأفق!

غالباً ما يختلف الأفق بين أرض الرافدين وأرض الحجاز في رؤية الهلال في كل عام مما يؤدي إلى تقدم الشهر القمري بيوم وليلة في الحجاز، فيقوم الوافدون إلى بيت الله الحرام بالبدء بمناسك الحج تبعاً لرؤية الهلال.

فيكون الوقوف على جبل عرفات متقدماً على من ذهب لزيارة قبر الإمام الحسين عليه السلام بيوم وليلة، فكيف يتحقق نظر المولى عزّوجلّ بعين الرحمة والمغفرة إلى زوار قبر الإمام الحسين عليه السلام قبل نظره عزّوجلّ إلى أهل عرفات.

ودفع هذا الإشكال يكون في أمرين:

الأمر الأول: هو أن لكل إنسان ملائكة موكلين بعمله يكتبون كل ما يصدر عنه خيراً أو شراً، لقوله تعالى:

﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ (١٠) كِرَامًا كَاتِبِينَ (١١) يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾[١].

وإن هذا العمل يرفع إلى الله تعالى فينظر فيه ثم يعرض على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ثم على وصيه عليه السلام، قال تعالى:

﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[٢].

هذا النظر من الله عزّوجلّ في أعمال الخلق يكون فيه أولويات فتقدم بعض

---

(١) سورة الانفطار، الآية: ١٠ ـ ١٢.

(٢) سورة التوبة، الآية: ١٠٥.

الأعمال للنظر فيه على غيره ؛ ومثاله ـ ولله المثل الأعلى ـ كمن أراد أن يتقدم بطلب لدى مؤسسة حكومية أو أهلية وغيرها ، للحصول على وظيفة ، أو استثمار ، أو مناقصة ، وغيرها من الطلبات ، وهو يرى أن هناك العديد من الطلبات التي سبقته في التقديم ، وأن هناك كثيرين سيأتون بعده وهم يحملون نفس الشروط ، سينظر المختصون في طلبه قبل هؤلاء جميعاً وجوابه : هو نيل رضا المختصين في هذه المؤسسة. والحال نفسه في أعمال الخلق وصعود الملائكة بها إلى الله عزّوجلّ فنظر المولى عزّ شأنه إلى زوار قبر الإمام الحسين عليه السلام مقدم على نظره لأهل عرفات. والعلة في ذلك هي :

١. أنّ حرمة جبل عرفات لمن قصده استحباباً في اليوم التاسع من ذي الحجة لا يمكن أن ترقى إلى حرمة سيد شباب أهل الجنة عليه السلام.

٢. أنّ التقرب إلى الله عزّوجلّ من تحت قبة قبر حجة الله ووصي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لمن أراد أن يدعو الله في هذا اليوم لا يعدله شيء في نيل رضا الله تعالى ، لأن فيه رضا رسوله صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته عليهم السلام كما دلت عليه الأحاديث.

٣. اشترط الإمام الصادق عليه السلام في حصول هذا الثواب والخير الكثير : أن يكون الزائر عارفاً بحق الإمام الحسين عليه السلام وهذا يعني أن الأجر محصور بالمعرفة فهناك في مكة تكون المعرفة بما اقترف الإنسان من ذنوب ، وهنا عند الإمام الحسين تكون المعرفة بشريعة الله تعالى ، وفضل معرفة الشريعة أكبر عند الله تعالى من معرفة الذنب كما فضل الله نوم العالم على عبادة الجاهل.

الأمر الثاني : من الناحية العلمية فإن دوران الأرض حول نفسها يجعل الفارق الزمني بين مكة المكرمة وشمال أمريكا ما يقارب سبع الساعات ، وإن قيام المسلمين بإحياء ليلة القدر في شمال أمريكا متأخر على أهل مكة بنحو ثلثي ليلة

القدر في حين إن وعد الله صدق وقوله فصل ؛ فليلة القدر ؛

﴿سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطۡلَعِ ٱلۡفَجۡرِ﴾[١].

وعليه ؛ فنزول الملائكة في ليلة القدر قائم بدوام عنوان الليل ووجوده سواء أكان الليل في مكة متقدماً على الليل في كندة بـ(٦ أو ٧) ساعات ؛ أم أن ليل مكة متأخر عن ليل استراليا والشرق الأقصى سبع أو ثماني ساعات ، فالأعمال كلها يعرج بها إلى الله تعالى ، لكن تقديم بعضها على البعض في نيل رضا الله مرهون بمودة من أوجب الله مودتهم على جميع الخلق ، ومن أعظم مصاديق المودة لآل البيت عليهم السلام هو زيارة قبر الإمام الحسين عليه السلام ، ولأجلها ينال الزائر كل هذا الأجر والثواب والمغفرة وأكبر من ذلك كله ؛

﴿وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ﴾[٢].

ولذلك ؛ فقد زخرت كتب الحديث والفقه والأدعية بتأكيد استحباب زيارة قبر الحسين عليه السلام في بعض الأزمنة المخصوصة فضلاً عن ليلة عرفة ويومه ، كليلة الفطر ويومه ، وليلة الأضحى ويومه ، وليلة الأول من رجب ويومه ، وليلة النصف منه ، وكذلك ليلة النصف من شعبان ، وليلة القدر ، وليلة عاشوراء ويومه.

وجميع هذه الأزمنة كان لها خصوصية التقرب إلى الله عزّوجلّ وطلب عفوه ومغفرته ، وقد عرفت بين المسلمين بأنها ليالٍ وأيام مباركة يلوذ بها الداعي إلى ربه. فكيف إذا أضيف إليها ما حواه قبر ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من خصوصية خاصة في استجابة الدعاء ونزول الرحمة وشمول العفو والمغفرة للزائرين والداعين.

---

(١) سورة القدرة، الآية : ٥.

(٢) سورة التوبة ، الآية : ٢.

المبحث الثاني: خصوصية يوم عاشوراء

المسألة الأولى: خصوصية يوم عاشوراء قبل فاجعة الطف عند أهل البيت عليهم السلام

أنّ ليوم عاشوراء خصائص عدة؛ منها ما كان مرتبطاً بهذا اليوم قبل فاجعة الطف؛ ومنها ما كان مرتبطاً به بعد وقوع الفاجعة.

أما ما كان منها مرتبطاً بهذا اليوم قبل الفاجعة فقد وردت بعض الأحاديث الشريفة لتدل على خصوصية يوم عاشوراء عند الله عزّ وجلّ وأنه اليوم الذي كان له مع بعض الأنبياء عليهم السلام شأن خاص في التقرب إليه جلّ شأنه كما هو واضح في الأحاديث التالية:

١. روى السيد ابن طاووس بسنده، عن علي بن فضال، بإسناده عن أبي جعفر عليه السلام قال:

«استوت السفينة يوم عاشوراء على الجودي، فأمر نوح من معه من الجن والإنس أن يصوموا ذلك اليوم»[(١)].

٢. وقال أبو جعفر ـ الباقر ـ عليه السلام:

«أتدرون ما هذا اليوم؟ هذا اليوم الذي تاب الله عزّوجلّ فيه على

---

(١) إقبال الأعمال: ج ٣، ص ٥١، نشر مكتب الأعلام الإسلامي. دعائم الإسلام للقاضي النعمان المغربي: ج ١، ص ٢٨٤، نشر دار المعارض بالقاهرة. مستدرك الوسائل للميرزا النوري: ج ٧، ص ٥٢٣، نشر مؤسسة آل البيت عليهم السلام ـ قم. جامع الأحاديث للسيد البروجردي: ج ٩، ص ٤٧٦، ط مهر قم.

آدم عليه السلام وحواء وهذا اليوم الذي فلق الله فيه البحر لبني إسرائيل فأغرق فرعون ومن معه، وهذا اليوم الذي يقوم فيه القائم عليه السلام»[(١)].

٣. وروى أيضاً بإسناده إلى هارون بن مسلم، عن مسعدة بن صدقة، عن أبي عبدالله عليه السلام، عن أبيه، أن علياً عليه السلام قال:

«صوموا من عاشوراء العاشر والتاسع منه، فإنه يكفر ذنوب سنة»[(٢)].

٤. قال الشيخ المفيد رحمه الله: روى النعمان بن سعد، عن أمير المؤمنين عليه السلام، أنه قال، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لرجل:

«إن كنت صائماً بعد شهر رمضان فصم المحرم، فإنه شهر تاب الله فيه على قوم، ويتوب الله فيه على آخرين»[(٣)].

---

(١) إقبال الأعمال لابن طاووس: ج ٣، ص ٥١، نشر مكتب الإعلام الإسلامي. مستدرك الوسائل للنوري: ج ٧، ص ٢٣، نشر مؤسسة آل البيت عليهم السلام. جامع أحاديث الشيعة للبروجردي: ج ٩، ص ٤٧٦، برقم ١٤١١.

(٢) إقبال الأعمال: ج ٣، ص ٥١. تذكرة الفقهاء للعلامة الحلي: ج ٦، ص ١٩٣. الحدائق الناظرة للمحقق البحراني: ج ١٣، ص ٣٧١. مستند الشيعة للمحقق النراقي: ج ١٠، ص٤٨٩. جواهر الكلام للجواهري: ج ١٧، ص ١٠٥. الاستبصار للشيخ الطوسي: ج ٢، ص ١٣٤، ط نشر دار الكتب الإسلامية. وسائل الشيعة للحر العاملي: ج ١٠، ص ٤٥٧.

(٣) المقنعة للشيخ المفيد رحمه الله: ص ٣٧٦، ط مؤسسة النشر الإسلامي. منتهى المطلب للعلامة الحلي: ج ٢، ص ٦١٤. مشارق الشموس للمحقق الخونساري: ج ٢، ص ٤٥٦. الحدائق الناظرة للمحقق البحراني: ج ١٣، ص ٣٧٧. وسائل الشيعة (آل البيت) للحر العاملي: ج١٠، ص٤٦٩. مسند احمد بن حنبل: ج ١، ص ١٥٤، ط دار صادر. سنن الترمذي: ج٢، ص١٢٢، ط دار الفكر. المصنف لابن أبي شيبة: ج ٢، ص ٤٥٧، ط دار الفكر بيروت. مسند أبي يعلى الموصلي: ج ١، ص ٢٣٢، ط دار المأمون. فضائل الأوقات للبيهقي: ص٤٣٢.

وهذه الأحاديث أظهرت حرمة هذا الشهر عند الله عزّوجلّ، وأنه الشهر الذي استجاب فيه لأوليائه وفرج عنهم، وفيه تاب على أقوام كثيرة. فكان هذا الشهر أحد الأزمنة التي يتقرب بها إلى الله عزّوجلّ بأنواع العبادات ولاسيما الدعاء.

الا أن بني أمية أرادوا أن يجعلوا لقتلهم الحسين عليه السلام مشروعية فأكثروا من أحاديث تعظيم هذا اليوم وجعلوه يوم بركة لذا صاموه لكونه يوم نصرهم وسرورهم، مما جعل فقهاء أهل البيت عليهم السلام يحثوا على مرجوحية هذا الصوم لئلا يكون تشبهاً ببني أمية وأوصوا بالامساك فيه دون صومه ويتأتي بقية الكلام فيما بعد.

ولذلك.. كان الإمام الحسين عليه السلام يعلم أن لهذا الشهر حرمة عند الله تعالى وأن يوم عاشوراء هو يوم استجابة الدعاء وقضاء الحاجات، ولذلك كان عليه السلام كثير الدعاء فيه كما سيمر بيانه؛ وإن أعداءه كانوا يعلمون أن هذا الشهر هو من الأشهر الحرم، بل أخصها حرمة، ولأجله سمي بـ(المحرم) إلاّ أنهم لم يرعوا أية حرمة، واستهتروا بكل القيم الدينية والاجتماعية.

المسألة الثانية: خصوصية يوم عاشوراء بعد فاجعة الطف

إن الخصوصية التي كانت ليوم عاشوراء قبل فاجعة الطف قد اختلفت بعد وقوعها، أي: أن نوعية الأعمال التي تؤدي إلى حصول القربة إلى الله تعالى في يوم عاشوراء قد اختلفت. فقد أصبح الصوم في يوم عاشوراء بقصد الشماتة وإظهار الفرح والسرور كما يفعله المنافقون والنواصب لآل البيت عليهم السلام من أكبر الموبقات التي تحط العمل وتحرز غضب الله عزّوجلّ كما دلت عليه الأحاديث الشريفة.

والتي منها:

١. روى ثقة الإسلام الكليني رحمه الله بسنده عن عبدالملك، قال: سألت أبا عبدالله عليه السلام عن صوم تاسوعاء وعاشوراء من شهر محرم؟. فقال:

«تاسوعاء يوم حوصر فيه الحسين عليه السلام وأصحابه رضي الله عنهم بكربلاء، واجتمع عليه خيل أهل الشام وأناخوا عليه وفرح ابن مرجانة وعمر بن سعد بتوافر الخيل وكثرتها واستضعفوا فيه الحسين وأصحابه رضي الله عنهم وأيقنوا أن لا يأتي الحسين عليه السلام ناصر ولا يمده أهل العراق بأبي المستضعف الغريب».

ثم قال:

وأما يوم عاشوراء فيوم أصيب فيه الحسين عليه السلام صريعاً بين أصحابه، وأصحابه صرعى حوله؛ أفصوم يكون في ذلك اليوم؟ كلا ورب البيت الحرام ما هو يوم صوم وما هو إلا يوم حزن ومصيبة دخلت على أهل السماء وأهل الأرض وجميع المؤمنين ويوم فرح وسرور لابن مرجانة وآل زياد وأهل الشام (غضب الله عليهم وعلى ذرياتهم) وذلك يوم بكت عليه جميع بقاع الأرض خلا بقعة، فمن صامه أو تبرك به حشره الله مع آل زياد ممسوخ القلب مسخوطاً عليه، ومن ادخر فيه إلى منزله ذخيرة أعقبه الله تعالى نفاقاً في قلبه إلى يوم يلقاه وانتزع البركة عنه وعن أهل بيته وولده وشاركه الشيطان في جميع ذلك»[1].

---

(١) الكافي: ج ٤، ص ١٤٧، باب: صوم عرفة. وسائل الشيعة (آل البيت): ج ١٠، ص ٤٦٠، ط مؤسسة آل البيت عليهم السلام. مشارق الشموس للمحقق الخونساري: ج ٢، ص ٤٥٨. الحدائق الناظرة للمحقق البحراني: ج ١٣، ص ٣٧١. مستند الشيعة للمحقق النراقي: ج ١٠، ص٤٩١.

٢. وروى الكليني أيضاً، عن محمد بن عيسى بن عبيد عن جعفر بن عيسى أخيه، قال: سألت الرضا عليه السلام عن صوم يوم عاشوراء وما يقول الناس فيه؟ فقال:

«عن صوم ابن مرجانة تسألني! ذلك يوم صامه الأدعياء من آل زياد لقتل الحسين عليه السلام؛ وهو يوم يتشاءم به آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم ويتشاءم به أهل الإسلام، واليوم الذي لا يصام ولا يتبرك به، ويوم الاثنين يوم نحس قبض الله فيه نبيه صلى الله عليه وآله وسلم، وما أصيب آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم إلاّ في يوم الاثنين فتشاءمنا به وتبرك به عدونا، ويوم عاشوراء قتل فيه الحسين عليه السلام وتبرك به ابن مرجانة وتشاءم به آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم، من صامهما أو تبرك بهما لقي الله تبارك وتعالى ممسوخ القلب وكان محشره مع الذين سنوا صومهما والتبرك بهما»[(١)].

٣. وعنه أيضاً عن زيد، قال: سمعت عبيد بن زرارة يسأل أبا عبدالله (عليه السلام) عن صوم يوم عاشوراء؟.

فقال:

«من صامه كان حظه من صيام ذلك اليوم حظ ابن مرجانة وآل زياد.

قال قلت: وما كان حظهم من ذلك اليوم؟، قال:

---

(١) الكافي للكليني: ج ٤، ص ١٤٦. منتهى المطلب للعلامة الحلي: ج ٢، ص ٦١١. الاستبصار للشيخ الطوسي: ج ٢، ص ١٣٥، ط دار الكتب الإسلامية. التهذيب للطوسي: ج ٤، ص٣٠١، ط دار الكتب الإسلامية. وسائل الشيعة (الإسلامية) للعاملي: ج ٧، ص ٣٤٠، ط دار إحياء التراث. الحدائق الناظرة للبحراني: ج ١٣، ص ٣٧٢.

النار، أعاذنا الله من النار، ومن عمل يقرب من النار»[١].

٤. وروى الشيخ الطوسي رحمه الله عن الحسين بن أبي غندر عن أبيه عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: سألته عن صوم يوم عرفة؟. فقال:

«عيد من أعياد المسلمين، ويوم دعاء ومسألة».

قلت: فصوم يوم عاشوراء؟. قال ـ عليه السلام ـ:

«ذلك يوم قتل فيه الحسين عليه السلام؛ فإن كنت شامتاً فصم».

ثم، قال:

«إن الصوم لا يكون للمصيبة، ولا يكون إلا شكراً للسلامة؛ وإن الحسين عليه السلام أصيب يوم عاشوراء فإن كنت ممن أصبت به فلا تصم؛ وإن كنت شامتاً ممن سره سلامة بني أمية فصم شكراً لله تعالى»[٢].

ومن هنا.. نجد أن أئمة أهل البيت عليهم السلام قد اتخذوا أيام محرم، أيام حزنهم وعزائهم ومواساتهم لجدهم المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم لما نزل بولده وريحانته من الدنيا. فإذا

---

(١) الكافي: ج ٤، ص ١٤٧. منتهى المطلب للعلامة الحلي: ج ٢، ص ٦١١. الاستبصار للطوسي: ج ٢، ص ١٣٥، ط دار الكتب الإسلامية. التهذيب للطوسي: ج ٢، ص ٣٠٢، ط دار الكتب الإسلامية. خاتمة المستدرك للنوري: ج ١، ص ٦٩، ط مؤسسة آل البيت عليهم السلام. الحدائق الناظرة للبحراني: ج ١٣، ص ٣٧٣.

(٢) الآمالي للشيخ الطوسي: ص ٦٦٧. وسائل الشيعة (آل البيت عليهم السلام) للعاملي: ج ١٠، ص٤٦٢. البحار للمجلسي: ج ٤٥، ص ٩٥. الحدائق الناظرة للبحراني: ج ١٣، ص ٣٧٣. وقد نسب للصدوق في المجالس، مستند الشيعة للنراقي: ج ١٠، ص ٤٩١. جواهر الكلام للجواهري: ج١٧، ص ١٠٧، نشر دار الكتب الإسلامية. جامع أحاديث الشيعة للسيد البروجردي: ج ٩، ص ٤٧٨، ط مهر - قم.

كان يوم عاشوراء، عند أعدائهم يوم سرور وفرح فإنه عند أهل البيت يوم بكاء وتفجع. كما أشارت إلى ذلك العديد من الروايات.

أ ـ روى الشيخ الصدوق ﵀ عن محمد بن علي ماجيلويه، قال حدثنا علي بن إبراهيم عن أبيه، عن الريان بن شبيب، قال: دخلت على الرضا ﵇ في أول يوم من المحرم، فقال:

«يا بن شبيب، أصائم أنت»؟.

فقلت: لا.

فقال:

«إن هذا اليوم الذي دعا فيه زكريا ﵇ ربه عزّوجلّ، فقال:

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَآءِ﴾.

فاستجاب به، وأمر الملائكة فنادت زكريا وهو قائم يصلي في المحراب:

﴿أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ﴾.

فمن صام هذا اليوم ثم دعا الله عزوجل استجاب الله له، كما استجاب لزكريا ﵇».

ثم قال:

«يا بن شبيب، إن المحرم هو الشهر الذي كان أهل الجاهلية فيما مضى يحرمون فيه الظلم والقتال لحرمته، فما عرفت الأمة حرمة

شهرها ولا حرمة نبيها ﷺ، لقد قتلوا في هذا الشهر ذريته، وسبوا نساءه وانتهبوا ثقله، فلا غفر الله لهم ذلك أبدا.

يا بن شبيب، إن كنت باكيا لشيء، فابك للحسين بن علي بن أبي طالب عليهما السلام، فإنه ذبح كما يذبح الكبش، وقتل معه من أهل بيته ثمانية عشر رجلاً مالهم في الأرض من شبيه، ولقد بكت السماوات السبع والارضون لقتله، ولقد نزل إلى الأرض من الملائكة أربعة آلاف فوجدوه قد قتل، فهم عند قبره شعث غبر إلى أن يقوم القائم فيكونون من أنصاره، وشعارهم يا لثارات الحسين.

يا بن شبيب، إن بكيت على الحسين حتى تصير دموعك على خديك غفر الله لك كل ذنب اذنبته، صغيراً أو كبيراً، قليلاً أو كثيراً.

يا بن شبيب، إن سرك أن تلقى الله عزّوجلّ ولا ذنب عليك، فزر الحسين عليه السلام.

يا بن شبيب، إن سرك أن يكون لك من الثواب مثل ما لمن استشهد مع الحسين عليه السلام فقل متى ذكرته: يا يلتني كنت معهم فأفوز فوزاً عظيماً.

يا بن شبيب، إن سرك أن تكون معنا في الدرجات العلى من الجنان، فاحزن لحزننا وافرح لفرحنا، وعليك بولايتنا فلو أن رجلا تولى حجرا لحشره الله معه يوم القيامة»[1].

---

(١) الآمالي للشيخ الصدوق رحمه الله: ص ١٩٢، ط مؤسسة البعثة. عيون أخبار الرضا عليه السلام للصدوق: ج ٢، ص ٢٦٨، ط الأعلمي. وسائل الشيعة (الإسلامية): ج ١٠، ص ٣٢٤. إقبال الأعمال لابن طاووس: ج ٣، ص ٢٩، نشر مكتب الإعلام الإسلامي. بحار الأنوار: ج٤٤، ص ٢٨٦.

ب ـ وروى الشيخ الصدوق رحمه الله في أماليه، عن إبراهيم بن أبي محمود قال، قال الرضا عليه السلام:

«إن المحرم شهر كان أهل الجاهلية يحرمون فيه القتال فاستحلت فيه دماؤنا، وهتكت فيه حرمتنا، وسبي فيه ذرارينا ونساؤنا، وأضرمت النيران في مضاربنا، وانتهب ما فيه من ثقلنا، ولم ترع لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حرمة في أمرنا، إن يوم الحسين أقرح جفوننا، وأسبل دموعنا، وأذل عزيزنا، بأرض كرب وبلاء، وأورثنا الكرب والبلاء، إلى يوم الانقضاء، فعلى مثل الحسين فليبك الباكون، فإن البكاء يحط الذنوب العظام.

ثم قال عليه السلام:

كان أبي عليه السلام إذا دخل شهر المحرم لا يرى ضاحكا، وكانت الكآبة تغلب عليه حتى يمضي منه عشرة أيام، فإذا كان يوم العاشر كان ذلك اليوم، يوم مصيبته وحزنه وبكائه، ويقول: «هو اليوم الذي قتل فيه الحسين عليه السلام»[1].

فهذه الأحاديث الشريفة تكشف عن اختلاف العمل التقربي إلى الله تعالى في يوم عاشوراء قبل فاجعة الطف وبعدها. والعلة في ذلك تعود إلى السياسة التي اعتمدها بنو أمية في تغيير فحوى الخطاب الشرعي في جعل يوم العاشر من المحرم

---

(١) الآمالي للشيخ الصدوق: ص ١٩١. علل الشرايع للصدوق: ج ١، ص ٣٢٧، ط المكتبة الحيدرية. روضة الواعظين للنيسابوري: ص ١٦٩، منشورات الشريف الرضي. وسائل الشيعة آل البيت عليهم السلام: ج ١٤، ص ٥٠٤، ط مؤسسة آل البيت عليهم السلام. أقبال الأعمال لابن طاووس: ج٣، ص ٢٨، نشر مكتب الأعلام الإسلامي.

يوم فرح وسرور وإنفاق على العيال كي يرسخ في أذهانهم أنه يوم مبارك. فيلتبس الأمر على كثير من الناس وتضيع بينهم تلك الحادثة العظيمة التي انتهكت فيها حرمة الله ورسوله ﷺ.

فأي بركة بقيت في يوم عاشوراء وفيه ذبح الحسين بن بنت رسول الله ﷺ مع أهل بيت وأصحابه عليهم السلام.

وأي سرور في يوم عاشوراء وقلب النبي الأعظم ﷺ قطّعهُ الألم بذلك المصاب، وهو ما عكسه حال الأئمة في حلول شهر المحرم من كل عام.

ولذلك.. لولا هذه الفاجعة التي اقترفها بنو أمية يوم عاشوراء لبقي هذا اليوم «يوم الدعاء إلى الله عزّوجلّ» وطلب عفوه ومغفرته كما كان عليه قبل سنة ٦١هـ.

إذن:

جَمَعَ دعاءُ الإمام الحسين عليه السلام في عاشوراء وعلى أرض كربلاء الخصوصية المكانية والخصوصية الزمانية، فكان له هذا الوقع الكبير في سرعة الإجابة، لاسيما وإن الداعي عليه السلام أضاف إلى تلك الخصوصيتين، خصوصية أخرى وهي: كونه عليه السلام لا ترد له دعوة.

ولذا؛ ينبغي للمسلم أن يغتنم هذه الخصوصية المكانية والزمانية في التوجه إلى الله تعالى بالدعاء وضروب العبادة وطلب عفوه ومغفرته، والتقرب إليه بالبكاء على مصائب آل رسول الله ﷺ وبخاصة صاحب المصيبة العظمى والرزية الكبرى الإمام الحسين عليه السلام، لأنها دعوة لا ترد.



الفصل الرابع:

علاقة الإمام الحسين عليه السلام بالدعاء

المبحث الأول: كثرة دعائه عليه السلام

أول مظهر من مظاهر علاقة الإمام الحسين عليه السلام بالدعاء في يوم عاشوراء ـ بوصفه نواة البحث ـ كان في ليلة العاشر من المحرم، حين نادى عمر بن سعد في عسكره بالزحف نحو الإمام الحسين، وكان عليه السلام جالساً أمام بيته محتبياً بسيفه وخفق برأسه فرأى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول:

«إنك صائر إلينا عن قريب».

وينقل لنا التاريخ أيضاً أن زينب سمعت أصوات الرجال. فقالت لأخيها:

«قد اقترب العدو منا».

فقال لأخيه العباس عليهما السلام:

«اركب بنفسي أنت حتى تلقاهم واسألهم عما جاءهم وما الذي يريدون».

فركب العباس في عشرين فارساً، فيهم زهير وحبيب وسألهم عن ذلك، قالوا: جاء أمر الأمير أن نعرض عليكم النزول على حكمه أو ننازلكم الحرب.

فانصرف العباس عليه السلام، وأعلم أخاه أبا عبدالله بما عليه القوم.

فقال عليه السلام:

«ارجع إليهم واستمهلهم هذه العشية إلى غد لعلنا نصلي لربنا الليلة وندعوه ونستغفره؛ فهو يعلم أني أحب الصلاة له وتلاوة كتابه وكثرة الدعاء والاستغفار»(١).

هذا الموقف الحسيني الذي تجلى بأنواره في كربلاء قد كشف ما تلبد في سمائها من غيوم داكنه، حين زحفت هذه الجموع تدق طبول الحرب، وتعلن الموت بوجه كل من يعترض طريقها.

وهذا الموقف قد سجل بأحرف نورانية في سجل الحياة منهجاً تربوياً يعلم الإنسان كيف يعد نفسه لمواجهة أصعب الظروف؛ بل يعلمه كيف يواجه الموت بالحياة، والذعر بالاطمئنان، والخوف بالسكينة.

وهو فضلاً عن كل ذلك قد تضمن الحقيقة الآتية:

استثمار دقائق الحياة بالعبادة

ربما يستطيع بعض الناس أن يحدد ما بقي له من ساعات عمره ومدة حياته؛ كالمريض الذي يصارع الحياة بسبب مرض عضال فيخبره الأطباء عن مقدار مقاومة بدنه لمدة يومين أو ثلاثة، أو كالسجين الذي تلقى أمر إعدامه وينتظر تنفيذ الحكم؛ أو كالمقاتل الذي تجهز لخوض مهمة قتالية في زمن محدد؛ أو غيرها من الأمثلة الحياتية. التي تحكي عن مقدرة الإنسان على معرفة ما بقي له من ساعات عمره.

ففي هذه الحالات كيف للإنسان أن يتصرف فيها؟! أينتظر نهايته ببطء

---

(١) اللهوف في قتلى الطفوف لابن طاووس: ص ٥٤، ط أنوار الهدى ـ قم. البداية والنهاية لابن كثير: ج ٨، ص ١٩١، ط ونشر دار إحياء التراث. المجالس الفاخرة للسيد عبد الحسين شرف الدين: ص ٢٧١، ط ونشر مؤسسة المعارف الإسلامية ـ قم. مقتل الحسين عليه السلام للمقرم.

شـديد، أم إن عينيـه لا تفارقـان عقـارب الـساعة تتبعانهـا بـصمت مطبـق، أم إنـه يستدركها بوصيته التي يضمنها ما يهمه ويشغل ذهنه؟!.

إنها حالات صعبة ومؤلمة للنفس ومربكة للذهن تشل فكر صاحبها وتعجزه عن اتخاذ أي قرار.

لكنها عند الإمام الحسين عليه السلام الذي علم أنها الليلة الأخيرة من حياته. بدا المشهد مختلفاً عن جميع المشاهد الحياتية، إذ إنه عليه السلام استقبلها بالحياة وهي التي تنذر بالموت القريب، وأمضاها بالتهيؤ والتجهز ليوم سفره الطويل وهي التي دقت أجراس الرحيل.

ليلة استمهلها من أعدائه كي يأنس فيها بتهجده لمولاه، فقلبه لم يرتو بعد من طول التهجد في لياليه التي أسلفت، وكيف له أن يفارق مولاه ويحرم القلب من رؤياه، وهو الذي لم يعرف للهجر لوناً ولم يذق له طعماً. فكان كأبيه علي أمير المؤمنين عليهما السلام كثير الدعاء مشغولاً بذكر الله عزّ وجل حتى لقب بـ«الدعّاء»[1].

ولذا.. قال لأخيه العباس عليهما السلام:

«إن استطعت يا أخي أن تصرفهم عنا هذه الليلة فلعلنا نصلي لربنا فإنه يعلم أني أحب الصلاة له، وتلاوة كتابه، وكثرة الدعاء والاستغفار».

فكانت هذه الليلة بما حوته من مظاهر التهجد والعبادة قد قدمت للإنسان درساً في معنى أن يحيا المرء هذا العدد من السنين فينقضي بها عمره؛ وأن الربح والخسارة لا يحسبان بظهور الزيادة أو النقصان في عدد الليالي والأيام؛ وإنما الربح والخسارة فيما يصرفه الإنسان من هذه الليالي في طاعة الله عزوجل.

---

(١) وسائل الشيعة (آل البيت عليهم السلام): ج ٧، ص ٢٦، طبع ونشر مؤسسة آل البيت عليهم السلام.

المبحث الثاني: دور التهجد في الإعداد الروحي والقلبي لخوض المهمات وتحمل الملمات

كثيراً ما يتعرض الإنسان لحوادث مختلفة خلال فترة حياته، منها حوادث قد ألمت به كالفقر والمرض والعسر وغيرها من الشدائد ونوازل الدهر وقد سميت (بالملمات)[1].

ومنها ما لم يقع كتهديد العدو فلا يعلم حاله أكان عازماً أم مدعياً؛ أو كالخروج للقتال فلا يعلم الإنسان مصيره ولا يدري لمن النصر والهزيمة؛ أو كالدخول على الحاكم الجائر لا يدري الداخل ما يحل بأمره وغيرها من مهمات الأمور[2].

هذه الحوادث كيف يستقبلها الإنسان؟ وكيف يتعايش معها؟ وماذا أعد لها؟ وهل يمتلك القدرة في المواجهة؟ أسئلة كثيرة ومختلفة كاختلاف الظروف والحالات التي يمر بها الإنسان؛ كما أن أجوبتها متعددة كتعدد الأسئلة، وكلها يمكن حدوثها لاختلاف مستوى التفكير عند الناس واختلاف ظروفهم الحياتية.

إلا أن عاشوراء قد قدمت دروساً تضمنت جميع هذه الأسئلة وأجوبتها! لأنها جمعت أعظم الشدائد والنوازل على مر الدهر. ولاسيما ليلة العاشر فقد ألقت بهمومها وأحزانها وحذرها على الإمام الحسين وأهل بيته عليهم السلام، فكيف استقبلها حجة الله؟ وماذا أعد لهذه النازلة والشدة؟!.

---

(١) مجمع البحرين: ج ٦، ص ١٦٥.

(٢) المهمات من الأمور: الشدائد، كتاب العين للفراهيدي: ج ٣، ص ٣٥٧.

سؤال قد فرض نفسه في ساحة الذهن وألقى بظلاله على فكر الباحث والمتتبع لقضية كربلاء وما دار فيها من مآسٍ ومهام جسيمة أرهقت كاهل القارئ لها فكيف بمن عاشها وعايشته حتى أصبحت جزءاً لا يتجزأ من ملحمة عاشوراء.

ولذا؛ فقد أعد الإمام الحسين عليه السلام لهذه النازلة العظيمة ركائز أربعاً، اشترك فيها الزمان والمكان فكانت كالآتي:

أولاً: الصلاة.

ثانياً: تلاوة كتاب الله تعالى.

ثالثاً: كثرة الدعاء.

رابعاً: الاستغفار.

فأما الزمان الذي اتخذه حجة الله في قيام هذه الركائز؟ فكان الليل، والعلة في ذلك هي النهج الذي خطه القرآن الكريم للحبيب المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم في تخصيص هذا الوقت للتزود بالطاقات والفيوضات الربانية والتي عرفها القرآن بـ«التهجد» كما جاء في قوله تعالى:

﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾[1].

وقوله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوۡ زِدۡ

(١) سورة الإسراء، الآية: ٧٩.

عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ﴿٤﴾ إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا وَأَقۡوَمُ قِيلًا﴾[1].

والتهجد عند أهل اللغة هو: الاستيقاظ إلى الصلاة في الليل، والمتهجد: هو القائم إلى الصلاة من النوم آخر الليل[2]. وقيل: تكلف السهر للعبادات[3].

ولقد حظي التهجد في مدرسة العترة المحمدية عليهم السلام بحيز كبير من الأحاديث الشريفة التي كانت بمجموعها دليلاً عملياً للمؤمنين في نظم أمورهم الدنيوية والأخروية وإعدادها.

فالتهجد ليس مجرد قيام وصلاة في جوف الليل يتحمل فيه القائم عناء السهر، وإنما هو ـ في مدرسة أهل البيت عليهم السلام ـ منهج للإعداد النفسي، والروحي، والإيماني، والجسدي.

أو هو بالمعنى الذي يتعاهده طلاب العلوم البايلوجية أشبه ما يكون بـ«الحاضنة» التي تحتضن الخلية الحيوانية لتعدها إعداداً خاصاً يتناسب مع حاجة الباحث والعالم المحيط بشؤونها فيهيئ لها درجة الحرارة المناسبة وكمية الضوء، ونسبة الهواء وغيرها. كي تعطيه نموذجاً خاصاً يحمل صفات متميزة في قوة البقاء والجودة.

ويمكن للباحث المتتبع أن يلمس هذا الإعداد للنفس والروح والجسد من خلال هذه الأحاديث التي كشفت هذه الخواص بشكل جلي، وهي كما يلي:

---

(١) سورة المزمل، الآيات: ١ ـ ٦.

(٢) تاج العروس للزبيدي، مادة: «هجد».

(٣) مجمع البحرين: ج ٣، ص ١٦٧.

١. نزل جبرائيل عليه السلام على النبي صلى الله عليه وآله ، فقال له :

«يا جبرائيل عظني».

فقال :

«يا محمد عش ما شئت فإنك ميت، وأحبب ما شئت فإنك مفارقه، واعمل ما شئت فإنك ملاقيه. شرف المؤمن صلاته بالليل، وعزه كف الأذى عن الناس»[(١)].

٢. وعن الصادق عليه السلام قال :

«إن من روح الله عزوجل، ثلاثة: التهجد بالليل، وإفطار الصائم، ولقاء الإخوان»[(٢)].

٣. وعنه عليه السلام ، قال :

«عليكم بصلاة الليل فإنها سنة نبيكم، وأدب الصالحين قبلكم، ومطردة الداء عن أجسادكم»[(٣)].

---

(١) من لا يحضره الفقيه للشيخ الصدوق : ج ١ ، ص ٤٧١ . وسائل الشيعة (آل البيت عليهم السلام) : ج٨ ، ص ١٥٢ . تذكرة الفقهاء للعلامة الحلي : ج ٢ ، ص ٢٦٣ . منتهى المطلب للحلي : ج ٤ ، ص١٨ . جامع أحاديث الشيعة للسيد البروجردي : ج ٧ ، ص ١٠٢ .

(٢) من لا يحضره الفقيه : ج ١ ، ص ٤٧٢ . وسائل الشيعة (آل البيت عليهم السلام) : ج ٨ ، ص ١٥٣ . مستدرك الوسائل للنوري : ج ٦ ، ص ٣٢٧ . الأمالي للطوسي : ص ١٧٢ .

(٣) ثواب الأعمال للشيخ الصدوق : ص ٤١ ، علل الشرايع : ج ٢ ، ص ٣٦٢ . التهذيب للطوسي : ج ٢ ، ص ١٢٠ . روضة الواعظين للنيسابوري : ص ٣٢١ . وسائل الشيعة : ج ٨ ، ص ١٤٩ . مستدرك الوسائل : ج ٦ ، ص ٣٣١ . الفصول المهمة للعاملي : ج ٣ ، ص ٣٢٨ . بحار الأنوار : ج ٥٩ ، ص ٢٦٨ .

٤. وروى هشام بن سالم عنه عليه السلام أنه قال:

«في قول الله عزوجل:

﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا وَأَقۡوَمُ قِيلًا﴾.

قال: قيام الرجل عن فراشه يريد به وجه الله عزوجل، لا يريد به غيره»[١].

٥. وروى عنه الفضيل بن يسار، أنه قال:

«إن البيوت التي يصلى فيها بالليل بتلاوة القرآن تضيء لأهل السماء كما تضيء نجوم السماء لأهل الأرض»[٢].

٦. وقال عليه السلام:

في قول الله عز وجل:

﴿إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾[٣].

قال:

صلاة المؤمن بالليل تذهب بما عمل من ذنب بالنهار؛ ومدح الله تبارك وتعالى أمير المؤمنين عليه السلام في كتابه لقيام صلاة الليل،

---

(١) علل الشرايع للصدوق: ج ٢، ص ٣٦٣. مفتاح الفلاح للبهائي: ص ٢٢٥، ط مؤسسة الأعلمي. من لا يحضره الفقيه: ج ١، ص ٤٧٢. التهذيب للطوسي: ج ٢، ص ١٢٠.

(٢) تذكرة الفقهاء للعلامة الحلي: ج ١، ص ٧١، ط ونشر المكتبة المرتضوية. ذكرى الشيعة للشهيد الأول: ج ٢، ص ٢٩٢. كشف اللثام للفاضل الهندي: ج ١، ص ٨. ثواب الأعمال للشيخ الصدوق: ص ٢٨. من لا يحضره الفقيه للصدوق: ج ١، ص ٤٧٣.

(٣) سورة هود، الآية: ١١٤.

فقال عزوجل:

﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْأَخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ﴾.

وآناء الليل: ساعاته[١].

٧. وقال صلى الله عليه وآله وسلم:

«من كثر صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار»[٢].

٨. وروى جابر بن إسماعيل، عن جعفر بن محمد، عن أبيه عليهما السلام، أن رجلاً سأل علي بن أبي طالب عليه السلام عن قيام الليل بالقراءة، فقال له:

«أبشر من صلى من الليل عُشر ليلة لله مخلصاً ابتغاء ثواب الله، قال الله تبارك وتعالى لملائكته: اكتبوا لعبدي هذا من الحسنات عدد ما انبت في الليل من حبة وورقة وشجرة وعدد كل قصبة وخوص وخوط ومراعي[٣].

ومن صلى ثُمن ليلة أعطاه الله أجر شهيد صابر صادق النية وشفع في أهل بيته.

---

(١) من لا يحضره الفقيه: ج ١، ص ٤٧٣. نهاية الأحكام للحلي: ج ٢، ص ٩٠. جامع أحاديث الشيعة للبروجردي: ج ٧، ص ١٢٠.

(٢) من لا يحضره الفقيه: ج ١، ص ٤٧٤. الرواشح السماوية للميرداماد: ص ٢٨٥، ط ونشر دار الحديث ـ قم. سنن ابن ماجة: ج ١، ص ٤٢٢.

(٣) الخوص: ورق النخل، الواحدة خوصة، كما في الصحاح. وفي ثواب الأعمال وردت: «خوط ومراعي»، والخوط والخوطة: الغصن الناعم.

ومن صلى سُبع ليلة خرج من قبره يوم يبعث ووجهه كالقمر ليلة البدر حتى يمر على الصراط مع الآمنين.

ومن صلى سدس ليلة كتب في الأوابين، وغفر له ما تقدم من ذنبه.

ومن صلى خمس ليلة زاحم إبراهيم خليل الرحمن في قبته.

ومن صلى ربع ليلة كان في أول الفائزين حتى يمر على الصراط كالريح العاصف، ويدخل الجنة بغير حساب من أي أبواب الجنة الثمانية شاء.

ومن صلى ثلث ليلة لم يبق ملك إلا غبطه بمنزلته من الله عزوجل، وقيل له: أدخل من أي أبواب الجنة الثمانية شئت.

ومن صلى نصف ليلة فلو أعطي ملء الأرض ذهبا سبعين مرة لم يعدل جزاءه، وكان له بذلك عند الله عزوجل أفضل من سبعين رقبة يعتقها من ولد إسماعيل.

ومن صلى ثلثي ليلة كان له من الحسنات قدر رمل عالج، أدناها حسنة أثقل من جبل أحد عشر مرات.

ومن صلى ليلة تامة تالياً لكتاب الله عزوجل، راكعاً وساجداً وذاكراً أعطي من الثواب ما أدناه يخرج من الذنوب كما ولدته أمه، ويكتب له عدد ما خلق الله عزوجل من الحسنات ومثلها درجات، وينبت النور في قبره، وينزع الإثم والحسد من قلبه، ويجار من عذاب القبر، ويعطى براءة من النار، ويبعث من الآمنين، ويقول الرب تبارك وتعالى لملائكته: يا ملائكتي انظروا إلى عبدي أحيا ليلة ابتغاء مرضاتي اسكنوه الفردوس، وله فيها مائة ألف مدينة، في كل مدينة جميع ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين، ولم يخطر على بال

سوى ما أعددت له من الكرامة والمزيد والقربة»[١].

ولأجل هذه المزايا وغيرها اتخذ الإمام الحسين عليه السلام ليلة عاشوراء، ليلة للمناجاة والصلاة وتلاوة كتاب الله تعالى، وكثرة الدعاء والاستغفار، والتزود بالطاقات والفيوضات الإلهية.

فكان هو وأصحابه عليهم السلام بين قائمٍ وراكعٍ وساجدٍ، لهم دوي كدوي النحل لا يفترون من ذكر الله تعالى ومناجاته والتضرع[٢] إليه، والرهبة[٣] منه، والتبتل[٤] إليه، والابتهال[٥] له، عزّ شأنه راجين في ذلك رضاه ورضا رسوله صلى الله عليه وآله ملتمسين توفيقه في نصرة شرعه ودينه.

فكان لهم ما سألوا الله من أجله، فقد أجاب دعوتهم فمضوا مضرجين بدمائهم مجزرين كالأضاحي في ساحة قدسه في البقعة المباركة من جانب الطور الأيمن، ضحىً من يوم عاشوراء.

---

(١) الأمالي للشيخ الصدوق: ص ٣٦٧. من لا يحضره الفقيه: ج ١، ص ٤٧٦. ثواب الأعمال: ص ٤٣. روضة الواعظين للفتال: ص ٣٢٠. وسائل الشيعة (آل البيت عليهم السلام) للحر العاملي: ج ٦، ص ١٣٩. المصباح للكفعمي: ص ٤١٩.

(٢) التضرع: هو رفع اليدين بالدعاء، وقيل: هو تحريك السبابة اليمنى، يميناً وشمالاً (كشف الغطاء: ج ٢، ص ٣٠٧).

(٣) الرهبة: أن تظهر ظهرهما.

(٤) التبتل: تحريك السبابة اليسرى ترفعها وتضعها.

(٥) الابتهال: تبسط يدك وذراعك إلى السماء، والابتهال حيث ترى أسباب البكاء؛ وإذا سألت فبطن كفيك، وإذا تعوذت فبظهر كفيك؛ وإذا دعوت فبأصبعك (كشف الغطاء للشيخ جعفر كاشف الغطاء رحمه الله: ج ٢، ص ٣٠٧).

المبحث الثالث: آثار تهجد الإمام الحسين عليه السلام على الأعداء

لقد أثر تهجد الإمام الحسين وصحبه عليهم السلام على الأعداء تأثيراً بالغاً ومن عدة جوانب:

المسألة الأولى: الجانب الرسالي

فقد كشف هذا الوقوف بين يدي الله ومناجاته أن لهؤلاء القوم قضيّة ربانية مرتبطة بالرسالات السماوية، وأنهم ليسوا طلاب سلطة ولا دعاة ملك أو رئاسة وإنما هم امتداد لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ورسالته. فهذه الفعال هي فعال الأنبياء والمرسلين عليهم السلام وعباد الله الصالحين.

المسألة الثانية: الجانب النفسي

في الجانب النفسي نجد أن للمناجاة تأثيراً معاكساً على الأعداء، بمعنى: كل ما يدخله الدعاء والمناجاة والعبادة من ارتياح وانبساط نفسي على المؤمن، يكون على عكسه حال الظالم. وخاصة حينما يرى أمام عينيه وقوف المظلوم ومناجاته لله رب العالمين.

والسبب في ذلك؛ إن الظالم يتملكه شعور نفسي خاص يتكون من مجموعة إدراكات ذهنية مختلفة وهي كالآتي: ١. كإدراكه بأنه متلبس بالظلم، ٢. وأنه من صنف أهل الشر، ٣ . وأن عاقبته سيئة، ٤. وأن مصيره إلى النار والعذاب، ٥. وأنه وضيع، ٦. وأنه أداة تستهلك بيد غيره، ٧. وأنه يدمر نفسه كي يتنعم بالدنيا غيره، ٨. وأنه عار على أبنائه وعشيرته، ٩. وأنه موضع لعنة الله على مر الأجيال.

وغيرها من الإدراكات التي تدور في الذهن فتستشعرها النفس بمرارة وحسرة فتكون هذه الأحاسيس أشد ألماً على النفس من آلام الجراح. ولذلك؛ نجد الكثير من الظالمين حينما يعيش هذه الحالة النفسية تأخذه العزة بالإثم كما دلّ عليه قوله تعالى:

﴿ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ

﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾[١].

فلا يجد من الناحية النفسية غير المضي بهذا الظلم، إلاّ في حالة واحدة وهي تغليب العقل على النفس فيأخذ من هذه المشاهد التي يراها من أهل الخير والصالحين فيشد النفس إلى اللحاق بهم بعد التوبة والمغفرة.

المسألة الثالثة: الجانب العسكري

في الجانب العسكري أوجد تهجد الإمام الحسين عليه السلام وأصحابه عليهم السلام رعباً في نفوس الأعداء بمستوى كبير جداً؛ فقد بدا هذا الوقوف وهذا التهجد وكأنه وقعة حرب شرسة تدور رحاها على مقربة من الناظر. فهؤلاء الذين انتصبوا وقوفاً فبدوا للناظر رماحاً يزهر من أسنّتها النور، هم في يوم غد تتصدع من قارعة سيوفهم القلوب المتحجرة. وهذا الدّوي الآتي من هذه الشفاه التي رطبها الاستغفار، بدا للسامع قرقعة امتزج فيها صوت الأتراس حينما تصطك فوق أكتاف الفرسان وهم يجولون بخيولهم فيعلو صوت السنابك وهي تدق الصخور.

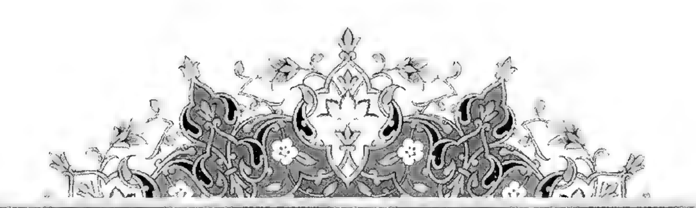
إنه مشهد تداخلت فيه الصور فاحتار الرائي والسامع بأيهما يعقل؟!

ولذلك: «انحاز من معسكر عمر بن سعد في هذه الليلة إلى معسكر الإمام الحسين عليه السلام اثنان وثلاثون رجلاً لما رأوا منهم هذا التهجد»[٢].

---

(١) سورة البقرة، الآيات: ٢٠٥ ـ ٢٠٦.

(٢) البحار للمجلسي: ج ٤٤، ص ٣٩٤، ط دار إحياء التراث العربي. اللهوف للسيد ابن طاووس: ص ٥٧، أنوار الهدى ـ قم. المجالس الفاخرة للسيد شرف الدين: ص ٢٤٠، مؤسسة المعارف الإسلامية ـ قم. العوالم ـ الإمام الحسين عليه السلام ـ: ص ٢٤٥. لواعج الأشجان للسيد محسن الأمين: ص ١٢١. أعيان الشيعة: ج ١، ص ٦٠١.



الفصل الخامس:

مواضع دعاء الإمام الحسين عليه السلام قبل البدء في القتال

توطئة

تعددت مواضع دعاء الإمام الحسين عليه السلام في يوم عاشوراء، واختلاف المواضع يعود إلى سببين:

الأول: كثرة دعائه عليه السلام في هذا اليوم.

والثاني: تنوع الأسباب الباعثة للدعاء.

ونستظهر من ذلك أموراً عديدة:

أولاً: التجاء الإمام الحسين عليه السلام إلى الركن الشديد، والمدد الذي لا ينقطع، والسلطان الذي لا يتبدل، والقوة التي لا تفنى، وهو الله تعالى.

ثانياً: إظهاراً منه عليه السلام لدور الدعاء وآثاره الغيبية والتكوينية.

ثالثاً: تيقناً منه عليه السلام بأن الله تعالى لا يرد دعوة الداعي.

رابعاً: اعتماده عليه السلام على سلاح هو في حقيقته أقوى من العدة والعدد الذي تجمع من حوله.

خامساً: إنه في عبادة الله تعالى في جميع اللحظات ومهما اختلفت الأجواء.

سادساً: إنه عليه السلام يقدم من خلال كثرة الدعاء منهجا تربويا يرتكز على الإيمان بالغيب واليقين بصدق وعد الله الذي وعد به عباده الصالحين.

سابعاً: إنه عليه السلام يظهر في ذلك شدة افتقاره إلى الله عز وجل على الرغم من وجود الأهل والأصحاب.

ولذلك يبدأ عليه السلام مع اللحظات الأولى لتحرك الفلك الذي يطوي ستار الظلام لينكشف يوم العاشر عن محتواه ويظهر مكنونه فيرى عليه السلام هذه الجموع المؤلفة إلى اللحظات الأخيرة التي يدير فيها طرفه إلى أهله وعياله وهو على رمضاء كربلاء، فبين هذه اللحظة وتلك فصول ومواضع عديدة للدعاء.

وفي الواقع إنها رحلة بدا فيها الدعاء لا يفارق الدموع والدماء وقرقعة السيوف وتصاكّ التروس وأزيز سنابك الخيل.

رحلة كانت الأيادي ترفع فيها تضرعا، ورهبة، واستكانة، وتذلُّلاً، لخالقها ـ جلّ وعلا ـ قبل أن ترفع فيها السيوف، والرماح والنصول؛ إنه يوم تكاد فيه العيون لا تملك القدرة على الفصل بين رفع الأيادي، وقد اختلفت في رفعها الغايات، فبين يد ترفع للدعاء وأخرى ترفع للضراب، والآذان لم تعد تميز بين أصوات تكسر الزفرات في الصدور، وتهشم الأضلاع، وضجيج سيدات الخدور، وصراخ الأطفال.

وبين هذا وذاك يبقى صوت الإمام الحسين عليه السلام يدور بين ألوية الجيوش المتجمعة من حوله يطوف على آذان الناس فهو للظالمين قارعة ترتعد منه فرائص الظالمين، وهو للمؤمنين سكن تغفو على ترانيمه قلوب الموقنين.

الموضع الأول: دعاؤه عليه السلام حينما رأى الجيوش من حوله

من غرائب يوم عاشوراء ـ وما أكثرها ! ـ أن ينتظر عمر بن سعد[(١)] انكشاف الظلام في صبيحة يوم العاشر ليزحف لقتال ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو يقر بأنه نبيه الذي شهد له بالنبوة !!. إنها مفارقة عجيبة !.

أما في معسكر الحسين عليه السلام فقد بدت الصورة مختلفة تماماً، فقد ذكر ابن قولويه والمسعودي أنه: (لما أصبح الحسين يوم عاشوراء وصلى بأصحابه صلاة الصبح قام خطيبا فيهم، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

«إن الله تعالى أذن في قتلكم وقتلي في هذا اليوم فعليكم بالصبر والقتال»[(٢)].

ثم صفهم للحرب وكانوا اثنين وثمانين فارساً وراجلاً فجعل زهير بن القين في الميمنة وحبيب بن مظاهر في الميسرة وثبت هو عليه السلام وأهل بيته في القلب[(٣)]، وأعطى رايته أخاه العباس عليه السلام[(٤)]، لأنه وجد قمر الهاشميين أكفأ ممن معه لحملها وأحفظهم لذمامه وأرأفهم به وأدعاهم إلى مبدئه وأوصلهم لرحمه وأحماهم لجواره وأثبتهم للطعان وأربطهم جأشاً وأشدهم مراساً[(٥)].

---

(١) عمر بن سعد بن أبي وقاص.

(٢) كامل الزيارات: ص٧٣. إثبات الوصية: ص١٣٩، المطبعة الحيدرية.

(٣) مقتل الخوارزمي: ج٢، ص٤.

(٤) تاريخ الطبري: ج٦، ص٢٤١. تذكرة الخواص: ص١٤٣، طبع الحجر.

(٥) اختلف المؤرخون في عدد أصحاب الحسين عليه السلام:

الأول: أنهم اثنان وثلاثون فارساً وأربعون راجلاً ذكره الشيخ المفيد في الإرشاد والطبرسي في ←

وأقبل عمر بن سعد نحو الحسين عليه السلام في ثلاثين ألفاً[1] وهي أقل الروايات وقيل غير ذلك بكثير[2].

أعلام الورى: ص١٤٢، والفتال في روضة الواعظين: ص١٥٨، وابن جرير في التأريخ: ج٦، ص٢٤١، وابن الأثير في الكامل: ج٤، ص٢٤، والقرماني في أخبار الدول: ص١٠٨، والدينوري في الأخبار الطوال: ص٣٥٤.

الثاني: أنهم اثنان وثمانون راجلاً نسبه في الدمعة الساكبة: ص٣٢٧، إلى الرواية وهو المختار.

الثالث: ستون راجلاً ذكره الدميري في حياة الحيوان في خلافة يزيد: ج١، ص ٧٣.

الرابع: ثلاثة وسبعون رجلاً ذكره الشريشي في شرح مقامات الحريري: ج ١، ص١٩٣.

الخامس: خمسة وأربعون فارساً ونحو مائة راجل ذكره ابن عساكر كما في تهذيب تاريخ الشام: ج٤، ص ٣٣٧.

السادس: اثنان وثلاثون فارسا وأربعون راجلاً ذكره الخوارزمي في المقتل: ج٢، ص ٤.

السابع: واحد وستون راجلاً ذكره المسعودي في إثبات الوصية: ص٣٥، طبع المطبعة الحيدرية.

الثامن: خمسة وأربعون فارسا ومائة راجل ذكره ابن نما في مثير الأحزان: ص٢٨، وفي اللهوف: ص٥٦، أنه المروي عن الباقر عليه السلام.

التاسع: اثنان وسبعون راجلاً ذكره الشبراوي في الاتحاف بحب الأشراف: ص١٧.

العاشر: ما في مختصر تاريخ دول الإسلام للذهبي: ج١، ص٣١، أنه عليه السلام سار في سبعين فارساً من المدينة.

(١) اللهوف في قتلى الطفوف لابن طاووس: ص٧٠.

(٢) مقتل الإمام الحسين عليه السلام بحر العلوم: ص٢٨٤، المجلس السادس.

وجاء فيه: (قال ابن شهر آشوب أن عددهم (٣٥ ألفا) وفي شرح شافية أبي فراس (٥٠ ألفا) وفي سفينة النجاة للعيناتي (١٧٠ ألفا) وفي تحفة الأزهار لابن شدقم (٨٠ ألفا) وفي هامش تذكرة الخواص (١٠٠ ألف وأكثر).

(ولما صبّحت الخيل الحسين بن علي عليه السلام[١]، ونظر إلى جمعهم كأنهم السيل المنحدر[٢]، رفع يديه بالدعاء، فقال:

«اللهم أنت ثقتي في كلّ كَرب، ورجائي في كلّ شدة، وأنت لي في كلّ أمرٍ نزل بي ثقة، وعُدّة،كم من همٍّ يَضْعفُ فيه الفؤاد، وتقلّ فيه الحِيلة، ويَخذُلُ فيه الصّديق، ويشمت فيه العدوّ، أنزلتُه بك وشكوتُه إليك، رغبةً مني إليك عمّن سِواك، ففرّجته وكشفته، فأنت وليُّ كل نعمةٍ، وصاحب كلّ حَسنةٍ، ومنتهى كلّ رغبة»)[٣].

مباحث الدعاء:

المبحث الأول: الأسباب الباعثة للدعاء

إن كثرة مواضع دعاء الإمام الحسين عليه السلام في يوم عاشوراء يستلزم الوقوف عند الأسباب الباعثة لكل دعاء كي نتعرف على مضامين هذه الأدعية وآثارها.

أما هذا الدعاء فينفرد من بين الأدعية في هذا اليوم بكثرة الأسباب الباعثة لصدوره عن حجة الله تعالى على خلقه، فكانت كالآتي:

أولا: وقت الدعاء

إن تحرك الجيوش المعادية لحرب الإمام الحسين عليه السلام في ساعات الفجر الأولى كما بيّن الإمام علي بن الحسين عليهما السلام من خلال قوله:

---

(١) الإرشاد للمفيد: ج٢، ص٩٦. تاريخ الطبري: ج٤، ص٣٢١.

(٢) مقتل الإمام الحسين عليه السلام لبحر العلوم: ص٢٩٥. مقتل الحسين عليه السلام، للمقرم: ص٢٣٦.

(٣) الإرشاد للمفيد: ص٩٦. مستدرك الوسائل للنوري: ج١١، ص١١٢. بحار الأنوار للعلامة المجلسي: ج٤٥، ص٤. العوالم للبحراني: ص٢٤٨.

«لما صبّحت الخيلُ الحسين».

أي أنه عليه السلام أول شيء استصبح به في يوم عاشوراء هو هذه الخيل فإنه عليه السلام استقبلها برفع يديه للدعاء.

ثانيا: آثار الدعاء في وقت الصباح

إن من أسباب الدعاء الباطنية، هي أن الساعة التي تحرك فيها العدو وزحف نحو الحسين عليه السلام كان قبل الشروق، وهذه الساعة هي ساعة الإجابة.

وقد دلت على هذه الآثار نصوص كثيرة منها:

١ ـ قال تعالى:

﴿ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآيِٕ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴾[١].

٢ ـ روى البرقي رحمه الله عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال:

«من كبر الله مائة تكبيرة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها كتب الله له من الأجر كأجر من أعتق مائة رقبة»[٢].

٣ ـ روى الصفار رحمه الله عن أبي حمزة الثمالي، عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال:

«يا أبا حمزة لا تنامنَّ قبل طلوع الشمس فإني أكرهها لك، إن الله تعالى يقسم في ذلك الوقت أرزاق العباد، وعلى أيدينا يجريها»[٣].

---

(١) سورة طه، الآية: ١٣٠.

(٢) المحاسن للبرقي: ج١، ص٣٦.

(٣) بصائر الدرجات للصفار: ص٣٦٣.

٤ــ روى الشيخ الكليني رحمه الله عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام في قول الله تعالى:

﴿وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾[(١)].

فقال عليه السلام:

«هو الدعاء قبل طلوع الشمس وقبل غروبها وهي ساعة إجابة»[(٢)].

٥ـ وعنه رحمه الله أيضا، عن الإمام الصادق عليه السلام قال:

«إن الدعاء قبل طلوع الشمس وقبل غروبها سنّة واجبة»[(٣)].

ولذا.. جمع عليه السلام بين هذه الآثار الغيبية وأضاف إليها خصوصية دعائه من حيثية أنه لا ترد له دعوة لكونه حجة الله على خلقه، وكأنه ثبت نتائج هذا اليوم وأركان مجرياته من خلال المعاني التي حملتها كلماته، وهو ما سنعرض له في المباحث الآتية.

المبحث الثاني: بحث سايكولوجي (نفسي)

الثقة عامل نفسي تتوقف عندها الهزيمة والنصر

قال عليه السلام:

اللهم أنت ثقتي.

تعرّف الثقة عند أهل اللغة بأنها مأخوذة من (الوثق) وهو مصدر قولك وثق به يثق، بالكسر فيهما.

---

(١) سورة الرعد، الآية: ١٥.

(٢) الكافي للشيخ الكليني: ج٢، ص٥٢٢.

(٣) الكافي للشيخ الكليني: ج٢، ص٥٣٢.

وثاقة وثقة: ائتمنه، وأنا واثق به وهو موثوق به.

والوثاقة، مصدر الشيء الوثيق المحكم، والوثاق: اسم الإيثاق.

والحبل أو الشيء الذي يوثق به وثاق[١].

ويقال: استوثقت من فلان وتوثقت من الأمر إذا أخذت فيه الوثاقة؛ وأخذ الأمر بالأوثق، أي: الأشد الأحكم[٢].

ومن هنا: نجد أن الإمام الحسين عليه السلام بدأ في أول خطوة في يوم الطف هو الأخذ بالأمر الأوثق والأشد والأحكم وهو الله جل جلاله.

وفي جو الحرب وهو أشد أنواع الكروب في الحياة بسبب تعدد أنواع الضرر من الأسر إلى الإصابة بالجروح المختلفة، إلى الإعاقة بفعل فقدان عضو من الأعضاء أو الحواس، أو أن ينتهي الأمر بالإنسان إلى الوفاة وقد يختلف نوعها حسب طبيعة السلاح ونوعه والمكان والأفراد.

ناهيك عن تعرض الإنسان إلى الانفعالات النفسية المختلفة من الخوف والفزع والضعف والرعب وفقدان الخاطر وتلجلج اللسان وارتعاد الفرائص وغيرها.

هذه الانفعالات النفسية تدفع بالإنسان إلى التشبث بأي وسيلة للنجاة أو على الأقل التخفيف من الضرر أو دفع الخطر، حتى وإن كانت هذه الوسيلة عند البعض من القادة في مثل هذه الظروف دفع المقاتلين للمواجهة، أو

---

(١) لسان العرب لابن منظور، مادة (وثق): ج١٠، ص٣٧١.

(٢) المصدر السابق.

التترس بالنساء والأطفال أو تقديم الأسرى كدروع بشرية سواء أكانوا من العدو المقاتل أم غيرهم كالمدنيين إذا اشتد الخطر، أي تقديم أهل البلد الذي ينتمي إليه هذا القائد أو ذاك المحارب.

أو لعل البعض من القادة يلتجئ من أجل دفع الهزيمة أو إحراز النصر في استخدام أبشع الطرق وأخس الأساليب لغرض تحقيق هدفه.

والسبب في هذه الحالات المتعددة هو: (الثقة) لأنها حالة عقلية لا يمكن قياسها مباشرة بالاعتماد على الإحساس وإنما من خلال التصرف، فهو الذي يكشف عن حجم اعتماد الإنسان على الأمر الذي وثق به.

والثقة تدور مدار الإفراط والتفريط في النفس فتندفع للوقوع في تلك الانفعالات والاضطرابات السلوكية، فالإفراط بها يؤدي إلى الغرور والاستدراج، كمن يثق بالدنيا، أو بالقوة البدنية، أو المال، وكلها قابلة للتغير؛ والتفريط بها يؤدي إلى التراجع والتعثر، وضياع الهدف، وقتل الطموح، وفي جميع ذلك تتوقف النتائج على الأمر الذي نثق به.

والسؤال المطروح هو: من أين تبدأ الثقة وبمن نثق، وهل الثقة بالنفس كافية للخروج من المآزق أو نيل المقصود؟.

بالطبع لا يمكن أن يتخذ الإنسان من النفس مصدرا للتحرك، فكم من امرئٍ وقع في شباك الثقة بنفسه فأدى به الحال إلى الغرور، والتهور، والتعجرف، والاستهزاء بالآخر، وعدم التثبت من المعطيات، لتكون النتائج في كل ذلك وبالاً على صاحبها.

وكم من واثق بماله فيدفعه هذا الشعور إلى التعالي، والظلم، والخسران، بل وكم من واثقٍ بسلطانه فينتهي به الحال إلى الزنزانة أو القتل، وغيرها من مجالات الحياة التي تختلف فيها موارد التثبت والوثاقة.

إذن: ما هو المقياس في حالة الثقة؟

المقياس والضابطة: هو التفريق بين الأشياء الثابتة والمتغيرة، فالمال متغير، والسلطان متغير والصحة والعافية متغيرة، والصداقة متغيرة، والعلاقة الاجتماعية متغيرة، سواء أكانت فردية أم أسرية، لأن الثابت فيها هو ما بني على الإيمان بالله عزّ وجلّ.

ولو كانت هذه الأمور قابلة للثبات لما وضع الله تعالى أحكاماً وتشريعات ابتداءً من العلاقة الزوجية ثم الوالدية، ثم القرابية، ثم العشائرية، ثم العلاقة داخل المجتمع كالجوار، والصداقة، وجلسات التحاور، والتذاكر، وعقود المعاملات القائمة بين الناس، كلها وضع الله لها تشريعاتها لأنها من المتغيرات.

ولكونها كذلك صار الحكم الشرعي هو الثابت والضابط والمقياس الذي يعود إليه الناس لتعديل مسارهم الحياتي، وأسلوبهم المعاملاتي سواء الفردي أو الجماعي.

ومن هنا:

خلصت الدراسات العلمية الحديثة في مجال الصحة النفسية إلى أن الثقة تبدأ مع الإنسان منذ الرضاعة وإن الله تعالى قد جعل لها هارموناً في عقل الأم ينزل إلى الرضيع من خلال الرضاعة.

بل قالوا: (إن الرضاعة في حد ذاتها قائمة على الثقة بين الأم ووليدها، وإن الرضيع عندما يبدأ في مص الحليب من ثدي أمه، تنطلق سلسلة متصلة من العمليات في دماغ الأم تؤدي إلى نشوء هرمون الثقة.

وقال فريق العمل في جامعة ووريديك الذي أنجز البحث إنّ الهرمون المسمّى (أولسيتوسن) كان معروفا أنّه عند إطلاقه في الدم يسبب في انسكاب الحليب من الغدة الثديية. لكن ما لم يكن معروفا أنّه عند إطلاق الهرمون (أوكسيتوسين) في الدماغ فإنه يساعد على تعزيز الرابطة بين الأم والرضيع من خلال الثقة التي تنشأ بين الطرفين.

وينشأ الهرمون في جزء الدماغ المسؤول عن التحكم في حرارة الجسم والعطش والجوع والغضب والتعب.

وخلص فريق البحث إلى أن الهرمون المذكور يفرز مشاعر ثقة الرضيع في أمه واتكاله عليها، فضلاً عن تقليص خوفه من العالم الجديد الذي وفد إليه)[1].

ولذلك؛ أصبح العالم اليوم يعيش أزمة ثقة بسبب استغناء الأمهات عن الرضاعة الطبيعية فينشأ الإنسان وهو محروم من عامل نفسي مهم وهو الثقة ولا يعرف كيف ينميه في نفسه، بل حتى لا يعرف مفهوم الثقة، وكيف له أن يثق بنفسه أو بغيره من الأشياء التي يتعامل معها.

ناهيك عن فقدان ثقافة الثبات والمتغير في الحياة، أي فقدان معرفة تطبيق الحكم الشرعي، أو الجهل به أصلا مما يؤدي إلى تلك الانفعالات النفسية والاضطرابات السلوكية التي تنتهي في الغالب إلى الفشل والدمار.

---

(١) صفحة علوم وتكنولوجيا **bbcarabic.com**.

وفي خضم هذه المفاهيم الحياتية تبقى مدرسة عاشوراء مصدرا للمعرفة والتعلم ونشر ثقافة الحياة، إذ لا يخفى على أهل المعرفة ما للحرب من أجواء نفسية معقدة، وما لها من آثار خطيرة لا يسع البحث إيرادها، مع ما تحمل واقعة كربلاء من خصوصية خاصة من حيث الأجواء العسكرية التي أحاطت بسيد شباب أهل الجنة عليه السلام، وهو موقن أن هؤلاء الذين تجمعوا من حوله عازمون على قتله، وقتل أبنائه وأطفاله وأخوته وأصحابه وتسليب بنات الرسالة المحمدية.

إنها أجواء انفردت بها واقعة الطف على مر العصور، فماذا أعد لها سيد الشهداء عليه السلام من عدة الثقة؟! وبمن استوثق؟.

إنّ جواب السؤال بات معروفا لكثير من أهل المعرفة، إلا أن الفارق في بيانه هو أن الإمام الحسين عليه السلام ابتدأ بعامل الثقة في أول عدته لهذه الحرب الطاحنة، فكيف هي الثقة عنده؟.

بمعنى آخر للسؤال هل وثق بالمال، أم بالأهل، أم بالأصحاب، أم بصحته، أم بمهارته في القتال وإتقانه فنون الفروسية فهو ابن علي بن أبي طالب عليه السلام، فضلاً عن انه إمام معصوم مما يستلزم احرازه لجميع الكمالات التي يحتج بها على المكلف يوم القيامة. ومن البديهي أن أهل بيته هم خير أهل بيت وأوصل، وأن أصحابه أوفى الأصحاب وأبرهم إلا أن السؤال ماذا أعد له ولهم في هذه الحرب وبماذا استوثق؟

وبمعنى آخر: إنّ الأهل والأصحاب هم في دائرة المتغير فقد فدوه بأنفسهم ورحلوا إلى ربهم فبماذا استوثق أبو عبد الله عليه السلام؟! سؤال هو يجيب عليه ـ بأبي وأمي ـ، قائلا:

«اللهم أنت ثقتي في كل كرب».

هنا يظهر الإمام صلوات الله وسلامه عليه الأمر الثابت الذي لا يتغير وهو الله عزّوجلّ، فهو ثقته في كل كرب وليس في هذا الوقت، بل في كل كرب حدث قبل هذا الكرب أو سيحدث بعده ـ كما سيمر علينا ـ، فالثابت في كل ذلك هو الثقة بالله عزّوجلّ.

والسؤال المطروح هو: لماذا كانت ثقة الإمام الحسين عليه السلام بالله تعالى دون غيره من الولد والأهل والأصحاب مع مالهم من الخصوصية الخاصة والتفرد في منحهم الثقة لسيد الشهداء عليه السلام؟ ثم بماذا تختلف ثقة الإمام الحسين عليه السلام بالله تعالى عن ثقتنا به جلت قدرته؟.

والجواب: هو التوكل.

فالتوكل عند الإمام الحسين عليه السلام هو الثقة بالله وحده لا شيء معه، والتوكل عندنا هو التعلق بالأسباب بالولد والأهل والأقارب والأصحاب والعشيرة والمال والسلاح وفنون القتال، و... و... و... وما أكثرها! فهذه الأسباب هي سواء عند سيد الشهداء عليه السلام في وجودها وفقدها وجلائها وخفائها، ولا يبقى منها سوى الغريزة الإنسانية المتمثلة بالأبوة والأخوة والصحبة، ولذا بكى عليهم أشد البكاء لأنه مثال الإنسانية وعنوان وجودها.

فالتواصل مع هذه الروابط طريق لدوام الإنسانية وليس لغرض الإتكال عليها والاستغناء بها، فهاهم قد رحلوا عنه ـ بأبي وأمي ـ وبقي وحيدا على من يعتمد بعدهم، وبمن كان يعتمد قبلهم؟ إنّه الله تعالى.

والعلة في ذلك هو حقيقة التوكل التي تحملها الذات الحسينية المشرّفة.

ولذلك: نجده عليه الصلاة والسلام يظهر لنا في مدرسة عاشوراء عامل الثقة

بالله ودوره في الهزيمة والنصر في جميع مجالات الحياة، فيعيد بيانه في دعائه مرتين؛ فيقول:

«اللهم أنت ثقتي في كل كرب، ورجائي في كل شدة، وأنت لي في كل أمرٍ نزل بين ثقة وعدة»[١].

وفي ذلك يقول العلامة الطباطبائي ﷺ: (إن معنى التوكل على الله أنه ليس اعتمادا عليه سبحانه بإلغاء الأسباب الظاهرية بل سلب الاعتماد القطعي على الأسباب الظاهرية لأن الذي يبدو للإنسان منها بعض يسير منها دون جميعها، والسبب التام الذي لا يختلف عن مسببه هو الجميع الذي يحمل إرادته سبحانه.

فالتوكل هو توجيه الثقة والاعتماد على الله سبحانه الذي بمشيته تدور رحى الأسباب اللائحة عليه من غير أن يلغي شيئا منها فيركب مطية الجهل)[٢].

وعليه؛ ما هو طريق تحصيل الثقة؟

حينما ظهر أن الثقة تنمو في النفس وتؤدي دورها من خلال حسن التوكل على الله عزّ وجلّ لزم من ذلك معرفة طريق تحصيل التوكل، والذي يمكن معرفته من خلال النقاط الآتية التي خلص إليها العلامة النراقي ﷺ:

١ـ بعد تقوية التوحيد والاعتقاد بأن الأمور بأسرها مستندة إليه سبحانه، وليس لغيره مدخلية فيها، أن يتذكر الآيات والأخبار المذكورة الدالة على فضيلته ومدحه، وكونه باعث النجاة والكفاية.

---

(١) الكافي للشيخ الكليني: ج٢، ص٥٧٩.

(٢) تفسير الميزان: ج٩، ص١٧٧.

٢ـ أن يتذكر أن الله سبحانه خلقه بعد أن لم يكن موجودا وأوجده من كتم العدم، وهيأ له ما يحتاج إليه، وهو أرأف بعباده من الوالدة بولدها، وقد ضمن بكفايته من توكل عليه، فيستحيل أن يضيعه بعد ذلك ولا يكفيه مؤونته ولا يوصل إليه ما يحتاج، ولا يدفع عنه ما يؤذيه، لتقدسه من العجز والنقص والخلف والسهو.

٣ـ كما ينبغي له أن يتذكر الحكايات التي فيها عجائب صنع الله في وصول الأرزاق إلى صاحبها، وفي دفع البلايا والأسواء عن بعض عبيده، والحكايات التي فيها عجائب قهر الله في إهلاك أموال الأغنياء وإذلال الأقوياء وكم من عبد ليس له مال وبضاعة ويرزقه الله بسهولة، وكم من ذي مال وثروة هلكت بضاعته أو سرقت وصار محتاجا، وكم من قوي صاحب كثرة وعدة وسطوة صار عاجزا ذليلا، بلا سبب ظاهر، وكم من ذليل عاجز صار قويا واستولى على الكل، ومن تأمل في ذلك، يعلم أن الأمور بيد الله فيلزم الاعتماد عليه والثقة به.

٤ـ والمناط: أن يعلم أن الأمور لو كانت بقدرة الله سبحانه من غير مدخلية للأسباب والوسائط فيها، فعدم التوكل عليه سبحانه ـ والثقة بغيره غاية الجهل، وإن كانت لغيره سبحانه من الوسائط والأسباب مدخلية فالتوكل من جملة أسباب الكفاية وإنجاح الأمور، إذ السمع والتجربة شاهدان بأن من توكل على الله وانقطع إليه كفاه الله كل مؤونة.

فكما أن شرب الماء سبب لإزالة العطش، وأكل الطعام سبب لدفع الجوع، فكذا التوكل سبب رتبه مسبب الأسباب لإنجاح المقاصد وكفاية الأمور، وعلامة

حصول التوكل، ألا يضطرب قلبه، ولا يبطل سكونه بفقد أسباب نفعه وحدوث أسباب ضره.

فلو سرقت بضاعته، أو خسرت تجارته، أو تعوق أمر من أموره، كان راضيا به، ولم تبطل طمأنينته، ولم تضطرب نفسه، بل كان حال قلبه في السكون قبله وبعده واحدا، فإن من لم يسكن إلى شيء لم يضطرب بفقده، ومن اضطرب لفقد شيء سكن إليه واطمأن به[1].

إذن:

ميزان الثقة في النفس وفي الآخر هو الله سبحانه وتعالى فمتى ما عظم إيماننا بالله وأيقنا بأنه مسبب الأسباب ومهيئ السبل وبيده مقادير الحياة والموت، والغنى والفقر، والصحة والمرض، عرفنا كيف نتعامل مع أنفسنا ومع من حولنا، وعرفنا كيف نبني الحياة ونحدد المستقبل، لأن المستقبل خاضع للمقدمات، ومداره مدار التوكل على الله تعالى.

وأيقنا أن الفشل والنجاح، والهزيمة والنصر، تنبع من معرفتنا بأنفسنا، ومواطن ضعفها وقوتها، ومحاسنها ومساوئها، وطرق تقويمها، ففاقد الشيء لا يعطيه لغيره وفاقد الإيمان بالله لا يعطي الثقة لنفسه ولا لأحد من حوله، ومصيره دائما الهزيمة والفشل.

ولذا نراه مضطرباً ومتردداً يحيطه الخوف ويؤرّقه الحذر، وما ذاك إلاّ لاختلال التوكل على الله تعالى.

---

(١) جامع السعادات للنراقي: ج٣، ص١٨٦، ١٨٧.

المبحث الثالث: مبحث أخلاقي

آداب الخطاب مع الله تعالى وأثر ذلك في السلوك الإنساني

المسألة الأولى: تقديم ذكر النعم قبل عرض الحاجة

من المباحث التي اكتنزها الدعاء الأول لسيد الشهداء عليه الصلاة والسلام في يوم عاشوراء هو آداب الخطاب مع الله تعالى، والتي تبنى على قاعدة:

(تقديم ذكر نعم المولى والافتقار إليه قبل عرض الحاجة).

وهذه القاعدة الأخلاقية في مجال الخطاب مع الله تعالى كثيرا ما ركزت عليها مدرسة العترة الطاهرة عليهم السلام ولاسيما مدرسة عاشوراء بوصفها جمعت أصعب عوامل البقاء والموت، وأدق مواطن التعرض للحاجة، وطلب العون، والنصرة.

وهذه الأجواء الخاصة والحيوية أفرزت الكثير، الكثير من الدروس الأخلاقية والتربوية في مختلف المجالات الحياتية والروابط الإنسانية.

وحيث إنّ الإمام الحسين عليه السلام وأهل بيته كانوا نموذجا عملياً لتعاليم السماء، فإن طلب الحاجة وعرض المسألة على الله تعالى يحف به عدد من الآداب التي أظهرتها كلمات الإمام الحسين عليه السلام في يوم عاشوراء، لاسيما وأن هذا التأدب المحمدي النبوي في عرض المسألة وطلب الحاجة من الباري عزّ شأنه، هو عينه خلق النبي المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم حينما دعا بهذه الكلمات في خروجه إلى الطائف وتلقيه الحجارة.

أما مظاهر هذه الآداب، فمنها:

أولاً: إنّ الإمام الحسين عليه السلام يبتدئ دعاءه بلفظ «اللهم» ولم يقل يا رب؟!.

والفرق بينهما هو رتبة التوحيد، فالرب يمكن أن يكون من مصاديق الوالد والمربي والملك كما في قوله تعالى:

﴿وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾(١).

في حين كان مصداق لفظ (اللهم) هو الخلوص في إظهار العبودية لله عزّ وجلّ، وأنه المالك لهذه النفس والمتصرف بها؛ وأنها العائدة إليه، وأنها أي هذه اللفظة مظهر جلي للإقرار بالإلوهية لله تعالى.

ولذلك يبدأ عليه الصلاة والسلام بالإقرار بالعبودية والفردانية لله عزوجل والافتقار إليه وأنه لا حول ولا قوة له إلا به جلت قدرته، وأنه متوكل عليه وموضع عدته وعونه وثقته.

ثانياً: أنّ تقديم الافتقار إلى الله تعالى على الحاجة في هذا الدعاء يشتمل على ثلاثة مظاهر من مظاهر الافتقار إلى الله تعالى وهي: قبل الدخول في عرض الحاجة؛ ومع الدخول في طلب الحاجة؛ وبعد ذكرها.

فقال عليه السلام في القسم الأول:

«اللهم»، «**أنت ثقتي**»، «**في كل كرب**»، «**ورجائي في كل شدة**»، «**وأنت لي**»، «**في كل كرب**»، «**ثقة وعدة**»، فهنا يقدم عليه السلام الإقرار بالربوبية، والافتقار إلى الله تعالى، قبل عرض حاجته.

القسم الثاني: وهو تقديم الافتقار إلى الله تعالى مع عرض الحاجة في سياق واحد، فقال عليه السلام:

---

(١) سورة يوسف، الآية: ٤٢.

«كم من هم يضعف فيه الفؤاد وتقل فيه الحيل، ويخذل فيه الصديق، ويشمت فيه العدو»، «أنزلته بك وشكوته إليك»، «رغبة مني إليك عمن سواك»»،

فيكون السياق في عرض الحاجة والافتقار إلى الله تعالى في نسق واحد.

القسم الثالث: توسط الحاجة بين عرض الافتقارين إلى الله تعالى، فقال عليه السلام في مقدمة دعائه:

«أللهم أنت ثقتي، ورجائي في كل شدة، وأنت لي في كل أمر نزل بي ثقة وعدة».

ثم يذكر حاجته ثم يختم بقوله:

«فكشفته وفرجته» أي لأنك القادر على ذلك، ولأنك ـ سبحانك ـ «ولي كل نعمة»، «وصاحب كل حسنة»، «ومنتهى كل رغبة». كانت جميع حاجتي مقضية، وادعيتي مستجابة، ورغباتي محققه، وأماني منجزة.

فيكون الدعاء الأول هو البوابة التي يفتحها الإمام الحسين عليه السلام للانتقال منها إلى حرم القداسة ومحل نزول الفيض الإلهي، والعروج إلى:

﴿مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾[1].

في جوار جده وأبيه وأمه وأخيه صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

المسألة الثانية: الخوف والرجاء ودورهما في تقويم السلوك

إن من الحقائق العلمية في علم السلوك هو تعرض النفس في مواقف الشدة إلى الاضطراب في السلوك، وذلك لأن السلوك حصيلة تفاعل فسيولوجي ـ نفسي ـ بيئي مستمر.

---

(١) سورة القمر، الآية: ٥٥.

وحيث إننا بحاجة إلى فهم سلوكنا والوقوف عند انفعالاتنا ومعاملتنا مع أنفسنا ومع من حولها، أفرادا ومكانا، فإننا لابد لنا من الوقوف مليا في مدرسة أهل البيت عليهم السلام والتأمل في تلك العلوم الجمة التي زخرت بها هذه المدرسة لأجل أن نتعلم كيف نكون متخلقين بأخلاق سيد النبيين صلى الله عليه وآله وسلم.

ولعل ثمة سؤالاً يتصدر هذا المبحث الأخلاقي والنفسي، مفاده: ما هو السلوك؟.

وفيه قال أهل الاختصاص: (السلوك الإنساني: يعني التفسير السيكولوجي للتصرفات، الأفعال أو الاستجابات، مع إيجاد تلك العمليات السيكولوجية وتسميتها والسمات أو حالات الإنسان التي تشكل سببا لهذا السلوك.

ويمكن مثلا تفسير سلوك الإنسان في موقف ما حسب مقاصده ومشاعره، وميولاته، كما ويمكن فهم استجابات الإنسان إلى الإشارات في المحيط الفيزيائي بشكل مختلف انطلاقا من حاجاته في لحظة الاستجابة، وتكيفه لنمط سلوك معين، وحالة الجهاز العصبي، والخصائص النوعية لهذه الإشارات)[١].

كما أن لأجهزة الجسم مدخلية كبيرة في السلوك الإنساني، إذ (يتوقف السلوك على الفروق البنيوية في مختلف أجهزة الجسم وعلى مستوى الفعالية الخاصة بهذه البنية أو بتلك.

فيعمد ذوو الطاقة القوية إلى تفريغ التوتر بالفعالية العصبية العضلية، ويميل ذوو الطاقة المنخفضة إلى تفريغ توترهم بالتخيل والتفكير، وشأن الرضيع في ذلك شأن الراشد)[٢].

---

(١) مبادئ علم النفس للدكتور محمد بني يونس: ص٦٩، ٧٠.

(٢) علم الاضطرابات السلوكية للدكتور ميخائيل أسعد: ص٥٥.

ويمكن أن يكون التفسير العلمي للسلوك أحادي الجانب ـ أي إظهار سبب أو عدة أسباب ممكنة للسلوك ـ وعديد الجوانب يتضمن إظهار الأسباب الممكنة كافة لسلوك الإنسان، كما يمكن أن يكون التفسير العلمي للسلوك أحادي المستوى، فمثلا يمكن أن يصل التفسير الفسيولوجي للسلوك إلى مستوى العمليات البيوكيميائية في الخلية، أو يمكن أن يقتصر على مستوى العمليات المتعلقة بالآليات العامة لعمل الجهاز العصبي، أو يقتصر فقط على قوانين قشرة الدماغ للإنسان ووظائفها.

بعبارة أخرى فإن التفسير الفسيولوجي للسلوك يمكن أن يكون على مستوى الجهاز العصبي أو يصل إلى مستوى أعضاء الجهاز العصبي، ويمكن أن يتغلغل ويتعمق ليصل إلى مستوى الخلية العصبية، وكلما كان التفسير الفسيولوجي للسلوك على المستوى الخلوي فما دون، كلما كان التفسير أكثر علمية وشمولية ودقة.

أما بالنسبة للتفسير السيكولوجي للسلوك فيمكن أن يكون على مستوى العمليات المعرفية الواعية أو على مستوى اللاوعي، أي على مستوى الدوافع والحاجات الواعية واللاواعية)[١].

وفي ضوء ما ذكر سابقا يمكن تعريف السلوك لمفهوم معقد بأنه: يوجد لدى الكائنات الحية كافة، لكن بدرجات وأنواع مختلفة، ويشتمل على دورة مستمرة ومتكاملة من التفاعلات المتبادلة الوثيقة ما بين الكائنات الحية والإشارات المختلفة في شدتها وطبيعتها في الواقع الموضوعي، والتي لا يتم تحقيقها في الحيوانات الراقية

(١) مبادئ علم النفس لمحمد بني يونس: ص٧٠، ٧١.

عامة والإنسان خاصة إلا بمشاركة جهاز المحللات وجهاز الأفراد الداخلي أو هو عبارة عن تفاعل دائم بين المدخلات (البيانات) الحسية + جهاز المحللات وجهاز الأفراد الداخلي يتم فيها الإجراءات أو المعالجة الكاملة (تحليل وتركيب) للبيانات الحسية والتي تؤدي إلى مخرجات (معلومات) أو استجابات متنوعة (معرفية، فسيولوجية، نفسية، انفعالية، حركية، لفظية... الخ.

إذ يمكن القول بأن السلوك عبارة عن تفاعل متبادل دائم بين الذات + الموضوع)[1].

ومن هنا: فإن تفاعل الذات مع موضوع الشدة، التي تكون أبرز مظاهرها لدى الإنسان في الحرب بسبب المساحة الواسعة التي يشغلها الفكر في التوقعات التي تصل غالبا إلى درجة حتمية الوقوع والتعرض للضرر مع تعدد أنواعه وحجمه.

كيف للإنسان أن يضبط سلوكه وهو يتعرض لتلك المؤثرات والعمليات المختلفة في النفس، وما هي الضابطة العقلية والروحية والنفسية التي يستند إليها الإنسان في تقويم سلوكه في هذه المواقف التي يظهر فيها خبايا نفسه وما تحمله من مكونات أخلاقية موروثة ومكتسبة!؟.

وعليه:

لابد من الرجوع إلى يوم الطف والتعلم من سيد الشهداء عليه السلام هذا الدرس المعرفي والتطبيقي في علم النفس والأخلاق والسلوك، وذلك من خلال دعائه الأول الذي استقبل به جموع الجيوش الكثيرة.

---

(١) المصدر السابق.

قال عليه السلام:

«**اللهم أنت ثقتي في كل كرب، ورجائي في كل شدة**».

وهنا يشير الإمام الحسين عليه السلام إلى دور الرجاء في تقويم السلوك وضبط النفس في مواطن الشدة، فما هو الرجاء وكيف له أن يقوم السلوك ويضبط النفس الإنسانية؟.

بالطبع ـ وحسب منهج القرآن الكريم والعترة النبوية الطاهرة عليهم السلام ـ لا يستقيم أثر الرجاء على النفس والسلوك بدون الخوف.

وقد قدم الإمام الخوف ـ كما هو النهج القرآني ـ على الرجاء في دعائه بشكل مستتر، أي لم يأتِ بلفظ الخوف كما هو الحال بالنسبة للرجاء فقد جاء مباشرا وظاهرا، فلاحظ: **«ورجائي في كل شدة»**. والسبب في ذلك ـ أي في إخفائه لعامل الخوف في ملازمته للرجاء في ألفاظ الدعاء ـ هو: أن الإمام الحسين عليه السلام في هذا الموقف ـ موقف القائد المحارب ـ لا ينبغي له إظهار الخوف حتى ولو في دعائه وتضرعه إلى الله تعالى لحكمة بالغة يمكن الوقوف عندها من خلال النقاط الآتية:

١ـ كونه القائد للجيش فإن ذلك يلزمه بإخفاء كل ما من شأنه أن يحرك الإحساس بالخوف لدى جنده وأتباعه، حتى ولو كان من خلال الدعاء، لما له من أثر سلبي على التعبئة العامة ـ وبالطبع ـ نحن نتحدث من المنظور العسكري لا العقائدي، إذ كونه حجة الله يدفع عنه جميع النواقص فلا ترهبه كثرة الجيوش كما لا تزيده كثرة الناس الذين حوله عزة ولا تفرقهم عنه وحشة لانقطاعه إلى ربه[١]، ولذلك لم يذكر الخوف كمفردة في دعائه.

---

(١) وهو ما روي عن أمير المؤمنين عليه السلام حيث قال: «لا تزيدني كثرة الناس حولي عزة ولا تفرقهم عني وحشة»، المزار، الشهيد الأول: ص٧٢.

٢ـ ولأن من يسمع الدعاء هم أهل بيته وفيهم النساء والأطفال فإن ورود لفظ (الخوف) في الدعاء يؤثر على المشاعر ويحرك الإحساس بالخوف لديهم، ناهيك عن الحزن الذي يتركه هذا اللفظ على قلب العقيلة زينب عليها السلام التي أغمي عليها ليلة العاشر حينما سمعته عليه السلام ينعى نفسه فيقول:

يا دهر أفٍ لك من خليلِ   كم لك بالإشراق والأصيل[1]

٣ـ ولأن الأعداء لو سمعوا هذه المفردة يستعملها الإمام في دعائه لظنوا أنه خائف وأنهم حققوا تقدماً في كثرة الجيوش التي زحفت إليه وأحاطت به من كل جانب فيزداد معها شعور الثقة بالنفس وما يترتب عليه من آثار في سير المعركة، ولذا لم يمكنهم عليه السلام من هذه الظنون، وهو القائد الخبير بشؤون الحرب والنفس.

ولذلك عمد الإمام الحسين عليه السلام إلى إيراد الخوف كمقوم للسلوك الإنساني مستتراً وقد دلت عليه الهيئة البنيوية للفظ (الثقة) بلحاظ أنها ـ أي الثقة ـ نتيجة عقلية ونفسية لحالة الاطمئنان، بل إن الاطمئنان باب لولوج الثقة إلى النفس وبعكسها أي الخوف الذي هو ضد الاطمئنان ينعدم استحصال الثقة.

ولأن الله تعالى هو المقصود بالخوف والرجاء فإن الثقة حاصلة ونافذة لدرجة السكينة التي هي فوق رتبة الاطمئنان عند الإمام الحسين عليه السلام.

إذن: يسلك المولى أبو عبد الله الحسين عليه السلام مسلك الخوف والرجاء في تقويم السلوك الإنساني في الكرب والشدة فكيف نعي دورهما وآثارهما على السلوك؟ هذا ما سنعرض له في النقاط الآتية:

---

(١) الأمالي للشيخ الصدوق: ص٢٢١.

أولا: معنى الخوف والرجاء

قال اللغويون: إن الخوف هو الفزع[1]، والحذر[2]، وإن الرجاء هو: نقيض اليأس[3]، وهو من الأمل[4].

بهذا يكون الإنسان في سلوكه بين الفزع والحذر، والأمل، ولكن كيف تكون مصاديق هذه المعاني عند علماء الأخلاق؟.

قالوا:

(إنّ الخوف: هو تألم القلب واحتراقه بسبب توقع مكروه في الاستقبال مشكوك الوقوع، فلو علم أو ظن حصوله سمى توقعه (انتظار مكروه)، وكان تألمه أشد من الخوف، وكلامنا في كليهما، وفرقه عن الجبن ظاهر، فإن الجبن هو سكون النفس عما يستحسن شرعا وعقلا من الحركة إلى الانتقام أو شيء آخر، وهذا السكون قد يتحقق من غير حدوث التألم الذي هو الخوف، مثلا من لا يجترئ على الدخول في السفينة أو النوم في البيت وحده أو التعرض لدفع من يظلمه ويتعرض له يمكن اتصافه بالسكون المذكور مع عدم تألم بالفعل، فمثله جبان وليس بخائف، ومن كان له ملكة الحركة إلى الانتقام وغيره من الأفعال التي يجوزها الشرع والعقل ربما حصل له التألم المذكور من توقع حدوث بعض المكاره، كما إذا أمر السلطان بقتله، فمثله خائف وليس بجبان.

---

(١) لسان العرب لابن منظور: ج٩، ص٩٩.

(٢) مجمع البحرين للطريحي: ج

(٣) كتاب العين للفراهيدي: ج٦، ص١٧٦.

(٤) لسان العرب لابن منظور: ج ١٤، ص٣٠٩.

ثم الخوف على نوعين:

(أحدهما) مذموم بجميع أقسامه، وهو الذي لم يكن من الله ولا من صفاته المقتضية للهيبة والرعب، ولا من معاصي العبد وجناياته، بل يكون لغير ذلك من الأمور التي يأتي تفصيلها[١]، وهذا النوع من رذائل قوة الغضب من طرف التفريط، ومن نتائج الجبن، و(ثانيهما) محمود وهو الذي يكون من الله ومن عظمته ومن خطأ العبد وجنايته، وهو من فضائل القوة الغضبية، إذ العاقلة تأمر به وتحسنه، فهو حاصل من انقيادها لها)[٢].

والرجاء هو: (ارتياح القلب لانتظار المحبوب، وله إفراط وتفريط، فتفريطه اليأس، وإفراطه الأمن وهو مع الخوف خاطران يردان على القلب من دون تعمل للعبد فيهما فلا تكليف فيهما إلا في مقدماتهما وهي الأسباب الموصلة إليهما، وكلما خطر بالبال من مكروه أو محبوب فإما أن يكون موجودا فيما مضى من الزمان ويسمى الذكر والتذكر، أو في الحال ويسمى الوجد والذوق، أو في المستقبل ويسمى الانتظار والتوقع، فإن كان محبوبا عنده حصل من انتظاره وتعلق القلب به وأخطار وجوده بالبال نشاط وفرح وهو الرجاء فإن كان مكروها حصل منه انقباض وغم وهو الخوف.

فالرجاء والخوف مبنيان على انتظار ما يستقبل، فالمستغرق بذكره تعالى المشاهد لجمال الحق على الدوام يفقدهما لكونه ابن الوقت الحاضر لا التفات له إلى المستقبل لشغفه بوجده وذوقه)[٣].

---

(١) للإحاطة بهذه الأمور أنظر: جامع السعادات، مبحث الخوف.

(٢) جامع السعادات للنراقي: ج١، ص٢٤٣، ٢٤٤.

(٣) التحفة السنية لعبد الله الجزائري: ص٦٨.

ثانيا: التلازم بين الخوف والرجاء

لقد مرّ آنفا: (أن الرجاء هو ارتياح القلب لانتظار المحبوب، وهو يلازم الخوف؛ إذ الخوف ـ كما عرفت ـ عبارة عن التألم من توقع مكروه ممكن الحصول، وما يمكن حصوله يمكن عدم حصوله أيضا، وما كان حصوله مكروها كان عدم حصوله محبوبا، فكما أنه يتألم بتوقع حصوله يرتاح ليتوقع عدم حصوله أيضا، فالخوف من الشيئ وجودا يلزمه الرجاء عدما، ومنه عدما يلزمه الرجاء وجودا.

وقس عليه استلزام الرجاء للخوف، فهما متلازمان، وإن أمكن غلبة أحدهما نظرا إلى كثرة حصول أسبابه.

وإن تيقن الحصول أو عدمه لم يكن انتظارهما خوفا ورجاء، بل سمي انتظار مكروه أو انتظار محبوب.

ثم كما أن الخوف من متعلقات قوة الغضب، وأن الممدوح منه من فضائلها، لكونه مقتضى العقل والشرع، وباعثا للعمل من حيث الرهبة، فكذا الرجاء متعلق بها ومن فضائلها، لكونه مقتضاهما وباعثا للعمل من حيث الرغبة، إلا أن الخوف لترتبه على ضعف القلب يكون أقرب إلى طرف التفريط، والرجاء لترتبه على قوته يكون أقرب إلى طرف الإفراط وإن كان كلاهما ممدوحين.

ثم لا بد أن يحصل أكثر أسباب حصول المحبوب حتى يصدق اسم الرجاء على انتظاره، كتوقع الحصاد ممن ألقى بذرا جيدا في أرض طيبة يصلها الماء، وأما انتظار ما لم يحصل شيء من أسبابه فيسمى غرورا وحماقة، كتوقع من ألقى بذرا في أرض سبخة لا يصلها الماء.

وانتظار ما كان أسبابه مشكوكة يسمى تمنيا، كما إذا صلحت الأرض ولا ماء.

وتفصيل ذلك:

أن الدنيا مزرعة الآخرة، والقلب كالأرض، والإيمان كالبذر، والطاعات هي الماء الذي تُسقى به الأرض، وتطهير القلب من المعاصي والأخلاق الذميمة بمنزلة تنقية الأرض من الشوك والأحجار والنباتات الخبيثة، ويوم القيامة هو وقت الحصاد.

فينبغي أن يقاس رجاء العبد (المغفرة) برجاء صاحب الزرع (التنمية)، وكما أن من ألقى البذر في أرض طيبة، وساق إليها الماء في وقته، ونقاها من الشوك والأحجار، وبذل جهده في قلع النباتات الخبيثة المفسدة للزرع، ثم جلس ينتظر كرم الله ولطفه مؤملا أن يحصل له وقت الحصاد مائة قفيز مثلا، سمي انتظاره رجاء ممدوحا، فكذلك العبد إذا طهر أرض قلبه عن شوك الأخلاق الرديئة وبث فيه بذر الإيمان بماء الطاعات، ثم انتظر من فضل الله تثبيته إلى الموت وحسن الخاتمة المفضية إلى المغفرة، كان انتظاره رجاء حقيقيا محمودا في نفسه.

وكما أن من تغافل عن الزراعة واختار الراحة طول السنة، أو ألقى البذر في أرض سبخة مرتفعة لا يصل إليها ماء ولم يشتغل بتعهد البذر وإصلاح الأرض من النباتات المفسدة للزرع، ثم جلس منتظرا إلى أن ينبت له زرع يحصده سمى انتظاره حمقا وغرورا.

كذلك من لم يلق بذر الإيمان في أرض قلبه أو ألقاه مع كونه مشحونا برذائل الأخلاق منهمكا في خسائس الشهوات واللذات، ولم يسق إليها ماء الطاعات،

ثم انتظر المغفرة، كان انتظاره حمقا وغرورا، وكما أن من بث البذر في أرض طيبة لا ماء لها، وجلس ينتظر مياه الأمطار حيث لا تهطل الأمطار، وإن لم يمتنع أيضا، سمي انتظاره تمنيا.

كذلك من ألقى بذر الإيمان في أرض قلبه، ولكنه لم يسق إليه ماء الطاعات، وانتظر المغفرة بلطفه وفضله، كان انتظاره تمنيا.

فإذن؛

اسم (الرجاء) إنما يصدق على انتظار محبوب تمهدت جميع أسبابه الداخلة تحت اختيار العبد، ولم يبق إلا ما ليس يدخل تحت اختياره وهو فضل الله تعالى بصرف القواطع والمفسدات، فالأحاديث الواردة في الترغيب على الرجاء وفي سعة عفو الله وجزيل رحمته ووفور مغفرته. إنما هي مخصوصة بمن يرجو الرحمة والغفران بالعمل الخاص المعد لحصولهما وترك الانهماك في المعاصي المفوت لهذا الاستعداد.

فاحذر أن يغرك الشيطان ويثبطك عن العمل ويقنعك بمحض الرجاء والأمل.

وانظر إلى حال الأنبياء والأولياء واجتهادهم في الطاعات وصرفهم العمر في العبادات ليلا ونهارا، أما كانوا يرجون عفو الله ورحمته؟ بلى والله! إنهم كانوا أعلم بسعة رحمة الله وأرجى لها منك ومن كل أحد، ولكن علموا أن رجاء الرحمة من دون العمل غرور محض وسفه بحت، فصرفوا في العبادات أعمارهم وقصروا على الطاعات ليلهم ونهارهم)[١].

---

(١) جامع السعادات، محمد مهدي النراقي رحمه الله: ج١، ص٢٢٣-٢٢٥.

ثالثا: توازن الخوف والرجاء في قلب المؤمن

حينما تكون الحكمة هي ضالة المؤمن ومبتغاه، فقد وضع لها القرآن الكريم والعترة النبوية شروطا لتحصيلها.

قال تعالى:

﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾[1].

وقال عزّ من قائل:

﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾[2].

وقال سيد الخلائق صلى الله عليه وآله وسلم:

«**رأس الحكمة مخافة الله**»[3].

وحيث إن الحكمة هي عنوان يدل على الأنبياء والصالحين من عباد الله تعالى فقد حدها النبي الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم بحد الخوف من الله تعالى فهو سنامها الذي منه ترتوي فلا دوام لها إلا به، كذلك جعل الرجاء تابعاً وملازما للخوف يحل معه حيث ما حل.

ومن هنا ينبغي على المؤمن أمور منها:

١ـ يجب عليه أن يخاف الله ربه المطلع على أمره في سره وعلانيته خوفاً

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٦٩.

(٢) سورة فصلت، الآية: ٣٥.

(٣) من لا يحضره الفقيه للشيخ الصدوق: ج٤، ص٣٧٦، ح٥٧٦٦. كنز العمال للمتقي الهندي: ج٣، ص١٤١، ح٥٨٧٣.

شديداً يبعثه على طاعته، ويردعه عن جميع معاصيه، ويمنعه عن اتباع الشهوات التي تبعده عن مرضاته، وتوجب له استحقاق غضبه ومقته.

٢ـ ويجب عليه أن يرجو رحمة الله وعفوه وإن سبقت منه المعاصي وعنده الذنوب كثرت، ففي الخبر عن أبي عبد الله عليه السلام:

«أُرج الله رجاءً لا يجرئك على معصيته، وخف الله خوفاً لا يؤيسك من رحمته»[١].

وعن أبي جعفر عليه السلام:

«ليس من عبد مؤمن إلا وفي قلبه نوران: نور خيفة ونور رجاء، ولو وزن هذا لم يزد على هذا، ولو وزن هذا لم يزد على هذا»[٢].

٣ـ كما ويجب عليه أن يكون عاملا لما يخاف ولما يرجو، وقد قيل لأبي عبد الله عليه السلام:

«قوم يعملون بالمعاصي ويقولون: نرجو، فلا يزالون كذلك حتى يأتيهم الموت»[٣].

فقال عليه السلام:

«هؤلاء قوم يترجحون في الأماني، كذبوا ليسوا براجين، من رجا شيئا طلبه، ومن خاف من شيء هرب منه»[٤].

---

(١) وسائل الشيعة، الحر العاملي: ج١٥، ص٢١٨.

(٢) مشكاة الأنوار لعلي الطبرسي: ص٢١٥، الفصل الرابع.

(٣) الكافي للشيخ الكليني رحمه الله: ج٢، ص٦٨، ح٥.

(٤) تحف العقول لابن شعبة الحراني: ص٣٦٢.

(فإذا خاف العبد ربه ورجاه وتوازن الخوف والرجاء في قلبه، وعمل لهما ـ كما ذكرته الأحاديث ـ واستقام في عمله ولم ينحرف أنتج ذلك له نتيجة معلومة محتومة، وهي تقوى الله، فالتقوى هي حصيلة اجتماع الخوف والرجاء الشديدين المتوازنين في قلب المؤمن، والعمل الدائب لخوفه ورجائه، والحفاظ عليهما حتى تكون ملكة ثابتة في نفسه، وقد أشارت إلى ذلك الآية الكريمة:

﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾[1].

ومن متممات هذه المنزلة، ومقربات الوصول إلى هذه الغاية أن يشتد الخوف في قلب المؤمن، فيبكي خشية من الله لما اقترف من الذنوب، أو يبكي ندما على ما قابل به ربه الكريم العظيم من العصيان، أو خجلا مما تفضل عليه من النعم والأيادي، فعن الإمام أبي محمد الحسن العسكري عليه السلام عن آبائه عليهم السلام عن الصادق عليه السلام:

«إن الرجل ليكون بينه وبين الجنة أكثر مما بين الثرى إلى العرش لكثرة ذنوبه، فما هو إلا أن يبكي من خشية الله عزّ وجلّ ندما عليها حتى يصير ما بينه وبينها أقرب من جفنه إلى مقلته»[2].

وإذا توازن الخوف والرجاء في قلب المؤمن، وأثمر اجتماعهما له ملكة التقوى ـ كما ذكرنا في ما سبق ـ، قبل الله منه عمله، وإن كان يسيرا، كما قال سبحانه:

﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾[3].

---

(١) سورة محمد، الآية: ١٧.

(٢) عيون أخبار الرضا عليه السلام للشيخ الصدوق رحمه الله: ج١، ص٦، ح٤.

(٣) سورة المائدة، الآية: ٢٧.

وبوأه المقام الرفيع من رضاه في الدنيا والآخرة، وآتاه العزة والكرامة، كما يقول تعالى:

﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾[(١)].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام:

«**لا يقل عمل مع تقوى، وكيف يقل ما يتقبل**»[(٢)].

وعن الصادق عليه السلام:

«**من أخرجه الله من ذل المعاصي إلى عز التقوى أغناه الله بلا مال، وأعزه بلا عشيرة، وآنسه بلا أنيس، ومن خاف الله أخاف الله منه كل شيء، ومن لم يخف الله أخافه الله من كل شيء**».

وكلما ازدادت ملكة التقوى في نفس المؤمن ثباتا ورسوخا ازداد عطاؤها وعظم نتاجها)[(٣)].

رابعاً: أثر الخوف والرجاء على تقويم السلوك الإنساني

قال العلامة الطباطبائي قدس سره: (إن البعث ـ من القبور ـ هو السبب العمدة الداعي إلى الإيمان بالكتاب واتباعه فيما يدعو إليه.

وأما الاعتقاد بيوم الحساب هو الذي يستتبع الخوف والرجاء، خوف العقاب، ورجاء الثواب، الداعين إلى عبادة الله تعالى)[(٤)].

---

(١) سورة الحجرات، الآية: ١٣.

(٢) الكافي للشيخ الكليني رحمه الله: ج٢، ص٧٥، ح٥.

(٣) كلمة التقوى للشيخ محمد أمين زين الدين: ص٣٣١، ٣٣٢.

(٤) تفسير الميزان للعلامة الطباطبائي قدس سره: ج١٧، ص٣٠٥.

ويظهر هنا من كلام العلامة رحمه الله أن للخوف والرجاء ذراعين يعمل بهما المؤمن على تقويم سلوكه وهما الثواب والعقاب، اللذان لا يتحققان في القلب إلا من خلال الاعتقاد بيوم الميعاد والحساب ولذلك عد (المعاد) أصلاً من أصول الدين التي يجب على المسلم الاعتقاد به لما يشكله من خطر كبير على سير الإنسان وسلوكه وبه يقوّم المجتمع وتصلح النظم والمعاملات.

وقد أفرد علماء الطائفة (أعزها الله) في أبحاثهم حيزاً واسعاً لبيان هذا الأصل لما يحمله من آثار إصلاحية كبيرة.

أما ارتباط الخوف والرجاء بالاعتقاد بيوم المعاد فيظهر من خلال إدراك كل عاقل: (أن العالم والجاهل، والمتخلق بالأخلاق الفاضلة والمتخلق بالأخلاق الرذيلة، والمحسن والمسيء في الأقوال والأعمال، ليسا سواء، والتسوية بين الفريقين فضلا عن ترجيح المرجوح على الراجح القبيح عقلا، ظلم وسفاهة.

ومن جهة أخرى، فإنا نرى أن المحسنين والمسيئين لا ينالون جزاءهم في الحياة الدنيا كما ينبغي، فمقتضى العدل والحكمة وجود البعث والحساب، والثواب والعقاب كما جاء في القرآن الكريم:

﴿وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾[١].

على ما يقتضيه ارتباط العمل بالجزاء، فإنهم لا ينالون جزاء أعمالهم كما ينبغي في هذه الدنيا، فإذا كانت لا توجد دار أخرى يتحقق فيها الحساب والجزاء والعقاب المتناسب مع عقائد الناس وأعمالهم، لكان ذلك ظلما.

---

(١) سورة الجاثية، الآية: ٢٢.

إن عدل الله تعالى يستوجب وجود البعث والحساب والثواب والعقاب حيث قال تبارك وتعالى في محكم كتابه الكريم:

﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾[١]، ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٦ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾[٢].

إن الله تعالى حكيم، ولا يصدر عنه سفه وعبث، وهو لم يقتصر في خلق الإنسان على تجهيزه بالقوى الضرورية لحياته النباتية والحيوانية، كقوة الجذب والدفع، والشهوة والغضب، بل جهزه بقوى أخرى تقوده إلى التكامل والتحلي بالفضائل العلمية والعملية، وترتفع به إلى مستويات عُلى، لا يقف فيها عند حد، بل كلما ترقى في هذا السبيل يتعطش لما هو أعلى، وقد بعث الله الأنبياء عليهم السلام لهداية الإنسان إلى الكمال الذي يكون مفطورا على طلبه ومجبولا على أن لا يقف على حد حتى ينتهي إلى ما قال سبحانه في القرآن الكريم:

﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾[٣].

فلو كان الإنسان مخلوقا للحياة الحيوانية فقط لكان إعطاؤه العقل الذي لا يقتنع إلا بإدراك أسرار الوجود لغوا، وخلقه على الفطرة التي لا تطمئن دون أية

---

(١) سورة ص، الآية: ٢٨.

(٢) سورة الزلزلة، الآيات: ٦، ٧، ٨.

(٣) سورة النجم، الآية: ٤٢.

مرتبة من الكمال حتى يصل إلى مبدأ الكمال الذي ليس له حد عبثا.

فالحكمة الإلهية توجب أن لا تختم حياة الإنسان بالحياة المادية والحيوانية، بل تتواصل لتحقيق الهدف الذي خلقت قوى عقله وروحه من أجله، قال الله تبارك وتعالى:

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾[١].

إن فطرة الإنسان تحكم بأن كل صاحب حق لابد أن يعطى حقه، وكل مظلوم لابد أن يؤخذ له من ظالمه، وهذه الفطرة البشرية هي التي تدفع البشر في كل عصر ـ على مختلف أديانهم مهما كانت أفكارهم ومعبوداتهم ـ إلى تشكيل أجهزة قضائية، ومحاكم لتحقيق العدالة.

ومن ناحية أخرى، نرى أن كثيرا من الظالمين والمجرمين يموتون دون أن يقتص منهم، ونرى مظلومين يموتون تحت سياط الظالمين ونيران اضطهادهم، لذا فإن حكمة الله تعالى وعدله وعزته ورحمته، تستوجب وجود حياة أخرى تؤخذ فيها حقوق المظلومين من الظالمين حيث جاء في القرآن الكريم:

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾[٢].

إن حكمة الله تعالى تقتضي أن يهيء للإنسان وسيلة وصوله إلى ثمرة وجوده والغرض من خلقته، ولا يتحقق ذلك إلا بأن يأمره بما يوجب سعادته، وينهاه عما

(١) سورة المؤمنون، الآية: ١١٥.

(٢) سورة إبراهيم، الآية: ٤٢.

يوجب شقاءه، وتنفيذ الأوامر والنواهي الإلهية المخالفة لهوى الإنسان، لا يمكن إلا بوجود عاملي الخوف والرجاء في نفسه، وهما لا يتحققان إلا بالتبشير والإنذار، والتبشير والإنذار يستلزمان وجود ثواب وعقاب ونعيم وعذاب بعد هذه الدنيا، وإلا كانا تبشيرا وإنذارا كاذبين، والله تعالى منزه عن الكذب والقبيح)[١].

خامساً: آثارهما النفسية

ارتبط السلوك بعلم النفس لما يمثله من صورة عملية لما يختلج في النفس من مكونات، (وبفضل الدراسات والبحوث السيكولوجية تراكم كم هائل من المعارف التي تتعلق بقوانين حدوث العمليات العقلية المعرفية وغير المعرفية لدى الإنسان، هذه المعارف يمكن أن تساعدنا في فهم وتفسير؛ كيف يقوم الإنسان بمعالجة المعلومات الحسية المتنوعة؟، لكنها لا تكفي لتفسير السلوكات الإنسانية المعقدة.

إن المشكلة ليست في قلة كمية المعارف السيكولوجية المتوافرة لتفسير السلوك الإنساني، وإنما تكمن المشكلة في أن كثيراً من عمليات الدافعية، أو دوافع السلوك تحدث على مستوى اللاوعي، والذي لا نعرف عنه شيئا تقريبا)[٢].

ولذلك لابد من الرجوع إلى القرآن الكريم والعترة النبوية الطاهرة من حيثية أن الله تعالى هو الخالق لهذه النفس وهو العالم بمكنونها ومكوناتها وانفعالاتها ودوافعها، ناهيك عن ارتباطها بالقوة العقلية والخيال والعوامل البيئية، واستجاباتها للخصائص الفيزيائية والاجتماعية.

---

(١) منهاج الصالحين، آية الله العظمى الشيخ الوحيد الخراساني: ج١، ص١٢٩ إلى ١٣٢.

(٢) مبادئ علم النفس لمحمد بني يونس: ص٦٩.

ولذا فقد وضع تعالى لها قوانين وضوابط تقومها وتصلحها، من بينها الخوف والرجاء، وقد وردت آيات كثيرة في القرآن الكريم تتحدث عن هذه القوانين والضوابط السلوكية التي تنبثق عن النفس. ومنها قوله تعالى:

﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾[١].

فالآية تخبر عن قانون الخوف والرجاء ممثلا في الشكر ومبعثه الرجاء والكفر ومبعثه انعدام الخوف من الله تعالى فيتمنى الإنسان على المنعم سبحانه ويسيء استخدام النعم فيصرفها في معصية الله تعالى وظلم الناس.

(فقد جمع صدر الآية وعجزها بين رتبتي الخوف والرجاء، وقدم الرجاء ـ على الخوف ـ لأنه سوط النفس الناطقة المحرك لها نحو الضماح، أي: الاعتلاء والتسامي، فإن النفس البشرية بطبيعتها طامحة إلى التعالي والترقي، ومتصلة إلى التسامي.

وأخّر الخوف: لأنه زمامها العاطف بها عن الجماح، أي: أن النفس تكون كالفرس الجموح التي لا تسلك طريق الاعتدال فهي بذلك بحاجة إلى الزمام الذي يعيدها إلى الطريق المستقيم والسير القويم، وهذا الزمام هو الخوف)[٢].

وحينما يأتي علماء الأخلاق إلى مراتب الإيمان وعوامل الارتقاء بالنفس في هذه المراتب يجعلون الخوف والرجاء بعد اليقين، والسبب في ذلك: (أن الخوف والرجاء يؤديان إلى الصبر على المكاره والمشاق، وهو المجاهدة والتجرد لذكر الله تعالى والفكر فيه على الدوام، ويقوي دوام الذكر على الأنس، ودوام الفكر على

---

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٧.

(٢) شرح اللمعة الدمشقية، الشهيد الثاني: ج١، ص٣٢٤.

كمال كمال المعرفة، ويؤدي الأنس وكمال المعرفة إلى المحبة، ويتبعها الرضا والتوكل وسائر المقامات، وهذا هو الترتيب في سلوك منازل الدين، فليس بعد أصل اليقين مقام سوى الخوف والرجاء، ولا بعدها مقام سوى الصبر، ولا بعده سوى المجاهدة والتجرد لله تعالى ظاهرا وباطنا ولا بعده سوى الهداية والمعرفة، ولا بعدهما سوى الأنس والمحبة.

ومن ضرورة المحبة الرضا بفعل المحبوب والثقة بعنايته، وهو التوكل، فاليقين هو سبب الخوف فيجب تحصيل السبب ليؤدي المسبب)[١].

إذن:

حينما نظر الإمام الحسين عليه السلام إلى جمعهم كأنه السيل[٢]، ورفع يديه بالدعاء وقال:

«اللهم أنت ثقتي في كل كرب، ورجائي في كل شدة، وأنت لي في كل أمر نزل بي ثقة وعدة»[٣].

إنما هو نتيجة لمحبة الله تعالى التي غمرت قلبه المقدس فكان الرضا بفعل المحبوب، والثقة بعنايته، هي هذه المحبة، فتوكل عليه ورجاه في كل شدة.

ولكونه الموقن حق اليقين بربه فقد كان له في كل أمر نزل به ثقة وعدة.

ولذا نراه استظهر الرجاء وهو الأحب إلى الله تعالى لأنه ينطلق من الحب والتعلق به وحسن الظن والأنس بكل ما يقدر ويقسم.

---

(١) جامع السعادات: ج١، ص٢١٣.

(٢) مقتل الإمام الحسين عليه السلام، عبد الرزاق المقرم: ص٢٣٦.

(٣) الإرشاد للشيخ المفيد رحمه الله: ج٢، ص٩٦.

المبحث الرابع: نظريته عليه السلام في منشأ الهموم وعوامل تفريجها

بعد أن قدّم المولى أبو عبد الله الإمام الحسين بن علي عليهما السلام الخوف والرجاء في دعائه كمنهج لمن أراد أن يتعلم كيف يعالج ما نزل به من البلاء وفي مواطن الشدة والكرب، ينعطف عليه السلام إلى منهج جديد في تجاوز الأزمات التي تمر بها النفس الإنسانية، وهو منهج تفريج الهموم وكشف الكروب.

وبالطبع حينما يبدأ المولى أبو عبد الله عليه السلام بالخوف والرجاء فهذا يعني تحصيل الأسس النفسية والمراتب الإيمانية لغرض تحصيل مقومات السلوك الإنساني، إذ لا يخفى على القارئ ما للهموم من أثر كبير على النفس والقلب والإيمان فينعكس جميع ذلك على السلوك فيبدو الإنسان على غير الصفة المعهودة وقد تخرجه تلك الهموم والغموم عن الانضباط فيتصرف بما لا يليق به وبأسرته.

ولذلك: ينبغي التوقف أولا عند معنى الهم والغم ثم ننظر كيف انتهج المولى أبو عبد الله عليه السلام هذا المنهج الجديد في معالجة الهموم والغموم، وما هي نظريته في منشأ الهموم وعوامل تفريجها.

يقول عليه الصلاة والسلام:

«كم من همٍ يضعف فيه الفؤاد، وتقل فيه الحيلة، ويخذل فيه الصديق، ويشمت فيه العدو، أنزلته بك وشكوته إليك عمن سواك فكشفته وفرجته فأنت ولي كل نعمة ومنتهى كل رغبة»[(١)].

وللوقوف عند هذه النظرية نطرق المسائل الآتية:

---

(١) تاريخ الطبري: ج٤، ص٢٣١.

المسألة الأولى: ما هي النظرية؟ وبِمَ تختلف نظرية المعصوم عليه السلام عن نظرية غيره من الناس؟

أولا: ما هي النظرية؟

(النظرية هي تقرير يوضح قطاعا خاصا من الظواهر، ولها عدة نماذج هي:

ألف/ النظرية الفرضية، الاستنتاجية: تقوم هذه النظرية على التماسك المنطقي، منطلقة من مسلمات صحيحة، وتتألف من:

١ـ مجموعة من التعريفات للمصطلحات الحاسمة.

٢ـ مجموعة من التقريرات الفرضية المتعلقة بالعلاقات المفترضة بين الظواهر التي تمثلها المصطلحات الحاسمة.

٣ـ مجموعة من الاستنتاجات المشتقة منطقياً من التقريرات الفرضية.

باء/ النظرية الوظيفية: يقول بعض العلماء إن الاهتمام الزائد بترتيب الواقع وبناء النظريات يؤدي إلى إنهاء فعالية التفسير، وما النظرية إلا أداة مؤقتة، لذلك لا يهتمون بالإجراءات الاستنتاجية المنطقية كتركيزهم على الملاحظة القائمة بالأدلة، ويرون أن التفاعل بين الملاحظة والاستنتاجات المنطقية هام لتقدم العلم.

جيم/ النظرية الاستقرائية: تقوم على التفسير التالي: الوقائع أولاً، ثم تنبثق النظرية في تأمل دقيق لهذه الوقائع.

دال/ النموذج: يكون النموذج رسماً أو نسخة مصغرة عن الشيء الواقعي، أو قد يكون شيئا أكثر تجريداً، كالمعادلات الرياضية، أو التقريرات اللفظية أو الأوصاف الرمزية أو الخطوط البيانية.

ويرى بعض الباحثين أن النموذج والنظرية هو الشيء ذاته، لكن البعض يميز بينهما كالآتي: إن النظرية والنموذج عبارة عن مخطط مفهومي يفسر العلاقات بين المتحولات المدروسة، ولكن النموذج يتصف بالمماثلة للشيء، هذا الأمر يماثل ذاك، ويستطيع الباحث أن يتسامح في قبول أو رفض بعض الوقائع التي لا تنسجم مع الظواهر الواقعية.

ثانيا: وظائف النظرية

النظرية أداة وهدف، فهي كهدف تساعد في تفسير الظواهر بأكثر ما يمكن من الضبط وهي كأداة توفر إطاراً للملاحظة والاكتشاف، وتساعد النظرية الباحثين في:

١ـ تحديد الظواهر المناسبة: تبين النظرية نوع الوقائع التي يدرسها الباحث، لذا تقتضي منه أن يهتم بقطاعات محدودة يركز عليها انتباهه الكامل، لأن لكل موضوع يتناوله الباحث جوانب متعددة، وما لم يقم الباحث ببناء الإطار النظري لمشكلته، فإنه لن يعرف ما الذي يجب عليه أن يلاحظه من وقائع، فالنظرية توضح للباحث أي الوقائع التي ينبغي أن يهتم بها دون غيرها.

٢ـ صياغة المفهوم المنطقي للموضوع: ينشئ الباحث مفاهيم ذهنية كالتقرير والتوتر من أجل تفسير السلوك، أو النتيجة التي يلاحظها، وتسمى هذه المفاهيم بناءات منطقية أو بناءات نظرية، ومعلوم أن المفهوم هو نتاج ملاحظة مواقف عديدة، وتجريد وجه الشبه بينها، وإجراء تعميمات حولها، فالنظرية ترشد التفكير النظري والعملي، وتسهل على الباحثين معالجة الوقائع وإيصال المكتشفات.

٣ـ تصنيف الظواهر: يصعب على الباحث التعامل بكفاية مع وقائع كثيرة

ومبعثرة، فهو بحاجة لترتيب الوقائع في ميدان عمله، لذلك يقوم على إعداد إطار نظري لتصنيف الوقائع مع صياغة فرضيات تفسر هذه الوقائع.

٤ـ تلخيص الوقائع: تتراوح الخلاصات بين التعميمات البسيطة والعلاقات النظرية المعقدة، حيث يصف التلخيص مجالا محددا من الوقائع، لكن التلخيص على مستوى عال، قد يشتمل دون شك على دمج التعميمات الخبرية الأساسية في إطار نظري أكثر شمولا.

٥ـ التنبؤ بالوقائع: تساعد النظرية الباحث على التنبؤ بما يجب أن يكون قابلا للملاحظة حين لا تتوافر الوقائع، فهي أداة جيدة لإرشاد الباحثين في متابعة الظواهر.

٦ـ الكشف عن البحث اللازم: النظرية مصدر غني يزود الباحث بالأدلة المؤيدة لبحثه.

ثالثا: الفرق بين النظرية والفرضية

الفرضية بيان ذو صيغة إعلانية يشير إلى العلاقة بين متحولين، أو أكثر، وتعني كلمة بيان أن هناك تقريرا صادرا عن الباحث يدل على وجود علاقة بين متحولين، وكلمة إعلانية تعني أن الفرضية ليست سؤالاً يطرحه الباحث، وإنما هي حل مؤقت لمشكلة معلن عنها من قبل الباحث، بينما النظرية كما هو معلوم، تعني محاولة تفسير قطاع محدود من الظواهر والفرق بينهما:

١ـ الفرق الأول: يشمل اتساع قطاع الظواهر التي تنصب عليه محاولة التفسير، فالفرضية تفسر قطاعاً محدداً يشمل العلاقة بين متحولين، بينما النظرية تتسع لتفسير عدد غير محدد من العلاقات فهي أوسع من الفرضية.

٢ـ الفرق الثاني: يرتبط بالتحقيق واختبار الصحة، فالفرضية تشمل علاقة بين متحولين لتفسير قطاع صغير محدود، لذلك فالتحقيق التجريبي والصدق كبير جدا فيها، بينما النظرية بسبب اتساعها يبقى صدقها احتماليا مهما بلغ النجاح فيها)[١].

وعلى هذا نجد أن نظرية المعصوم هي عين الواقع فلا وجود للاحتمالات فيها ولا ظنون نافذة إليها فهي عين الصدق، لأنها ترتكز على فيض من سن السنن وأجراها ومن بيده مقاديرها وتصريفها، فكان علم الإمام بها علماً ربانياً (لدنّياً).

رابعا: الفرق بين نظرية المعصوم عليه السلام وغيره من الناس

ترتكز النظرية عند المعصوم عليه السلام على تفسير الظاهرة أو القانون أو القاعدة طبقاً لعين الواقع، ولذا فهي علمية لاستحالة نفوذ الاحتمال أو الظن إليها، بمعنى لا يكون بيان الإمام مستنداً على الظن أو عدم الاحاطة الكاملة والشاملة والدقيقة للسنن والقوانين والظواهر الكونية، ونقصد بالكونية جميع ما يمكن أن يدركه الإنسان ويحسه بل وحتى الأشياء التي لم يتمكن من إدراكها ومعرفتها فجميع ذلك علمه عند الإمام المعصوم عليه السلام.

وذلك أن علم المعصوم هو علم حضوري أو لدنّي قال تعالى: في معرض حديثه عن الخضر عليه السلام:

﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾[٢].

---

(١) أسس البحث في التربية وعلم النفس، د. محمد نجيب ود. محمود ميلاد: ص٤٠ـ٤٣.

(٢) سورة الكهف، الآية: ٦٥.

وقال عز وجل عن سيد الأئمة وخازن النبوة أبي القاسم محمد صلى الله عليه وآله وسلم:

﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾[1].

وفي بيانه عزّ شأنه لعلم نوح عليه السلام حينما أمره ببناء السفينة وحمل المخلوقات فيها قال له:

﴿احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾[2].

وهذا الجمع يستلزم المعرفة التامة والاحاطة الشاملة بجميع ما خلق الله تعالى؛ كي يتمكن نوح عليه السلام من حمل هذه المخلوقات بل يستلزم ذلك معرفته وعلمه بأصناف هذه المخلوقات وأجناسها أي الذكر من الأنشى حتى يتمكن من إعادة دورة الحياة على الأرض، فكم من حيوان ونبات وحشرة خلقها الله تعالى على الأرض، وحملها معه نوح عليه السلام في السفينة.

ولذا لا يمكن أن يكون فعل نوح عليه السلام بغير علم لدنّي علمه الله تعالى إياه:

﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾، بل كما أسلفنا: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾.

وعليه: تكون نظرية المعصوم عليه السلام هي عين الواقع ونظرية غيره من الخلق تبنى على مجموعة من الظنون تتفاوت في نسبها وقوتها ومرجحاتها فقد يصل هذا

---

(١) سورة يس، الآية: ١٢.

(٢) سورة هود، الآية: ٤٠.

العالم أو ذاك من خلال الدراسة والبحث إلى معرفة الحكم بنسبة محدودة تقترب أو تبتعد عن الحكم الواقعي والمطابق لعين الحق، وقد يبتعد كل البعد عن عين الواقع فتكون نظريته واهية سرعان ما يظهر فشلها حينما يأتي عالم آخر يقدم أدلته التي تكتسب أهميتها من خلال قربها من الواقع، ومن ثم إحراز نسبة من الحقيقة التي سنها الله تعالى، من هنا ذهب البعض إلى: (أن النظرية بسبب اتساعها يبقى صدقها احتماليا مهما بلغ النجاح فيها)[1].

المسألة الثانية: ما هو (الهم) و(الغم)؟ وبم يختلفان

قال اللغويون:

(الهم) هو الحزن[2]، و(الغم) هو الكرب[3].

في حين يعطي القرآن الكريم معنى دلاليا آخر يشير إلى وجود فرق مهم بينهما مع اتحادهما في الأثر النازل على القلب.

فالحزن والكرب أو الهم والغم شعوران وجدانيان يلقيان بثقليهما على القلب فيصاب بالكدورة والانقباض، ناهيك عن تعثر البال وتزلزل الخاطر.

والآيات الكريمة كثيرة في هذا الصدد فعلى سبيل الاستشهاد لبيان المعنى، قال تعالى:

﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ﴾[4].

---

(١) أسس البحث العلمي، د. محمد نجيب ود. محمود ميلاد: ص٤٣.

(٢) الصحاح، الجوهري: ج٢، ص٢٧٨.

(٣) تاج العروس، الزبيدي: ج١٧، ص٥٢٢.

(٤) سورة طه، الآية: ٤٠.

وهو إشارة إلى نبي الله موسى الكليم عليه السلام.

﴿ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾(١).

وهو نبي الله يونس عليه السلام صاحب الحوت.

والآيتان الكريمتان تدلان على وقوع أمر معين لكلا من نبي الله موسى ويونس عليهما السلام، فتسبب هذا الأمر الواقع عليهما بالغم.

بمعنى آخر: إن الغم لا يكون إلا عند نزول أمر معين ووقوع فعل يسوء صاحبه فيصاب بالغم، فنبي الله موسى عليه السلام حينما قتل نفسا أصيب بالغم، ويونس عليه السلام حينما ترك قومه وذهب مغاضبا التقمه الحوت فكان في ظلمات ثلاث فأصابه الغم بسبب هذا الأمر الواقع.

أما الهم فهو عكس الغم من حيث الوقوع والأثر النفسي، أي: أن الهم لا يكون إلا بتوقع وقوع أمرٍ سيء أو أن الإنسان ينبئ بحدوث أمرٍ سيء؛ كمن أخبره الطبيب بأن هناك وباءٌ سوف يحل بالمدينة أو أنه حينما يبلغ العشرين ستسوء حالته الصحية، أو كمن أراد السفر فيقال له: أن الطريق معرض للصوص وغيرها.

إذن: الغم هو ما يصيب القلب من انقباض وكدورة نتيجة أمرٍ واقع، والهم هو ما يصيب القلب من الحزن، والذهن من القلق.

المسألة الثالثة: اجتماع الهم والغم في بعض الأحيان فيكونان (المصيبة)

حينما خلق الله تعالى الحياة الدنيا جعلها محفوفة بالبلايا والمكاره مما يجعل البلاء يتفاوت في مراتب الشدة ويتنوع في مجاريه الحياتية، فمرة يصيب العافية،

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٨٨.

ومرة يصيب المال، وأخرى الولد وأخرى الإيمان ـ نعوذ بالله ـ من مواطن الابتلاء بالإيمان.

وقد أشار القرآن إلى كثير من هذه الابتلاءات وبين آثارها على الإنسان ونبه إلى طريقة التعامل معها ونهى عن الانزلاق في نتائجها كالجزع والتقصير والكفر وغيرها.

وفي نفس الوقت أشار القرآن الكريم إلى منزلة الفائز في هذه الابتلاءات لدرجة أنه خصهم بصلاة الرحمن جلت قدرته لاسيما في مواطن المصيبة والتي كما أسلفنا تتكون من اجتماع الهم والغم في منزل واحد، قال تعالى:

﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ (١٥٦) أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾[1].

ولشدة ما يصيب القلب من الانقباض والكدورة وانحصار الدم فيه استحق أصحاب المصائب هذه الرتبة.

أما اختلاف أنواع الابتلاءات فقد دل عليها قوله تعالى:

﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[2].

إذن:

تجتمع على الإنسان في مرحلة من مراحل حياته ابتلاءات يكون فيها الهم والغم قرينين وهو ما أشار إليه الإمام الحسين عليه السلام في دعائه.

---

(١) سورة البقرة، الآيتان: ١٥٦، ١٥٧.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٥٥.

فقد جعل للهم دلالتين وللغم دلالتين في دعاءه.

أما الهم فقد دل عليه بقوله:

«كم من هم يضعف فيه الفؤاد، وتقل فيه الحيلة»(١).

وهذا كاشف عن أمرٍ لم يقع وإنما سيقع مستقبلا وكلما كانت القرائن على قرب وقوع البلاء كلما كان الهم أعظم، وحيث إن البلاء الذي يختلج في رحم الحرب لم يقع بعد فإن الإمام الحسين عليه السلام عبر عنه من خلال الجيوش التي تجمعت من حوله فهو في هذه الحالة كان مهموما بدلالة علامتين وهما:

١ـ ضعف الفؤاد.

٢ـ قلة الحيلة.

ولأن الحرب تنبئ عن وقوع المكروه، ولمعرفته عليه السلام بما عزم عليه القوم، وبما أخبره به من قبل جده المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم عمّا سيلاقيه في أرض كربلاء على يد بني أمية، أصبح موقنا بأنه مقتول مسلوب لا محالة وهو القائل:

«كأني بأوصالي تقطعها عسلان الفلوات»(٢).

وعليه: اجتمع مع الهم، الغم وقد دل عليه أي على الغم بعلامتين وهما:

١ـ يخذل فيه الصديق

ولا يخذل الصديق إلا عند ملاحظته وملامسته لوقوع البلاء فيخذل صاحبه عندها.

---

(١) الكامل في التاريخ، ابن الأثير: ج٤، ص٦١.

(٢) بحار الأنوار للعلامة المجلسي رحمه الله: ج٤٤، ٣٦٧.

٢ــ ويشمت فيه العدو

ولا يشمت العدو الا بوقوع مكروه في خصمه. فكلتا الحالتين ـ أي خذلان الصديق وشماتة العدو ـ لا تحصل إلا عند وقوع البلاء، فيخذل الأول ويشمت الثاني، وكلاهما من حيث حجم البلاء النازل به عليه السلام واحد، أي يصبح الصديق الخاذل والعدو الشامت في رتبة واحدة من البلاء، مما يزيد في غم المؤمن.

فأين يكون المخرج عند اجتماع الهم والغم؟ وهو المصيبة.

يجيب عليه السلام على ذلك فيقول:

«أنزلته بك، وشكوته إليك، رغبة مني إليك عمن سواك»[(١)].

وهذه حالة خاصة بسيد الشهداء عليه السلام؛ إذ في الغالب يلجأ الإنسان في المصائب إلى الأهل والأخوان وينسى لعظم مصيبته اللجوء إلى الله تعالى فيلتمس من المخلوق قبل أن يلتمس من الخالق.

لكن الإمام الحسين عليه السلام يبدأ من الله تعالى وإليه يعود فلا ينزل هذه المصيبة إلا في حضرة قدسه ولا يشكو همه وغمه إلا إلى الله تعالى، وهذا يكشف عن حجم البلاء النازل به فهو بين هم ما ستوقعه الحرب من البلاء على أبنائه وعياله وأصحابه وأطفاله وبناته، وبين الغم الذي يكشف عن يقينه بما سيحل به وبأهل بيته، وهذه من خواصه الفريدة؛ إذ الداخل إلى الحرب لا يصيبه الغم وإنما الهم لأنه غير متيقن مما سيحل به فقد لا يصيبه مكروه ويعود إلى أهله سالما غانما ولذا فهو مهموم تحسبا من وقوع أذى.

---

(١) الكامل في التاريخ، ابن الأثير: ج٤، ص٦١.

بينما سيد الشهداء عليه السلام كانت نتائج الحرب كلها حاضرة أمام عينيه، بل أينما وقع نظره رأى ما يدور في هذا المكان أو ذاك من حوادث.

ولذلك لم يصب أحد من أولياء الله بمثل ما أصيب به حتى الأنبياء عليهم السلام فهم في حالة الهم في نزول البلاء وليس الغم لأنهم يرجون دفع البلاء عنهم في جميع لحظات الحرب أو البلاء، قال تعالى:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾[١].

في حين كان سيد الشهداء عليه السلام موقناً لا محالة بما سيحل به مفوضا أمره إلى الله تعالى، لأنه مأمور بالذهاب إلى هذا البلاء وتلقيه بنفس راضية مطمئنة ولطالما بيّن ذلك في يوم عاشوراء حيث قال:

«**هون ما نزل بي أنه بعين الله**»[٢].

المسألة الرابعة: علاقة الهم بالفؤاد

غالبا ما نجد الدلالة اللفظية بين أهل اللغة والقرآن مختلفة، فدلالة الفؤاد عند اللغويين هي القلب، وقيل: وسطه، وقيل: غشاء القلب، والقلب حبته وسويداؤه[٣].

والدلالة اللفظية للفؤاد في القرآن: هي الفكر[٤].

---

(١) سورة يوسف، الآية: ١١٠.

(٢) الانتصار، العاملي: ج٩، ص٦٢.

(٣) لسان العرب لابن منظور: ج٣، ص٣٢٩.

(٤) تفسير الميزان، محمد حسين الطباطبائي: ج١٢، ص٣١٢.

قال تعالى:

﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ﴾[١].

وقال تعالى:

﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[٢].

قال العلامة الطباطبائي ﷺ: (ـ والآية تشير ـ إلى مبادئ العلم الذي أنعم بها على الإنسان فمبدأ التصور هو الحس والعمدة فيه السمع والبصر، وإن كان هناك غيرهما من اللمس والذوق والشم ومبدأ الفكر هو الفؤاد)[٣].

وفي موضع آخر يشير ﷺ إلى الحكمة في ابتداء الآية الكريمة بالسمع والبصر ودورهما في اكتساب العلم ودور الفؤاد في ذلك فيقول: (افتتح سبحانه من نعمه التي أنعمها عليهم بذكر إنشاء السمع والبصر وهما نعمتان خص بهما جنس الحيوان خلقتا فيه إنشاء وإبداعا لا عن مثال سابق إذ لا توجدان في الأنواع البسيطة التي قبل الحيوان كالنبات والجماد والعناصر.

وبحصول هذين الحسّين يقف الوجود المجهز بهما موقفا جديدا ويتسع مجال فعاليته بالنسبة إلى ما هو محروم منهما اتساعا لا يتقدر بقدر فيدرك خيره وشره ونافعه وضاره ويعطي معهما الحركة الإرادية إلى ما يريده وعما يكرهه، ويستقر في

---

(١) سورة النجم، الآية: ١١.

(٢) سورة النحل، الآية: ٧٨.

(٣) تفسير الميزان، محمد حسين الطباطبائي: ج١٢، ص٣١٢.

عالم حديث طري فيه مجالي الجمال واللذة والعزة والغلبة والمحبة مما لا خبر عنه فيما قبله.

وإنما اقتصر من الحواس بالسمع والبصر ـ قيل ـ لأن الاستدلال يتوقف عليهما ويتم بهما.

ثم ذكر سبحانه الفؤاد والمراد به المبدأ الذي يعقل من الإنسان وهو نعمة بالإنسان من بين سائر الحيوان ومرحلة حصول الفؤاد مرحلة وجودية جديدة هي أرفع درجة وأعلى منزلة وأوسع مجالا من عالم الحيوان الذي هو عالم الحواس، فيتسع به أولا شعاع عمل الحواس مما كان عليه في عامة الحيوان بما لا يتقدر بقدر، فإذا الإنسان يدرك بهما ما غاب وما حضر وما مضى وما غبر من أخبار الأشياء وآثارها وأوصافها بعلاج وغير علاج، ثم يرقى بفؤاده أي بتعقله إلى ما فوق المحسوسات والجزئيات فيتعقل الكليات فيحصل القوانين الكلية، ويغور متفكرا في العلوم النظرية والمعارف الحقيقية، وينفذ بسلطان التدبر في أقطار السماوات والأرض.

ففي ذلك كله من عجيب التدبير الإلهي بإنشاء السمع والأبصار والأفئدة ما لا يسع الإنسان أن يستوفي شكره)[1].

بل الأعجب من ذلك هو خلق هذه النفس الإنسانية وما ارتبط بها من أسرار عجيبة وأدوار محيرة وأفلاك عديدة فكانت بحد ذاتها عالماً غريباً.

قال أمير المؤمنين عليه السلام:

---

(١) تفسير الميزان، محمد حسين الطباطبائي: ج١٥، ص٥٣، ٥٤.

دواؤك فيك وما تشعر | وداؤك منك وما تبصر
وتحسب أنك جرم صغير | وفيك انطوى العالم الأكبر[١]

ومن هنا أراد الإمام أبو عبد الله عليه السلام أن يظهر للناس العلاقة بين الفؤاد ـ الذي عرفته عنه الآية بأنه الفكر ـ وبين الهموم التي تضعف هذا الفكر، أي الفؤاد.

أما كيف يتم ذلك؟

فمن خلال انشغال فكر الإنسان بهذا البلاء يضعف فؤاده وينسى ذكر الله تعالى، ويرى أن مصيبته ليس لها مثيل وأنه ابتلي بما لم يُبتلَ به غيره، وكلما ازداد البلاء وعظم أمره كلما كانت النتيجة عكسية على الفكر وانشغاله وتشتت البال وشروده.

في حين يعيد الإمام عليه السلام الفؤاد إلى جادة الطريق ويرجعه إلى موطنه ومهده حينما أنزله من منزل الانشغال والاضطراب إلى منزل الأنس والطمأنينة، فقال عليه السلام:

«أنزلته بك وشكوته إليك»[٢].

أي حينما يكون الدافع في الشكوى إلى الله تعالى في نزول البلاء وتعاظمه على الإنسان، هو الرغبة إلى الله تعالى عمن سواه من الخلق فالنتيجة حتما ستكون:

«فكشفته وفرجته»[٣].

---

(١) أعيان الشيعة، محمد الأمين: ج١، ص٥٥٢. تفسير الآلوسي: ج٣٠، ص١٥٧.

(٢) الكافي للكليني: ج٢، ص٥٧٩. الإرشاد للمفيد: ج٢، ص٩٦.

(٣) تاريخ الطبري: ج٤، ص٣٢٢.

وهذا يكشف عن أمرين:

أحدهما: أن الإنسان في الشدائد والكروب والخوف والحزن يفزع إلى الأقرب والأحب لديه دون أن يدرك ذلك فهو يتصور من اللاوعي أو من اللاشعور في هذا اللجوء والالتجاء والشكوى، لاسيما وأن الإنسان في المراحل الأولى من عمره يلجأ إلى الأم ومن ثم إلى الأب أو الزوجة أو الزوج أو إلى الأخ.

وحتى في الالتجاء إلى الأخوان نرى أن البعض من حيث اللاوعي أو اللاشعور يذهب إلى الأحب إلى قلبه منهم وهذا في لحظات ورود الشدة، أما في حالة الاستقرار فقد يبحث الإنسان في هذه الحالة بوعي عن الأكفأ والآنس لحل مشكلته.

في حين نرى الإمام الحسين عليه السلام يفزع في كل كرب وشدة وهمّ ـ وهو الذي يضعف معه الفؤاد ويخذل فيه الصديق ويشمت فيه العدو ـ إلى الله تعالى رغبة منه عمن سواه، وإن هذه الرغبة من صميم الفؤاد ـ أي الفكر ـ.

وهذا يعني: أنه فزع والتجأ وشكا إلى الأقرب والأحب إلى قلبه لأن الرغبة أحد مصاديق الحب وهي شعور وجداني إنساني ينبعث من القلب فيحرك المشاعر نحو المقصد وهو الله تعالى.

والأمر الآخر:

هو الخلوص في التوحيد لله تعالى، بمعنى لم يكن في قلبه من هو أحب إليه من الله تعالى وأن جميع المتعلقات الدنيوية من الأبناء والأخوان والوالدين والأقرباء والأصحاب والمال وغير ذلك، كل هذه المتعلقات الدنيوية لم تكن تنال

الشراكة في قلبه وحبه لله تعالى، وإلا لكان قد شكا هذا الهم إلى أحد أولئك.

ولذا.. نال به الكشف والتفريج ـ أي للغم وللهم، فالكشف يكون للغم، والتفريج يكون للهم ـ وتقديمه عليه السلام هنا للغم على الهم، على الرغم من ابتداء الدعاء به فهو لما يلي:

١ـ ليقينه عليه السلام بما يؤول إليه اجتماع هذه الجيوش فهو عنده بمنزلة الغم.

٢ـ كشف الغم يعني رفع البلاء وتحقق العافية، وطلب العافية وتحصيلها أرجى للنفس من جهد البلاء، وأما الهم فمدار آثاره خارج النفس.

بمعنى: لم يقع البلاء؛ وفي هذه الحالة يكون المؤمن بين الخوف من تحقق وقوع البلاء، وبين رجاء رفعه ودفعه.

٣ـ لثقل الغم على القلب والنفس؛ ولذا: اقترن بالكشف لأنه يتناسب مع جنسه، أي سمي بالغم تشبيها بالغيوم التي تحجب الشمس والضوء عن الأرض، فإذا ذهبت الغيوم انكشفت السماء وعادت الشمس تشرق بنورها على الأرض وبها تدب الحياة.

إذن: طلبه عليه السلام للعافية أرجى عنده من انتظار وقوع البلاء وهو أقرب إلى الرجاء منه إلى الخوف، وحيث أن الرجاء أحب عند الله تعالى من الخوف كان تقديمه عليه السلام للكشف على التفريج.

ولذا.. اتبعه بقوله عليه السلام:

«فأنت ولي كل نعمة ومنتهى كل رغبة»[1].

---

(١) الإرشاد للمفيد: ج٢، ص٩٦. تاريخ الطبري: ج٤، ص٣٢٢.

أي: أن حفظ النعم التي مننت عليّ بها والتي ستمن بها، انت وليها، فإن شئت سلبتها وإن شئت أدمتها، بمعنى التسليم لما قضى الله تعالى، والرضا بما قدر له عليه السلام، لكن العافية أرجى لي من البلاء.

المسألة الخامسة: عوامل دفع الهموم والغموم

يتناول المولى أبو عبد الله الحسين عليه السلام في هذا المورد من دعائه عوامل دفع جميع الهموم والغموم، وهي كالآتي:

١ـ قوة الفؤاد

٢ـ توفر الحيلة

٣ـ وقوف الصديق ومساندته

٤ـ فقدان العدو

٥ـ الشكوى إلى الله تعالى

٦ـ اليقين بالفرج

فهذه العوامل التي تناولها الإمام في دعائه والتي أظهرت حجم هذه الهموم والغموم، أي المصائب وأثرها على النفس فهي في نفس الوقت تعد عوامل لدفع جميع أنواع الهموم والغموم.

فـ(قوة الفؤاد):

تدفع الهم من مد أنيابه ومخالبه إلى الفكر فتمنع تشتته، بل تعطي نتيجة عكسية، بمعنى: يصبح الإنسان واعياً ومدركا وعارفا بمخارج هذه الأزمة أو تلك الشدة، فينجو من هذا الكرب وهذه الشدة.

و**(توفر الحيلة)**: هي الأخرى تدفع بالهموم، لأن الهم هو ما يؤدي إلى فقدان الحيلة، بسبب تشتت الفكر أو بسبب تحقق وقوع البلاء، فيرى الإنسان نفسه لا محالة مصيبه هذا البلاء، ومثاله كمن أحاط بداره اللصوص وهو لا يملك ما يدفع به عن نفسه فيبقى محتاراً لا يدري ماذا يصنع، فإذا توفرت لديه الحيلة أي السبيل للخروج والنجاة أو دفع هذه الشدة، انكشف غمه وفرج همه.

وكذا **(وقوف الصديق)**:

فمما لا شك فيه أن حضور الصديق ووقوفه في الشدائد يدفع بقسم كبير من الهموم، وإذا قام الصديق بخذلان صديقه يتضاعف الهم على الإنسان لأنه يولد في نفسه الشعور بالوحدة ويتعاظم عنده الإحساس بالخسارة من خلال انكشاف حقيقة هذا الصديق.

ولذلك: كان أئمة أهل البيت عليهم السلام يوجهون المؤمنين إلى خطورة اتخاذ المرء صديقا لما يترتب على صحبته من فوائد وأضرار، ومما ورد في الأخبار من هذه التوجيهات الشريفة ما يلي:

١ــ روى الشيخ الكليني رحمه الله عن عبيد الله الحلبي، عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال:

«لا تكون الصداقة إلا بحدودها فمن كانت في هذه الحدود أو شيء منها فأنسبه إلى الصداقة، ومن لم يكن فيه شيء منها فلا تنسبه إلى شيء من الصداقة.

فأولها ـ أن تكون سريرته وعلانيته لك واحدة.

والثانية ـ أن يرى زينك زينه وشينك شينه.

والثالثة - أن لا تغيره عليك ولاية ولا مال.

والرابعة - أن لا يمنعك شيئا تناله مقدرته.

والخامسة؛ وهي تجمع هذه الخصال أن لا يسلمك عند النكبات»[١].

قال الشيخ مرتضى الأنصاري[٢] تَتَنُّ (توفي سنة ١٢٨١هـ): (ولا يخفى أنه إذا لم تكن الصداقة لم تكن الأخوة، فلا بأس بترك الحقوق المذكورة بالنسبة إليه)[٣].

٢- وروي عن علي أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال:

«لا يكون الصديق صديقا حتى يحفظ أخاه في ثلاث: في نكبته، وفي غيبته، وفي وفاته»[٤].

وأما **(فقدان العدو)** فهو كذلك من العوامل التي تؤدي إلى كشف الهموم، بمعنى: إذا وجد العدو وحلّ البلاء بالإنسان فإن من الأمور التي يتحسب لها المرء

(١) الكافي للشيخ الكليني رحمه الله: ج٢، ص٦٣٩، ح٦.

(٢) الشيخ مرتضى بن محمد أمين التستري الأنصاري مربي العلماء، له الكتاب المعروف بالرسائل فيما عدا مباحث الألفاظ صار عليه المعول في التدريس مع المعالم والقوانين واستدرك فيه على من تقدمه في جملة مسائل الأصول المهمة وتبعه فيها من تأخر عنه وحقق مسائله وصارت أنظاره قدوة لمن بعده وكتب عليه حواش كبيرة مدونة مطبوعة مشهورة، وجمعت عدة كتب من تقريرات بحثه في الأصول انتفع بها الناس. وللمزيد أنظر:

أعيان الشيعة: ج١، ص١٣٨. معجم المؤلفين، كحالة: ج١٢، ص٢١٦. الأعلام للزركلي: ج٧، ص٢٠١. هدية العارفين، البغدادي: ج٢، ص٤٢٥. الذريعة للطهراني: ج١، ص٢١٠. مصفى المقال: ص٤٥٥، ٤٥٦. الفوائد الرضوية، عباس القمي: ص٦٦٤، ٦٦٥.

(٣) المكاسب، الشيخ مرتضى الأنصاري: ج١، ص٣٦٨.

(٤) نهج البلاغة، الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: ص٣٣.

هي شماتة العدو حتى قد ينسيه هذا الأمر أصل البلاء الذي أصابه لما تخلفه الشماتة على الإنسان من آثار نفسية كبيرة.

وقد تحدث القرآن الكريم وأهل البيت عليهم السلام عن تلك الآثار التي تخلفها الشماتة على النفس وعلى العلاقة الاجتماعية.

١ـ قال تعالى:

﴿فَلَا تُشْمِتْ بِيَ ٱلْأَعْدَآءَ﴾[1].

٢ـ وفي وصف المتقين قال أمير المؤمنين عليه السلام:

«أوسع الناس صدرا، وأذلهم نفسا، ضحكه تبسما، وإفهامه تعلما، مذكر الغافل، معلم الجاهل، لا يؤذي من يؤذيه، ولا يخوض فيما لا يعنيه، ولا يشمت بمصيبة، ولا يذكر أحداً بغيبته...»[2].

والصفات كثيرة أوردنا مما يناسب البحث.

ومعنى الشماتة: هي فرح العدو بما يصيب الإنسان من مصيبة، وإظهار الشماتة: إظهار للفرح والسرور والبشاشة والضحك عند المصائب، وبالقول مثل الهزء والسخرية به.

وقد نهى أئمة العترة عليهم السلام عن إبداء الشماتة لما يترتب على صاحب المصيبة من آلام نفسية كبيرة، وتعاظم للخصومة والعداوة، بل إن إظهار الشماتة يعزز الاعتقاد بعداوة العدو فيجر ذلك إلى التربص والانتقام، وتحميل الآخر جريرة

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٥٠.

(٢) مستدرك الوسائل، الميرزا النوري: ج١١، ص١٧٩.

الشامت ؛ أي وقوع الظلم وتوسيع دائرة الخلافات الاجتماعية ، فينشغل الطرفان بهذه الآثار النفسية عن الواجبات الدينية والحياتية مما يدفع بالطامع والعدو الحقيقي للمسلمين بالنفوذ إلى هذه الخلافات وتعزيزها وإنهاك أطرافها إن لم تؤدّ إلى الإبادة كما يحصل في المجتمعات البدائية لقلة الوعي الديني وثقافة التسامح ونبذ الخلافات والالتفات لما هو أولى بالاهتمام ، أي إصلاح النفس والأسرة فبها تصلح الأمم.

ومما ورد عن أئمة العترة عليهم السلام من الأحاديث الشريفة في بيان خطورة الشماتة على العلاقة الاجتماعية وتكون الأمراض النفسية ، ما يلي :

١ـ فعن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال :

«من شمت بمصيبة نزلت بأخيه لم يخرج من الدنيا حتى يفتتن»[١].

٢ـ وعنه عليه السلام أيضا أنه قال :

«لا تبدِ الشماتة لأخيك فيرحمه الله ويصيرها بك»[٢].

وأما **(الشكوى إلى الله تعالى)**

فهي من أهم العوامل التي تعمل على تفريج الهموم لأنها تعيد القلب إلى وضعه الطبيعي وهو أشبه ما يكون بإرجاع السمكة إلى النهر ، أو إعادة الطفل الرضيع إلى محالب أمه ، وكذلك قلب الإنسان فإنه بالرجوع إلى الله تعالى وشكاية الهموم إليه يتحقق له الاستقرار والطمأنينة ، لقوله تعالى :

﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾[٣].

---

(١) الكافي للشيخ الكليني رحمه الله : كتاب الإيمان والكفر ، باب الشماتة ، ج٢ ، ص٣٥٩.

(٢) المصدر السابق.

(٣) سورة الرعد ، الآية : ٢٨.

بل يبين أهل البيت عليهم السلام من خلال المناجاة أن الشكوى إلى الله تعالى لا تعطي فقط الاطمئنان وتفريج الهموم وإنما تخلف حلاوة خاصة في القلب.

أي يصبح الإنسان من الشعور بالوحدة والغربة وأن لا ملجأ، ولا ناصر، ولا معين، له إلى الشعور بالأنس، والحصانة، والقوة والنصرة؛ فينتقل من تشتت الفكرة واضطراب القلب إلى حسن التدبير والسكينة.

بل: ينقلب الحال به تماما فيصبح مسروراً، ثم متلذذا بهذا البلاء؛ لأنه من فعل الحبيب وهو يحقق للقلب التواصل في الشكوى.

وهو ما أظهره الإمام الحسين عليه السلام فقال:

«رغبة مني عمن سواك»[1].

هذه الرغبة التي أصلها الحب ستظهر بتجلياتها عليه حينما يباشر البلاء فعله عليه. ولذلك كان وجهه يتلألأ كلما اشتد به البلاء، أي كان وجهه المقدس مرآة تعكس التجليات التي تصحب عروجه إلى حظيرة القدس الإلهية ونزول الفيوضات الربانية.

حتى إذا كان على رمضاء كربلاء وأوداجه تشخب دما ينتقل عليه السلام في هذه اللحظات إلى رتبة من المناجاة التي لم يبلغها ولي من الأولياء فمن كان منهم بتلك الحالة من الجراحات وتقديم الولد والأخوان والأصحاب؟.

ولذا: فقد حملت هذه المناجاة بيانا لمراتب التوحيد ودرجات اليقين ومنازل الحب ما لم تحملها مناجاة أخرى، وهي بذاك تكون كاشفة عن هذا السير الحسيني إلى الله تعالى.

---

(١) الكامل في التاريخ، ابن الأثير: ج٤، ص٦١.

إذن: نظريته عليه السلام في دفع الهموم وتفريجها تستند إلى ستة عوامل، وهي: **(قوة الفؤاد، وتوفر الحيلة، ووقوف الصديق، وفقدان العدو، والشكوى إلى الله تعالى، واليقين بالفرج وهو سنام العوامل)** فمن لا يمتلك اليقين بالفرج لم تنفعه العوامل المتقدمة في إزالة الآثار التي توجدها الهموم في القلب والفؤاد، أي فكر الإنسان، فكم من شدة بقيت آثارها النفسية والعقلية والروحية إلى سنين عديدة مع توفر بعض تلك العوامل وافتقادها إلى التعيين بأن الله المفرج لكل هم والكاشف لكل كرب وشدة، بل لا ينتفع المبتلى بالشكوى إلى الله تعالى لكونه غير موقن بأن الله تعالى يفرج عنه.

المبحث الخامس: دور الدعاء في التربية الروحية

المسألة الأولى: التلازم بين أركان الدعاء

ينقسم دعاء الإمام الحسين عليه السلام في صبيحة يوم عاشوراء على عشرة أركان شكلت بمجموعها منهجا تربويا وروحيا يعلّم المؤمن كيفية التوجه إلى الله تعالى وكيفية عرض حاجته وضوابط هذا الخطاب، وإحراز ثمرته، وهي القرب الإلهي فهو: الغاية المرجوة من الابتلاء وهو السبب الداعي لعبادة الله بالدعاء، حتى عد **(مخ العبادة)**[1].

وحينما نتأمل في دعاء الإمام الحسين عليه السلام في صبيحة يوم عاشوراء، نجد له خصوصية خاصة تمثلت بهذا الكم الكبير من العلوم والمعارف الأخلاقية والنفسية والتربوية فضلاً عن الخصوصية الولائية بصفته يكشف عن غربة المولى صلوات الله وسلامه عليه وتعاظم الظلم، وكثرة أعدائه، وقلة ناصريه.

---

(١) مصباح المتهجد، الشيخ ا لطوسي: صفحة المقدمة ٤.

كما أن كلماته تشعر قلب الإنسان بالحزن والأسى، بل وتعتصره تلك الكلمات التي ترددت من قبل على لسان جده المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم حينما ذهب إلى الطائف بعد فقدان الناصر، ورحيل المحامي، والمدافع، والذاب عنه، وهو عمه أبو طالب رضوان الله تعالى عليه(١).

وكذا هو حال ولده وريحانته وسبطه الإمام الحسين عليه السلام فقد تلفظ بهذه الكلمات حينما رأى الجيوش تجمعت من حوله في أول ساعات الصباح من يوم العاشر من المحرم.

ولذلك: زخر هذا الدعاء ـ ولهذا الظرف الخاص ـ بجملة من المعارف الإلهية والأخلاقية والتربوية والتي منّ الله علينا ببيان بعضها ونلتمس من أهل الفضل والعلم المزيد في بيانها.

أما أركان هذا الدعاء فقد بلغت عشرة أركان، وهي كالآتي:

الركن الأول: التوجه إلى الله تعالى بجميع الجوارح

وهذا دليل الحب، فالإنسان حينما يلقى من يحب فإنه يتوجه إليه بكله بقلبه ووجهه وحواسه وفكره، وكلما عظم الحب وارتفعت درجته في القلب كلما انصرف الإنسان إلى هذا الحبيب حتى لا يرى ولا يسمع غير حبيبه.

وهنا: يظهر الإمام صلوات الله وسلامه عليه هذا النوع من التربية الروحية فيتوجه إلى الله تعالى بكله ـ أي بجميع جوارحه فيبدأ بقوله:

«اللهم أنت ثقتي في كل كرب، ورجائي في كل شدة».

فبين الثقة والرجاء مراتب يسلكها المحب في التقرب إلى من يحب.

---

(١) بحار الأنوار للعلامة المجلسي رحمه الله: ج٢٢، ص٢٦١، ح٢.

وقد ورد في الأثر عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، أنه قال:

«**إن الله لا يستجيب الدعاء من قلب لاه**»[(١)].

فيبتدئ بالثقة وهي صفة تتولد عند الإنسان من خلال اطمئنان القلب وقطع العقل، بمعنى: أنه توجه إلى الله تعالى بقلب مطمئن وعقل قاطع بأن الله محل ثقته ثم يعود إلى القلب ـ بصفته محل نظر الله تعالى فيرتقي في رتبة الرجاء ليتوجه بهذا القلب إلى الله تعالى بمعنى: التوجه بالنواة والجوهر.

الركن الثاني: الابتداء بالحمد والثناء

بعد أن توجه الإمام الحسين عليه السلام بجميع جوارحه إلى الله تعالى انتقل إلى ركن آخر من أركان دعائه وهو حمد الله عز وجل والثناء عليه وهذا يدلل على إظهار الربوبية وأنه المستحق للحمد من عباده، وهذه الرتبة وإن لم تظهر في كلمات الدعاء بلفظ (الحمد لله) إلا أنها دلت عليها (**أنت ثقتي**) فمن وثق بشيء حمده وأثنى عليه ورأى أنه يستحق منه ذلك.

ولذا يذكرها الإمام مرتين (**اللهم أنت ثقتي**)، (**وأنت لي في كل أمر نزل بي ثقة وعدة**).

الركن الثالث: تقديم ذكر المنعم على طلب النعمة

بعد التوجه لله تعالى وحمده، ينتقل الإمام الحسين عليه السلام إلى تقديم ذكر المنعم على طلب النعمة، بوصفها ـ النعمة ـ بيد صاحبها الذي جاد بها على العبد

---

(١) حينما توفي أبو طالب عليه السلام نزل جبرائيل عليه السلام على النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقال: (يا محمد أخرج فقد مات فيها ناصرك)، أنظر: تاريخ بغداد للخطيب البغدادي: ج٥، ص١١٨، ح٢٥٢٠.
جامع السعادات، محمد مهدي النراقي: ج٣، ص٢٩٣.

فيلزم تأدبا أن يقدم ذكر صاحب النعمة ومالكها على ذكر نفس النعمة، كمن يريد نعمة العافية، فعليه تقديم ذكر صاحب العافية قبل ذكر العافية.

وعلى من أراد الذرية فعليه تقديم واهب الذرية على الحاجة.

كما في قوله تعالى:

﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾[١].

فالتربية القرآنية للدعاء قدمت ذكر المنعم (ربي) على ذكر النعمة وهي الذرية.

ومن معنى الوحي القرآني يربينا الإمام الحسين عليه السلام على التأدب في الخطاب مع الله تعالى ولذا نراه ـ بأبي وأمي ـ قدم (**أنت ثقتي**)، (**ورجائي**)، (**وأنت لي في كل أمر نزل بي ثقة وعدة**)، بعدها يعرض حاجته فيقول: (**كم من همٍ يَضْعفُ فيه الفؤاد**)، (**وتقلّ فيه الحِيلة**)، (**ويَخذُلُ فيه الصّديق**)، (**ويشمت فيه العدوّ**).

الركن الرابع: عرض الافتقار إلى المنعم

في هذا الركن: (إظهار الافتقار إلى المنعم) قضية في غاية الأهمية؛ إذ قد يدعو الإنسان ربه وقلبه يحادثه بالذهاب إلى الأسباب كالتداوي في المراكز الطبية وغيرها.

في حين يلزم في الدعاء إظهار الافتقار بصدق لا تشوبه هواجس بامكانية اللجوء إلى المسببات فيخرج عندها الطلب من المصداقية إلى المراوغة فلا ينال ما يطلب، في حين نجد أن الدعاء الأول للإمام الحسين عليه السلام يغلب عليه الافتقار إلى الله تعالى.

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٨٩.

الركن الخامس: التعبد بالخوف والرجاء

وهذا الأمر مرّ تفصيله بشكل كافٍ، وهو يشير إلى ضرورة اشتمال الدعاء على جناحي العروج إلى الله تعالى بالخوف والرجاء.

الركن السادس: الدخول في الحاجة والمسألة وتوجيه القصد إليهما

بعد هذه المراحل ينتقل الإمام الحسين عليه السلام إلى الدخول في عرض الحاجة وبيان المسألة فيسوقهما بنسق واحد دلالته عظم الحاجة عند العبد وتصاغرها بين يدي الله تعالى، ولذا قال (أنزلته بك وشكوته إليك).

الركن السابع: العودة بعد عرض الحاجة إلى حمد المنعم سبحانه وتعالى

يعود الإمام الحسين عليه السلام إلى حمد الله تعالى بعد بيانه لحاجته ومسألته والغرض من ذلك بيان الاعتقاد بقدرة الله تعالى على قضاء هذه الحاجة، فقال عليه السلام :

«رغبة مني إليك عمن سواك».

الركن الثامن: اليقين بالاستجابة

لابد للمؤمن حينما يتوجه إلى الله تعالى بالدعاء أن يكون هذا التوجه مبنياً على يقينه بأن الدعاء مقرون بالاستجابة، وأن الله تعالى مع كونه يستجيب، هو أيضا قادر على إمضاء ما يسأله العبد.

ولذلك نجده عليه السلام يقطع يقينا بقدرة الله تعالى على خلاصه وتحقيق حاجته فيقول عليه السلام :

«فكشفته وفرجته».

أي حاصل لديه القطع بإمضاء هذا الطلب وإنفاذ هذه المسألة.

الركن التاسع: إظهار المعرفة بصفات الله تعالى

وهنا يكون بياناً لرتبة أهل العلم فمن يدعو الله وهو عارف وفاهم لتلك الصفات الإلهية غير الذي يتلفظ بما لا يعي ويدرك.

ومن هنا: تظهر الحاجة إلى الالتجاء إلى أدعية النبي الأكرم وعترته عليهم السلام لأنها تضع الألفاظ في مواضع دلالاتها مع ما يناسبها من المصاديق فمن طلب العافية لا يتبعها بقوله وأنت شديد العقاب، فهذه لها مصداق خاص ينحصر في الدعاء على الظالمين والكفار والمنافقين، ولذا نراه قال في خاتمة دعائه:

«**فأنت ولي كل نعمة، وصاحب كل حسنة، ومنتهى كل رغبة**».

الركن العاشر: الانصراف من الدعاء يكون مصحوبا بإظهار حب الله عز وجل

مثلما ابتدأ الإمام الحسين عليه السلام دعاءه بحب الله تعالى كذلك يختمه بحبه عز وجل، وهو كاشف عن الشوق في مواصلة الحضور بين يدي الله تعالى، فمن أحب شيئاً حزن لمفارقته ورغب في وصاله، وأنس بقربه.

ولذا اختتم كلماته بإظهار مكان الحب الذي تغلغل في كل ذرات وجوده؛ بل يظهر عليه السلام أن الله تعالى هو غاية كل رغبة، ولذا كانت آخر كلماته:

«**ومنتهى كل رغبة**».

فيبدأ بالحب الإلهي ويختم به.

فهذا المنهج في التربية الروحية والإيمانية الذي اختزنه دعاء الإمام الحسين عليه السلام في صبيحة يوم عاشوراء يعلمنا كيف يكون توجهنا ودعاؤنا إلى الله تعالى، ويعلمنا كيف نتنقل بين أركان هذا اللون من العبادة التي قدمها الإمام الحسين عليه السلام في يوم عاشوراء.

المسألة الثانية: دوام السياق التأدبي في الخطاب مع الله تعالى

مما لا شك فيه أن الإمام الحسين عليه السلام يمثل الجانب العملي لسنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فحينما يقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

«أدبني ربي فأحسن تأديبي»[(١)].

فإن الإمام الحسين عليه السلام أدبه جده النبي الأعظم فأحسن تأديبه ـ علماً أن أصل التأديب واحد وهو الخلق القرآني والتأدب به.

ومن هنا: فإنّ من أجلى مظاهر الخلق القرآني والنبوي والتأدب بهما هو العلاقة مع الله تعالى، ومن مظاهر هذه العلاقة هي الدعاء، وقوام الدعاء إنما يكون بالألفاظ التي اشتمل عليها، أي كيما نتعرف على آداب العلاقة مع الله تعالى وكيفية التأدب بهذه الآداب، فينبغي بنا التعرف على هذه المعاني والدلائل التي حملتها بنية الألفاظ.

وفي هذا الدعاء الذي ابتدأ به الإمام الحسين عليه السلام أدعيته في يوم عاشوراء يظهر لنا دوام السياق التأدبي في الخطاب مع الله تعالى من خلال الشواهد الآتية.

أولا: اختصاص مقاطع الدعاء منذ البداية وحتى النهاية بمظاهر الحب الإلهي

وهذه المظاهر تبدو واضحة في كلمات الدعاء: **(اللهم، أنت ثقتي، ورجائي، أنت لي، ثقة وعدة، أنزلته بك، شكوته إليك، رغبة مني إليك، فأنت ولي كل نعمة، وصاحب كل حسنة، ومنتهى كل رغبة).**

فكلها مراتب لإظهار الحب الإلهي حتى تكاد تختفي الحاجة وتضمر المسألة، فقد انشغل الإمام بحب الله عن مسألته وحاجته وتجمع الجيوش من حوله فهو لم

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد المعتزلي: ج١١، ص٢٣٣.

يقل نجني، أو أقلني، أو خلصني؛ ولم يسأله عن ولده، ونسائه، وأصحابه، وماله، على علمه أنهم كلهم معرضون للخطر والبلاء كل ذلك لم يكن حاضرا في دعائه سوى تلك القيم الروحية والتجليات الإيمانية في إظهار الحب الإلهي.

ثانيا: إظهار مراتب المعرفة بالله في جميع مقاطع الدعاء

فالإمام الحسين عليه السلام يكشف من خلال هذا الدعاء عن مجموعة من المعارف في التوحيد، إذ انعطف عليه السلام بعد بيان إقراره بالتوحيد بما يحمله لفظ (اللهم) من الاعتقاد والخلوص لله عز وجل يتبعه الإمام بالرجاء ثم بالتسليم ثم الرضا ثم الرجوع إلى التوحيد.

ففي مقام التسليم يقول عليه السلام: «فأنت ولي كل نعمة» وهذا يكشف عن التسليم المطلق لما يتخذه صاحب النعمة من قضائه لما وهب من نعم فهو صاحبها ووليها فإن أبقاها وأدامها فله الحمد والفضل والمنة، وإن سلبها، فلا اعتراض عنده، بل هو عين التسليم، لأن الله سبحانه هو المالك والواهب، إلا أن بقاءها أرجى للعبد من سلبها وإلا لما أعطاها الله ووهبها لعبده، ولما سأل العبد ربه بقاءها وحفظها.

أما في مقام الرضا فإنه يعرض لهذا المقام في قوله:

«وصاحب كل حسنة»[١].

أي أنا لا أملك حق التنظير فيما هو صالح لي وضار، كما لا يحق لي القبول أو الرفض بما تقدر يا رب، لأن العبد غير عارف بعواقب الأمور وخواتيم الأعمال ولذا فهو مطلق الرضا لما يقضي الله ويقدر لأنه لا يقضي إلا بالحق، ولا يختار إلا الصالح لعبده. وهذا وذاك، أي: التسليم لقضاء الله تعالى، والرضا بما قدر؛ هو من أصدق مظاهر الخلوص في الوحدانية لله تعالى ولطالما كان يردد عليه السلام في يوم عاشوراء:

---

(١) الكامل في التاريخ، ابن الأثير: ج٤، ص٦١.

«**رضا بقضائك لا معبود سواك**»[(١)].

لأنه صاحب كل حسنة، وهو عليه السلام يرى كل شيء حسن من الله تعالى، وهل يرى الحبيب كل ما يبدر من حبيبه بمظهر غير حسن وهل ينال منه غير الرضا والقبول بما يصدر عنه. ولذا: يختم دعاءه بقوله عليه السلام:

«**ومنتهى كل رغبة**».

فهو مقام الخلوص في التوحيد وهو التجرد التام عن جميع العوالق الدنيوية وما حفت به من نعم لاسيما نعمة الوجود التي تعد أوجب النعم حفظا وصونا ورعاية.

فالرغبات التي تخالج النفس الإنسانية كثيرة منها متعلقة بالنعم التي أحاطت بالإنسان ابتداء من نعمة الحياة مروراً بنعمة الذرية ونعمة الزوجة والأهل ونعمة الأصحاب ونعمة المال وغيرها.

وأما التي تدفع النفس للجوء والمسألة لغير الله فكثيرة أيضا فكم يرغب الإنسان بأن يذهب في الشدائد والكروب والهموم إلى فلان وفلان وفلان من الناس، أو إلى تلك الجهة أو أنه يسأل هذا ويرجو ذاك ويلتمس منهم حاجته وقضاء طلبته.

إلا أن الإمام الحسين عليه السلام يقدم لنا معنى آخر للتوجه بهذه الرغبات وهذه الجهات فيشير إلى الله تعالى فهو **(منتهى كل رغبة)** فلا تشرّق ولا تغرّب فعودك إلى الله تعالى.

كما يظهر عليه السلام ــ وهذا خاص به ــ إن كل هذه الرغبات منتهاها إلى الله تعالى، فلا رغبة الحياة والبقاء، ولا رغبة الذرية، ولا الأهل والأصحاب، والمال، بمقدمة على الرغبة في لقاء الله تعالى. ولذلك: أعطى كل شيء لله عز وجل وأعطاه الله كل شيء؛ فما جزاء الإحسان إلا الإحسان.

---

(١) من أخلاق الإمام الحسين عليه السلام، عبد العظيم المهتدي البحراني: ص١٤.

الموضع الثاني: من أدعيته عليه السلام قبل البدء بالقتال

دعاؤه عليه السلام على جيش عمر بن سعد

بعد أن أتم الإمام الحسين عليه السلام دعاءه الأول الذي استقبل به هذه الآلاف من الجند وبعد انكشاف الضوء، (أقبل عمر بن سعد نحو الحسين عليه السلام في ثلاثين ألفا وكان رؤساء الأرباع بالكوفة يومئذ: عبد الله بن زهير بن سليم الأزدي على ربع أهل المدينة، وعبد الرحمن بن أبي سبرة الحنفي على ربع مذحج وأسد؛ وقيس بن الأشعث على ربع ربيعة وكندة، والحر بن يزيد الرياحي على ربع تميم وهمدان[١]؛ وكلهم اشتركوا في حرب الحسين إلا الحر بن يزيد الرياحي.

وجعل ابن سعد على الميمنة عمرو بن الحجاج الزبيدي، وعلى الميسرة شمر بن ذي الجوشن العامري، وعلى الخيل عزرة بن قيس الأحمسي، وعلى الرجالة شبث بن ربعي، والراية مع مولاه ذويد[٢].

وأقبلوا يجولون حول البيوت فيرون النار تضطرم في الخندق، فنادى شمر بأعلى صوته: يا حسين تعجلت بالنار قبل يوم القيامة، فقال الحسين من هذا؟ كأنه شمر بن ذي الجوشن! قيل: نعم، فقال عليه السلام:

«يا ابن راعية المعزى أنت أولى بها صليا»[٣].

وأراد مسلم بن عوسجة أن يرميه بسهم فمنعه الحسين عليه السلام وقال أكره أن

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد المعتزلي: ج١، ص٨١، ط مصر.

(٢) الإرشاد للشيخ المفيد رحمه الله: ج٢، ص٩٥.

(٣) تاريخ الطبري: ج٤، ص٣٢٢.

أبدأهم بقتال[١]. ثم دعا براحلته فركبها ونادى بصوت عال يسمعه جلهم:

«أيها الناس اسمعوا قولي ولا تعجلوا حتى أعظكم بما يحق لكم علي، وحتى أعتذر إليكم في مقدمي هذا وأعذر فيكم، فإن قبلتم عذري وصدقتم قولي وأعطيتموني النصف من أنفسكم كنتم بذلك أسعد، وإن لم تقبلوا مني العذر ولم تعطوني النصف من أنفسكم فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ثم اقضوا إلي ولا تنظرون، إن وليي الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين»[٢].

وبعد الخطبة أناخ راحلته وأمر عقبة بن سمعان فعقلها.

ثم خرج لوعظ القوم زهير بن القين، وبعده برير بن خضير فلم يستجيبوا لهما. ثم أن الحسين عليه السلام ركب فرسه وأخذ مصحفا ونشره على رأسه ووقف بإزاء القوم وقال:

«يا قوم إن بيني وبينكم كتاب الله وسنة جدي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم»[٣].

ثم استشهدهم من نفسه المقدسة وما عليه من سيف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولامته وعمامته فأجابوه بالتصديق فسألهم عما أقدمهم على قتله؟ قالوا: طاعة للأمير عبيد الله بن زياد. فقال عليه السلام:

«تبا لكم أيتها الجماعة وترحا وبؤسا لكم! حين استصرختمونا

---

(١) بحار الأنوار للعلامة المجلسي رحمه الله: ج٤٥، ص٥. اللهوف في قتلى الطفوف لابن طاووس: ص٦٠. العوالم للشيخ البحراني: ص٢٥٣. لواعج الأشجان، محسن الأمين: ص١٢٣.

(٢) إبصار العين في أنصار الحسين عليه السلام، الشيخ محمد السماوي: ص٣٢.

(٣) معالم المدرستين، السيد مرتضى العسكري: ج٣، ص١٠٠.

ولهين، فأصرخناكم موجفين، فشحذتم علينا سيفا كان في أيدينا، وحمشتم علينا نارا أضرمناها على عدوكم وعدونا، فأصبحتم إلبا على أوليائكم، ويدا على أعدائكم من غير عدل أفشوه فيكم، ولا أمل أصبح لكم فيهم، ولا ذنب كان منا إليكم، فهلا لكم الويلات إذ كرهتمونا والسيف مشيم، والجأش طامن، والرأي لم يستحصف ولكنكم أسرعتم إلى بيعتنا كطيرة الدبا، وتهافتم إليها كتهافت الفراش، ثم نقضتموها سفها وضلة، فبعدا وسحقا لطواغيت هذه الأمة! وبقية الأحزاب، ونبذة الكتاب، ومطفئي السنن، ومؤاخي المستهزئين، الذين جعلوا القرآن عضين، وعصاة الإمام، وملحقي العهرة بالنسب، ولبئس ما قدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم وفي العذاب هم خالدون. أفهؤلاء تعضدون، وعنا تتخاذلون!! أجل والله، خذل فيكم معروف، نبتت عليه أصولكم، واتذرت عليه عروقكم، فكنتم أخبث ثمر شجر للناظر، وأكلة للغاصب، ألا لعنة الله على الظالمين الناكثين الذين ينقضون الأيمان بعد توكيدها وقد جعلوا الله عليهم كفيلا، ألا وإن الدعي ابن الدعي قد تركني بين السلة والذلة وهيهات له ذلك مني! هيهات منا الذلة! أبى الله ذلك لنا ورسوله والمؤمنون. وحجور طهرت وجدود طابت، أن يؤثر طاعة اللئام على مصارع الكرام، ألا وإنّي زاحف بهذه الأسرة على قلة العدد، وكثرة العدو، وخذلة الناصر».

ثم تمثل فقال:

فإن نهزم فهزامون قدما ... وإن نهزم فغير مهزمينا
وما أن طبنا جبن ولكن ... منايانا ودولة آخرينا

فلو خلد الملوك إذا خلدنا ولو بقي الكرام إذا بقينا

فقل للشامتين بنا أفيقوا سيلقى الشامتون كما لقينا[(١)]

«اما والله لا تلبثون بعدها إلا كريث[(٢)] ما يركب الفرس حتى تدور بكم دور الرحى وتقلق بكم قلق المحور[(٣)] عهد عهده إلي أبي عن جدي فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ثم اقضوا إلي ولا تنظرون.

﴿ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴾[(٤)].

إني توكلت على الله ربي وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم اللهم احبس عنهم قطر السماء وابعث عليهم سنين كسني يوسف وسلط عليهم غلام ثقيف[(٥)] يسقيهم كأسا مصبرة ولا يدع فيهم أحدا إلا قتلة بقتلة وضربة بضربة ينتقم لي ولأوليائي وأهل بيتي وأشياعي منهم فإنهم غرونا وكذبونا وخذلونا وأنت ربنا عليك توكلنا واليك أنبنا واليك المصير»[(٦)].

---

(١) الاحتجاج، الطبرسي: ج٢، ص٢٥. مثير الأحزان، ابن نما الحلي: ص٤٠. بحار الأنوار للعلامة المجلسي ﵀: ج٤٥، ص٩. تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر: ج١٤، ص٢١٩. ترجمة الإمام الحسين عليه السلام من تاريخ ابن عساكر: ص٣٢١. شرح إحقاق الحق، آية الله السيد المرعشي: ج١٩، ص٤١٧.

(٢) كمقدار (منة).

(٣) المحور كمنبر العود الذي تدور عليه البكرة وربما كان من حديد (منه).

(٤) سورة الأعراف، الآية: ١٩٥.

(٥) هو المختار بن أبي عبيدة الثقفي رضي الله عنه.

(٦) اللهوف في قتلى الطفوف، ابن طاووس: ص٦٠. بحار الأنوار للعلامة المجلسي ﵀: ج٤٥، ←

مباحث الدعاء:

المبحث الأول: أسباب الدعاء

حينما قام الإمام الحسين عليه السلام بوعظهم وتذكيرهم بعذاب الله ووجوب صون حرمة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وحفظ ولده وسبطه، فلم يجد فيهم من يتعظ بقوله ولم يلمس في أحدهم الخوف من الله تعالى، بل على العكس أصبح إصرارهم على قتله وسفك دمه أمضى في نفوسهم من ذي قبل، ولذا: قام فدعا عليهم أجمعين.

وعليه: فقد استوجبوا العذاب فكان أول هذا العذاب هو دعاء حجة الله تعالى عليهم أجمعين.

أما ظواهر هذا الإصرار الذي استحقوا به العذاب الإلهي، فهي كالآتي:

أولا

إنه قام بدفع الغموض عنهم وإزال الشبهة وكشف الغفلة من خلال وسائل بيانية عديدة وهي كما يلي:

ألف. تعريفه بنفسه وانتسابه لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، قائلا:

«أما بعد: فانسبوني فانظروا من أنا، ثم ارجعوا إلى أنفسكم وعاتبوها، فانظروا هل يصلح لكم قتلي وانتهاك حرمتي؟ ألست ابن

ص١٠. العوالم، البحراني: ص٢٥٣. لواعج الأشجان، السيد محسن الأمين: ص١٣٢. معالم المدرستين، السيد مرتضى العسكري: ج٣، ص١٠١. ينابيع المودة، القندوزي: ج٣، ص٧٧. شرح إحقاق الحق، آية الله العظمى السيد المرعشي: ج١١، ص٦٢٥.

بنت نبيكم، وابن وصيه وابن عمه وأول المؤمنين المصدق لرسول الله بما جاء به من عند ربه، أوليس حمزة سيد الشهداء عمي؟ أوليس جعفر الطيار في الجنة بجناحين عمي؟».

باء . تعريفه لهم بمنزلته الشرعية، فقال عليه السلام:

«أو لم يبلغكم ما قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لي ولأخي: هذان سيدا شباب أهل الجنة»[١].

جيم . دفعه لشبهة عدم سماعهم حديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيه وفي أخيه الحسن عليهما السلام، فقال:

«وإن كذبتموني فإن فيكم من لو سألتموه عن ذلك أخبركم، سلوا جابر بن عبد الله الأنصاري وأبا سعيد الخدري وسهل بن سعد الساعدي وزيد بن أرقم وأنس بن مالك، يخبروكم أنهم سمعوا هذه المقالة من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لي ولأخي، أما في هذا حاجز لكم عن سفك دمي؟!».

دال . وهنا أراد عليه السلام دفع شبهة الخروج الشرعي لقتاله، من خلال الاجتهادات المنحرفة التي وسمت تحرك الإمام الحسين عليه السلام بالخروج على الأمة ولذا: فإن كثيراً منهم زحفوا وهم يعتقدون تحصيل رضا الله والفوز بالجنة، أي إنهم خرجوا للجهاد الذي هو باب من أبواب الجنة.

ومن هنا: أراد الإمام الحسين عليه السلام كشف هذه الشبهة العقائدية وإظهار بطلانها وضلالها فكيف لمن أراد الجنة أن يقدم على قتل سيد شباب أهل الجنة؟!!

(١) تاريخ الطبري: ج٤، ص٣٢٢.

إلا اللهم أن تكون هناك جنتان واحدة جاء بها القرآن الكريم ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهذه سيد شبابها الحسن والحسين عليهما السلام، والجنة الثانية جاء بها بنو أمية وأسيادها أبو سفيان وابنه وحفيده ومروان بن الحكم وولده!!.

وهذه الجنّة لا يعرفها الله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم ولم يخلقها بل خلق:

﴿لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾[1].

ولذلك أراد شمر بن ذي الجوشن أن يذر الرماد في العيون كمحاولة فاشلة في صرف الأذهان عن هذه الكلمات التي جردت الجيش من أهم عناصر تجمعه إلا وهو العنصر العقائدي.

فقال تعقيبا على كلام الإمام الحسين عليه السلام: (هو يعبد الله على حرف إن كان يدري ما يقول).

فرد عليه حبيب بن مظاهر الأسدي: (والله إني لأراك تعبد الله على سبعين حرف، وأنا أشهد أنك صادق ما تدري ما يقول قد طبع الله على قلبك).

هاء. دفع الشكوك في معرفتهم لقربه من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

فقال:

«فإن كنتم في شك من هذا أفتشكون أني ابن بنت نبيكم فوالله ما بين المشرق والمغرب ابن بنت نبي غيري فيكم ولا في غيركم»[2].

---

(١) سورة الكهف، الآية: ٢٩.

(٢) الإرشاد للشيخ المفيد رحمه الله: ج٢، ص٩٨.

واو . دفع حجة قدومه لأخذ القصاص بوقوع الجناية فقال عليه السلام :

«ويحكم أتطلبوني بقتيل منكم قتلته؟! أو مال لكم استهلكته؟ أو بقصاص من جراحة؟».

«فأخذوا لا يكلمونه».

وسبب سكوتهم بأجمعهم قادة للجند، وزعماء عشائر، وجنوداً إنما هو لإسقاط الحجة من أيديهم؛ لأن اجتماعهم هذا يستند إلى أحد هذه الأسباب الثلاثة:

١ ـ سبب شرعي يقتضي الخروج والجهاد، وقد أظهر الإمام فساده وبطلانه.

٢ ـ سبب عرفي عشائري يقتضي الخروج لأخذ الثأر من القاتل، وهذا لم يحصل فلم يكن عليه السلام قد قتل منهم أحداً على الرغم من اختلاف عشائرهم وهو الحال نفسه في أمر القصاص من جراحة.

٣ ـ سبب مادي يقتضي استرجاع مال مأخوذ، وهو لم يقع أيضا.

فحينما لم يكن هذا الخروج والتجمع يستند إلى هذه الأسباب فهو يعد ظلما وعدواناً، فكيف إذا أضيف إليه أنهم قدموا لحرب رجلٍ هو من أهل بيتٍ قد أوجب القرآن مودتهم واتباعهم.

أي؛

انقلب السحر على الساحر، فأصبح هذا التجمع خروجاً على القرآن ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ومحاربة لهما.

قال تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُوا۟ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾[1].

وقوله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ﴾[2].

وقوله عزّ وجلّ:

﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾[3].

وقال سبحانه وتعالى:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾[4].

ناهيك عن أن هذه الجموع التي أحاطت بابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأطفاله وإنزال الأذى والخوف والذعر بهم لاسيما أولئك الأطفال الذين أهالهم صوت الطبول وقرقعة السلاح وهم على تلك المنزلة الخاصة من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والقرابة القريبة منه لا شك أن ذلك قد آلمه صلى الله عليه وآله وسلم أشد الألم وآذاه أيما أذى.

(١) سورة المجادلة، الآية: ٥.

(٢) سورة المجادلة، الآية: ٢٠.

(٣) سورة النساء، الآية: ١١٥.

(٤) سورة الأنفال، الآية: ١٣.

وقد قال تعالى في محكم التنزيل:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا﴾[١].

ثانيا

إظهاره عليه السلام لنفاقهم وكذبهم فقد كتبوا إليه مستغيثين به لكشف ظلم الحاكم الأموي وولاته ثم زحفوا إليه يقاتلونه، فأي ظلم هذا؟!

ولذلك؛

حينما لم يسمع منهم رداً على بيانه لزيف دعواهم الجهادية، والعرفية، والقضائية انتقل إلى دليل آخر يكشف حقيقة نفوسهم وعلة قدومهم إلى كربلاء بهذه الآلاف المؤلفة، فنادى:

«يا شبث بن ربعي، يا حجار بن أبجر، يا قيس بن الأشعث، يا يزيد بن الحارث، ألم تكتبوا إلي أن قد أينعت الثمار وأخضر الجناب، وإنما تقدم على جند لك مجنّدة؟!»[٢].

فقالوا له: لم نفعل. فقال عليه السلام:

«سبحان الله، بلى والله لقد فعلتم»[٣].

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٥٧.

(٢) بحار الأنوار للعلامة المجلسي رحمه الله: ج٤٥، ص٧.

(٣) تاريخ الطبري: ج٤، ص٣٢٣. مقتل الإمام الحسين عليه السلام لأبي الأزدي: ص١١٩. معالم المدرستين، السيد مرتضى العسكري: ٣، ص٩٧.

ثالثا

تعريتهم من جميع الأعذار وبيان حقيقة قدومهم، أي استخراج الأفعى من جحرها، وسوف يمر علينا من خلال أسلوب الإمام الحسين عليه السلام في الحوار ـ وهو أسلوب لا يمتلكه إلا من اختاره الله تعالى لدينه وشرعه ـ وكيف سيضطر هؤلاء إلى التكشير عن أنيابهم ونفث سمومهم.

فهذا التدرج في إلقاء الحجة وتجريد الآخر من ادّعاءاته وإظهار حقيقة نفسه وخلقه ثم دفعه إلى الإقرار والبوح بنيته وظهوره بمظهره الحقيقي هو مما اختص الله تعالى به أهل هذا البيت عليهم السلام.

ولذا:

حينما أنكروا أنهم قد كتبوا إليه عليه السلام جاءهم بما يجبرهم على البوح بحقيقة أمرهم.

فقال عليه السلام:

«أيها الناس إذا كرهتموني فدعوني أنصرف عنكم إلى مأمن من الأرض؟»[1].

فقال له قيس بن الأشعث ـ وهو أحد أبرز عصابة النفاق في الكوفة ـ: «أولا تنزل على حكم بني عمك؟ فإنهم لن يُروك إلا ما تحب ولن يصل إليك منهم مكروه»[2].

سبحان الله، كيف نطق أحد أعضاء المؤامرة بالبوح صراحة عن خطتهم

---

(١) تاريخ الطبري: ج٤، ص٣٢٣.

(٢) المصدر السابق.

وعزمهم على قتله عليه السلام، ولذلك نرى أن الإمام الحسين عليه السلام قد رد عليه بما يؤكد لهم معرفته بحقيقة نفوسهم وما عزموا على فعله، فقال عليه السلام له:

«أنت أخو أخيك؟ أتريد أن يطلبك بنو هاشم أكثر من دم مسلم بن عقيل؟ لا والله لا أعطيكم بيدي إعطاء الذليل ولا أفر فرار العبيد. عباد الله إني عذت بربي وربكم أن ترجمون، أعوذ بربي وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب».

وهنا:

وبعد مفاجأتهم بمعرفته بما عزموا عليه من قتله وسفك دمه، بدليل قوله لابن الأشعث:

(أتريد أن يطلبك بنو هاشم أكثر من دم مسلم بن عقيل)[1].

فقد أثبت لهم وللتأريخ الذي يسجل هذا الحوار أنهم جاءوا لغاية واحدة وهي إجباره عليه السلام على البيعة ليزيد بن معاوية وأنهم قوم منافقون أظهروا الإسلام وأبطنوا الكفر بدليل عدم إيمانهم بتلك الحجج الشرعية التي قدمها لهم من كونه ابن بنت نبيهم، وسيد شباب أهل الجنة، وإنهم كتبوا إليه فلبى استغاثتهم، وإنهم رفضوا رجوعه من حيث قدم، فبدا نفاقهم ظاهرا بيناً لا يحتاج إلى بيان آخر، ولذا قال:

«أعوذ بربي وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب».

فلو كان هؤلاء يؤمنون بيوم الحساب لفكروا كثيرا جدا قبل أن يقفوا هذا الموقف وبعد هذه الحجج التي احتج بها عليهم.

---

(١) الكامل في التاريخ، ابن الأثير: ج٤، ص٦٢، ذكر مقتل الحسين عليه السلام.

وعليه: سنرى أن هناك تغيرا في أسلوب الخطاب الحسيني لهم بعد هذا الإقرار والعزم على قتله وانتهاك حرمة الله عزّ وجلّ وحرمة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم وحرمته عليه السلام.

ثم بيّن لهم أنهم لا يدركون ما يطلبون وهو النزول إلى حكم يزيد بن معاوية مهما كثرت من حوله الجيوش حتى ولو جاءوه بأهل الأرض.

ولذا سنّ لجميع الأحرار في العالم منهجا للوصول إلى الحرية والعزة والرفعة والكرامة فقال:

«لا والله، لا أعطيكم بيدي إعطاء الذليل، ولا أفر فرار العبيد».

وهنا: جعلهم بين خيارين أهونه أمرّ من طعم الحنظل، فهو عليه السلام لا يستسلم لهم، ولا يجيبهم إلى ما طلبوه كي يؤخذ أسيراً أهل بيته إلى الشام فيرى فيه طاغية بني أمية رأيه يعفو عنه، أو يطلقه، أو يسجنه، أو يأمر بقتله وهذا فعل الذليل، وهيهات منه ذلك.

وهو لا يفر من القتال لأن هذا الفعل فعل العبيد، ومحال منه ذلك لأنه ابن بنت سيد الأنبياء والمرسلين صلى الله عليه وآله وسلم، هذا إذا غضضنا الطرف عن الصفات الشرعية التي اتصف بها من مثل كونه حجة الله تعالى على خلقه وثالث أوصياء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وسبط هذه الأمة وغيرها من الصفات.

وعليه: وجدوا أنفسهم مع ما عزموا عليه من جرم قتاله أن لا مفر لهم مما اختاروا وخططوا؛ بمعنى: كان الجيش من حيث التركيبة النفسية ينقسم إلى مجموعتين المجموعة الأولى منهم ترغب في إرضاء البلاط الأموي ونيل الجائزة من

خلال إرسال الحسين وأهل بيته إلى الشام دون قتال على تقدير أنه عليه السلام حينما سيرى تلك الجيوش سيستسلم لهم، وبذلك يلقون بتبعات هذه الخطوة في عنق الإمام الحسين عليه السلام لكونه هو الذي اختار هذا الخيار، فيكفيهم مؤونة القتال وذل العار في حربهم لابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فوقعوا في شرك جنايتهم التي اختاروها لأنفسهم وعلى رأس هذه المجموعة قائد الجيش عمر بن سعد ـ عليه لعنة الله ـ فقد كان في أول أمره كارها لقتال الحسين عليه السلام إلا أن حبه لملك الري واتباعه لهواه قاده إلى أن يكون أول من يرمي بسهم نحو مخيم الحسين عليه السلام.

ومما يدل على هذه الحقيقة أبياته التي يفصح بها عن حقيقة نفسه فيقول:

فوالله ما أدري وإني لحائر ... أفكر في أمري على خطرين

أأترك ملك الري والري منيتي ... أم أرجع مأثوما بقتل حسين

حسين ابن عمي والحوادث جمة ... لعمري ولي في الري قرة عين

ألا إنما الدنيا بخير معجل ... فما عاقل باع الوجود بدين

وأن إله العرش يغفر زلتي ... ولو كنت فيها أظلم الثقلين

يقولون إن الله خالق جنة ... ونار وتعذيب وغل يدين

فإن صدقوا فيما يقولون إنني ... أتوب إلى الرحمان من سنتين

وإن كذبوا فزنا بدنيا عظيمة ... وملك عقيم دائم الحجلين[1]

والمجموعة الثانية: كانت عازمة بكل ما أوتيت من قوة على قتله هو وأهل بيته عليهم السلام، بل خططوا للتمثيل بالأجساد وتقطيع الرؤوس وعلى رأسهم شمر بن ذي الجوشن ـ لعنه الله ـ الذي يعد اليد الطولى لطاغيته يزيد بن معاوية والمطيع

---

(١) اللهوف في قتلى الطفوف، السيد ابن طاووس: ص١٩٣. مناقب آل أبي طالب عليه السلام:

الودود لواليه على الكوفة عبيد الله بن زياد ـ لعنهم الله جميعاً ـ بما آذوا به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في قتلهم لولده وذريته عليهم السلام.

ومما يدل عليه:

الكتاب الذي بعثه عبيد الله بن زياد إلى عمر بن سعد وكان حامله إليه شمر بن ذي الجوشن، فقال فيه: (إني لم أبعثك إلى الحسين لتكف عنه ولا لتطاوله ولا لتمنيه السلامة والبقاء ولا لتعتذر له ولا لتكون له عندي شافعاً، أنظر فإن نزل الحسين وأصحابه على حكمي واستسلموا فابعث بهم إليّ سلما، وإن أبوا فأزحف إليهم حتى تقتلهم وتمثل بهم فإنهم لذلك مستحقون، وإن قتل الحسين فأوطئ الخيل صدره وظهره، فإنه عات ظلوم، وليس أرى أن هذا يضر بعد الموت شيئا، ولكن عليّ قول قد قلته لو قتلته لفعلت هذا به، فإن أنت مضيت لأمرنا فيه جزيناك جزاء السامع المطيع، وإن أبيت فاعتزل عملنا وجندنا وخل بين شمر بن ذي الجوشن وبين العسكر فإنا قد أمرناه بأمرنا، والسلام)[١].

فجميع هؤلاء سواء الذين كانوا يرغبون باستسلام الإمام الحسين عليه السلام أم المصممون على قتله والتمثيل بجسده هم في الجرم سواء يجمعهم جامع مشترك النفاق وعدم الإيمان باليوم الآخر والسعي وراء المال.

---

(١) الإرشاد، الشيخ المفيد: ج٢، ص٨٩. مناقب آل أبي طالب، ابن شهر آشوب: ج٣، ص٢٤٨. تاريخ الطبري: ج٤، ص٣١٤. الكامل في التاريخ، ابن الأثير: ج٤، ص٥٦. بحار الأنوار للعلامة المجلسي رحمه الله: ج٤٤، ص٣٩٠. مقتل الحسين عليه السلام، أبو مخنف: ص١٠١. إعلام الورى، الطبرسي: ج١، ص٤٥٣. ينابيع المودة، القندوزي: ج٣، ص٢٨. شرح إحقاق الحق، المرعشي: ج٣٣، ٦٠٦.

رابعا

وعلى الرغم من هذا الإفصاح في عزمهم على قتله عليه السلام لم يكتف عليه السلام بما تقدم من الخطاب، بل استمر في إلقاء الحجة عليهم ومحاولة إرجاعهم إلى جادة الصواب كي لا يقعوا فيما لم تفعله أمة من الأمم في أهل بيت نبيها.

إلا أن الفارق بين الخطبتين هو:

١ـ اختصار إيراد الحجج، فقد اكتفى عليه السلام في هذه الخطبة بحمل كتاب الله لنشره على رأسه ووقف بازاء القوم، وقال:

«**يا قوم إن بيني وبينكم كتاب الله وسنة جدي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم**».

ثم استشهدهم عليه السلام عن نفسه المقدسة وما عليه من سيف النبي صلى الله عليه وآله وسلم ولامته، وعمامته. فأجابوه بالتصديق، فسألهم عما أقدمهم على قتله؟!.

قالوا: طاعة للأمير عبيد الله بن زياد.

٢ـ تغيير الأسلوب الخطابي من الاحتجاج والوعظ، إلى التقريع والتوبيخ؛ ثم بيان حقائق أخلاقهم، ونحلهم، وأصنافهم؛ وهو قوله عليه السلام:

«**تبا لكم أيتها الجماعة وترحا وبؤسا لكم! حين استصرختمونا ولهين، فأصرخناكم موجفين، فشحذتم علينا سيفا كان في أيدينا، وحمشتم علينا نارا أضرمناها على عدوكم وعدونا، فأصبحتم إلبا على أوليائكم، ويدا على أعدائكم من غير عدل أفشوه فيكم، ولا أمل أصبح لكم فيهم، ولا ذنب كان منا إليكم، فهلا لكم الويلات إذ كرهتمونا[1] والسيف مشيم، والجأش طامن، والرأي لم**

(١) وقد وردت فيه بلفظ: (تركتمونا) انظر: مثير الأحزان، ابن نما: ص٤٠. تاريخ دمشق لابن عساكر: ج١٤، ص٢١٨.

يستحصف. ولكنكم أسرعتم إلى بيعتنا كطيرة الدبا، وتهافتم إليها كتهافت الفراش، ثم نقضتموها سفها، فبعدا وسحقا لطواغيت هذه الأمة! وبقية الأحزاب، ونبذة الكتاب، ومطفئي السنن، ومؤاخي المستهزئين، الذين جعلوا القرآن عضين، وعصاة الإمام، وملحقي العهرة بالنسب، ولبئس ما قدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم وفي العذاب هم خالدون.

أفهؤلاء تعضدون، وعنا تتخاذلون!! أجل والله، خذل فيكم معروف، نبتت عليه أصولكم، واتذرت عليه عروقكم، فكنتم أخبث ثمر شجر للناظر، وأكلة للغاصب».

٣ـ وضع عليه السلام النقاط على الحروف في كشف ما انطوت عليه عزيمة عبيد الله بن زياد ومن سيقوم بتنفيذ هذا الأمر.

وجاء ذلك في قوله عليه السلام:

«ألا وإن الدعي ابن الدعي قد تركني بين السلة والذلة وهيهات له ذلك مني! هيهات منا الذلة!».

٤ـ إظهار موقفه الشرعي من هذه الحرب.

وجاء ذلك في قوله عليه السلام:

«هيهات منا الذلة! أبى الله ذلك لنا ورسوله والمؤمنون، وحجور طهرت وجدود طابت، أن نؤثر طاعة اللئام على مصارع الكرام، ألا وإنّي زاحف بهذه الأسرة على قلة العدد، وكثرة العدو، وخذلة الناصر».

٥ـ إخبارهم بسنة كونية وهو ما يعرف بالسنن التاريخية كنتيجة حتمية الوقوع لما سيقترفون من ظلم.

وهو قوله عليه السلام:

«أما والله لا تلبثون إلا كريث ما يركب الفرس حتى تدور بكم دور الرحى، وتقلقون قلق المحور، عهد عهده إلي أبي عن جدي؛ فأجمعوا أمركم وشركاءكم، ثم لا يكن أمركم عليكم غمة، ثم اقضوا إلي ولا تنظرون؛ إني توكلت على الله ربي وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم»[(١)].

ونتيجة لما تقدم:

يكونون قد استحقوا العذاب الإلهي، فكان أول مصادر نزوله وتحققه هو دعاء حجة الله تعالى عليهم بسوء العذاب؛ وإلاّ فإنّ أئمة أهل البيت عليهم السلام اصطفاهم الله تعالى لرحمة الأمة لا سبباً للعذاب.

قال تعالى:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[(٢)].

لاسيما وأن هذا الدعاء جاء بعد الخطبة الثانية التي تغير فيها أسلوب الخطاب معهم، لأنهم صرحوا بقتله عليه السلام على الرغم من تلك الحجج البالغة التي قدمها إليهم.

---

(١) أنظر هذه الخطبة في: تحف العقول، البحراني: ص٢٤١. الاحتجاج، الطبرسي: ج٢، ص٢٤. مناقب آل أبي طالب عليه السلام: ج٣، ص٢٥٧. مثير الأحزان، ابن نما: ص٤٠. بحار الأنوار للعلامة المجلسي رحمه الله: ج٤٥، ص٨. تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر: ج١٤، ص٢١٨. كتاب الفتوح، ابن أعثم: ج٥، ص١١٦. مطالب السؤول، ابن طلحة الشافعي: ص٣٨٣. الفصول المهمة، ابن الصباغ: ج٢، ص٧٦٦.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٣٣.

المبحث الثاني: مبحث قانوني

منهج الإمام الحسين عليه السلام في القصاص من الظالمين

قال عليه السلام في دعائه على جيش عمر بن سعد وقد رفع يديه نحو السماء:

«اللهم احبس عنهم قطر السماء، وابعث عليهم سنين كسني يوسف، وسلّط عليهم غلام ثقيف يسقيهم كأساً مصبرة، ولا يدع فيهم أحداً إلا قتله قتلة بقتلة، وضربة بضربة، ينتقم لي ولأوليائي وأهل بيتي وأشياعي منهم، فإنهم غرونا، وكذبونا، وخذلونا، وأنت ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير»[1].

المسائل المتعلقة بالمبحث:

المسألة الأولى: إيكال الانتقام إلى الله تعالى

يسلك الإمام الحسين عليه السلام في أمر القصاص من الظالمين نفس مسلك القرآن الكريم كما أنه لم يتعدَّ مسلك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

إلا أن السمة التي اتسم بها منهج الإمام الحسين عليه السلام في القصاص من الظالمين هو إيكال أمر الانتصار على الظلمة إلى الله تعالى.

بمعنى:

أن الإمام الحسين عليه السلام كان يمكن أن ينتصر لنفسه من الظالمين بما أعطاه الله تعالى من ولاية كونية فيأتيهم بجنود ـ كما قال نبي الله سليمان عليه السلام:

---

(١) بحار الأنوار للعلامة المجلسي رحمه الله: ج٤٥، ص١٠. العوالم، الإمام الحسين عليه السلام، الشيخ عبد الله البحراني: ص٢٥٣. لواعج الأشجان، السيد محسن الأمين: ص١٣٢. اللهوف في قتلى الطفوف، السيد ابن طاووس: ص٦٠.

﴿فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا﴾[١].

إلا أنه أوكل الأمر إلى الله تعالى لحكمة يظهرها الحديث الوارد عن الإمام الصادق عليه السلام.

فعن عبد الله بن سنان، عن الإمام الصادق عليه السلام قال:

«أوحى الله عز وجل إلى بعض أنبيائه: يا ابن آدم اذكرني في غضبك أذكرك في غضبي لا أمحقك فيمن أمحق وارض بي منتصرا فإن انتصاري لك خير من انتصارك لنفسك»[٢].

وفي لفظ آخر:

«وإذا ظلمت بمظلمة فارض بانتصاري لك فإن انتصاري لك خير من انتصارك لنفسك»[٣].

والحكمة في ذلك من وجوه:

أولا: إن المنشأ النفسي للانتصار على العدو هو الغضب، والغضب يدفع للانتقام، وهنا تكمن الخطورة إذ قد يكون الانتقام من الظالم يفوق ظلم الظالم، فيتحول الانتقام إلى ظلم أيضا.

ثانيا: قد يكون الانتقام من الظالم يعزز في نفس الظالم الأخذ بالثأر مما يؤدي إلى اتساع دائرة الظلم وإيقاع أطراف بريئة.

---

(١) سورة النمل، الآية: ٣٧.

(٢) الكافي للشيخ الكليني رحمه الله: ج٢، ص٣٠٤، ح٨.

(٣) الكافي، الشيخ الكليني رحمه الله: ج٢، ص٣٠٤، ح٩.

ثالثا: إنّ انتقام الله تعالى من الظالمين يكون على قدر ظلمهم فلا ينقص مثقال ذرة ولا يزيد مثقال ذرة.

رابعا: إن نوعية العذاب من الله تعالى في انتقامه من الظالمين تحدده المصلحة العامة والخاصة، فمنها ما يخص الظالم ومنها ما يخص المجتمع.

خامسا: إن انتقام المظلوم من الظالم يفوّت عليه ثواب وقوع الظلم عليه، لأنه حينما ينتقم من الظالم هو يقصد في هذا الفعل الانتصار لنفسه.

ومن هنا:

وإن كان الإمام الحسين عليه السلام لا يخرجه الانتصار على الظالمين بالانتقام منهم عن رضا الله تعالى لأنه حجة الله تعالى، إلا أنه أوكل ذلك الانتصار إلى الله تعالى، لأنه أحب إلى قلبه، ولمعرفته بأن عذاب الله أشد نكالاً وأبقى أثراً، وطمعا في نيل رضا الله تعالى الذي خرج لأجله.

المسألة الثانية: مفهوم الانتقام ومصداقه

حينما نستعرض القرآن الكريم للبحث عن مفهوم الانتقام ومصداقه نجده يتحدث عن الانتقام كمفهوم هو (الاستحقاق للعذاب)، ثم يتحدث كذلك عن المستحق للعذاب، وعن نوع الاستحقاق، وعن نوع العذاب، وهو في هذه الحالة يبين لنا مصداق الانتقام.

وحينما نعرض هذه المعطيات في المفهوم والمصداق على دعاء الإمام الحسين عليه السلام نجد حالة من التلازم في هذه المعطيات.

قال تعالى:

﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۝٢١ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾[1].

قال العلامة الطباطبائي تتر، (توفي ١٤١٢هـ): (لما كان غاية إذاقتهم العذاب رجوعهم المرجو، والرجوع المرجو هو الرجوع إلى الله تعالى بالتوبة والإنابة كان المراد بالعذاب الأدنى هو عذاب الدنيا النازل بهم للتخويف والإنذار ليتوبوا دون عذاب الاستئصال ودون العذاب الذي بعد الموت؛ وحينئذ المراد بالعذاب الأكبر عذاب يوم القيامة.

والمعنى: أقسم لنذيقنهم من العذاب الأدنى أي الأقرب مثل السنين والأمراض والقتل ونحو ذلك قبل العذاب الأكبر يوم القيامة لعلهم يرجعون إلينا بالتوبة من شركهم وجحودهم.

قيل: سمي عذاب الدنيا أدنى ولم يقل: الأصغر، حتى يقابل الأكبر، لأن المقام مقام الإنذار والتخويف ولا يناسب عد العذاب أصغر، وكذا لم يقل دون العذاب الأبعد حتى يقابل العذاب الأدنى لعدم ملاءمته مقام التخويف.

وقوله تعالى:

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾.

---

(١) سورة السجدة، الآيات: ٢١، ٢٢.

كأنه في مقام التحليل لما تقدم من عذابهم بالعذاب الأكبر بما أنهم مكذبون فعلله بأنهم ظالمون أ شد الظلم بالإعراض عن الآيات بعد التذكرة فيكونون مجرمين والله منتقم منهم.

فقوله:

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾، الخ.

تحليل لعذابهم بأنهم ظالمون أشد الظلم ثم قوله:

﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾.

تحليل لعذاب الظالمين بأنهم مجرمون والعذاب انتقام منتقم والله منتقم من المجرمين)[1].

والإمام الحسين عليه السلام في دعائه يبين استحقاق هؤلاء للعذاب لأنه بيّن لهم آيات الله وأنذرهم من عذابه إلا أنهم أعرضوا عن آيات ربهم فهم حينئذ مستحقون للعذاب وهم مجرمون؛ بل إنهم انحدروا إلى ما هو أعظم من ذلك فقد عزموا على قتله مع أهل بيته عليهم السلام.

ومثلما حدد القرآن نوع العذاب الذي استحقه هؤلاء وكيفية الانتقام كذلك فعل الإمام الحسين عليه السلام في دعائه عليه السلام، فقال:

«أما والله لا تلبثون بعدها إلا كريثما يركب الفرس، حتى تدور بكم دور الرحى وتقلق بكم قلق المحور عهد عهده إلي أبي عن جدي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم».

---

(١) تفسير الميزان للعلامة الطباطبائي: ج١٦، ص٢٦٤.

المسألة الثالثة: نوع العذاب وكيفيته اللذان بهما يتحقق مصداق الانتقام

في نوع العذاب وكيفيته اللذين بهما يتحدد مصداق الانتقام يعرض القرآن لنا ذلك في قوله تعالى:

﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾[1].

فالآية المباركة تعرض لنا نوعية العذاب وكيفيته كدليل عملي على مصداق الانتقام من المجرمين، فالآية المباركة تحدد الانتقام بثلاثة أنواع من العذاب، وهي:

١ـ العذاب من فوقهم

٢ـ العذاب من تحت أرجلهم

٣ـ العذاب من بينهم

وهذه الأنواع اختلف فيها المفسرون إلا أن المعنى العام لهذه الأنواع انحصر في مصادر نزول هذا العذاب لا نوعيته.

ففي **النوع الأول** يكون مصدره السماء (كالمطر) كما حدث لقوم نوح، فقال تعالى:

﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ﴾[2].

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٦٥.

(٢) سورة القمر، الآية: ١١.

أو (الريح) كما حدث لقوم عاد، حيث قال تعالى:

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِيٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾[(١)].

أو (الحجارة) كأصحاب الفيل وقوم لوط، قال عزّ وجل:

﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَـٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ﴾[(٢)].

والنوع الثاني من العذاب يكون مصدره الأرض كـ(الخسف)، قال تعالى:

﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾[(٣)].

أو (الزلزلة)، حيث قال تعالى:

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾[(٤)].

أو (القحط) كما حدث لقوم يوسف عليه السلام.

والنوع الثالث من العذاب يكون مصدره من بينهم كالاختلاف والفرقة فيقع فيما بينهم السيف حينما يجعلهم الله شيعاً، كما دلت عليه الآية سابقاً: أي أحزاباً وجماعات.

---

(١) سورة فصلت، الآية: ١٦.

(٢) سورة هود، الآية: ٨٢.

(٣) سورة النحل، الآية: ٤٥.

(٤) سورة الزلزلة، الآية: ١.

هذا النسق القرآني في تحديد نوعية العذاب وتعيين مصادره قد استخدمه الإمام الحسين عليه السلام في دعائه على جيش عمر بن سعد كي ينتقم الله له منهم، فقال عليه السلام:

أولا:

«اللهم احبس عنهم قطر السماء».

وهو النوع الأول الذي ذكرته الآية المباركة، أي:

﴿ يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ ﴾[١].

ثانيا:

«وابعث عليهم سنين كسني يوسف».

وهو النوع الثاني ا لذي ذكرته الآية، أي:

﴿وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ﴾.

ومصدره الأرض وقد أصابهم الله بالقحط والشح وغلاء الأسعار وتفشي المجاعة. ثالثا:

«يسقيهم كأسا مصبرة ولا يدع فيهم أحدا إلا قتله، قتلة بقتلة، وضربة بضربة، ينتقم لي ولأوليائي وأهل بيتي وأشياعي منهم».

وهو النوع الثالث الذي ذكرته الآية، وهو قوله تعالى:

﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾[٢].

---

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٥٥.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ٦٥.

أي أن يأتيهم العذاب من ابن بلدتهم فيسلط عليهم غلام ثقيف وهو المختار بن أبي عبيد الثقفي الذي تتبع هؤلاء القتلة المجرمين فاقتص منهم قتلة بقتلة، وضربة بضربة ـ وهو ما سنعرض له في المبحث اللاحق ـ.

إذن:

يجري دعاء الإمام الحسين عليه السلام على جيش أهل الكوفة مجرى القرآن الكريم في تحديد نوع ا لعذاب ومصادر انطلاقه؛ إلا أن السمة الأخرى التي اتسم بها دعاء الإمام الحسين عليه السلام: هو بيانه للحكمة التي تحددت بها هذه الأنواع من العذاب، بمعنى إرجاعه عليه السلام هذه الأنواع الثلاثة من العذاب إلى بواعث استحقاقها.

أي إن لكل ذنب من الذنوب ما يستحقه من العقاب، وإن طبيعة هذا الذنب ومقدار ضرره على البشرية هي التي ترسم نوع الانتقام.

ولذا:

فقد أظهر مسببات هذه الأنواع الثلاثة من العذاب، فقال عليه السلام معللاً سبب استحقاقهم لهذه الأنواع الثلاثة من العذاب بقوله عليه السلام:

«فإنهم غرونا، وكذبونا، وخذلونا».

وهي ثلاثة أيضا. فيكون:

أولاً: التغرير بأهل البيت عليهم السلام

يوجب العذاب من السماء، وهو حبس المطر، أي العذاب البيئي، فحبس المطر يسبب تلوث الهواء، وارتفاع درجات الحرارة، وانتشار الأوبئة وتفشي الأمراض.

ثانياً: وأما تكذيب الناس لأهل البيت عليهم السلام

فإنه يوجب القحط والشح وغلاء الأسعار وانتشار البطالة وتفشي الجوع وارتفاع نسبة الفقر فضلاً عن الخسف أو الزلزلة.

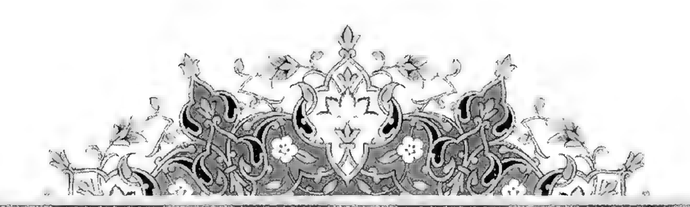
ثالثاً: وأما خذلان الناس لأهل البيت عليهم السلام

فيوجب وقوع الفتنة والفرقة والقتل فيما بين الناس.

ـ أجارنا الله وجميع المؤمنين من الوقوع في هذه المهلكات، ووفقنا للفوز برضا محمد وأهل بيته صلى الله عليه وآله وسلم ـ فإن رضاهم رضا الله، وغضبهم غضب الله تعالى؛ كما صرح به عليه السلام حينما أراد الخروج من مكة فقال عليه السلام:

«الحمد لله وما شاء الله، ولا قوه إلا بالله، خط الموت على ولد آدم مخط القلادة على جيد الفتاة وما أولهني إلى أسلافي اشتياق يعقوب إلى يوسف، وخُيّر لي مصرع أنا لاقيه كأني بأوصالي تقطعها عسلان الفلوات بين النواويس وكربلاء، فيملأن مني أكراشا جوفا، وأجرية سغبا، لا محيص عن يوم خط بالقلم، رضا الله رضانا أهل البيت، نصبر على بلائه ويوفينا أجور الصابرين»[١].

(١) مثير الأحزان، ابن نما الحلي: ص٢٩. بحار الأنوار للعلامة المجلسي رحمه الله: ج٤٤، ص٣٦٧.



الفصل السادس:

تحقق الأثر الغيبي في دعاء الإمام الحسين عليه السلام

المبحث الاول: تحقق الأثر الغيبي بعد بضع سنين من عاشوراء

من الحقائق التي كشفها الحدث التاريخي في حياة المسلمين هو تحقق الأثر الغيبي في دعاء الإمام الحسين عليه السلام في يوم عاشوراء بعد استشهاده بفترة زمنية قصيرة، بل إن الحدث لينطق بلسان فصيح عن تحقق تلك الكلمات التي أخبرت عن مجريات الأحداث المستقبلية بعد يوم عاشوراء وبأدق تفاصيلها لينكشف معها ظهور خصائص الأثر الغيبي في دعاء المعصوم عليه السلام.

إذ لم يكتف الإمام الحسين عليه السلام ببيان نوع العذاب الذي سيناله هؤلاء، بل كشف عليه السلام عن اسم المقتص منهم وعن نوع الاقتصاص.

الحلقة الأولى: إنّ الله تعالى سلط عليهم غلام ثقيف

قال عليه السلام:

«وسلط عليهم غلام ثقيف يسقيهم كأساً مصبرة، ولا يدع فيهم أحداً إلا قتله، قتلة بقتلة، وضربة بضربة، ينتقم لي ولأوليائي وأهل بيتي وأشياعي منهم».

فمن هو غلام ثقيف؟ وكيف انتقم لسيد شباب أهل الجنة من أعدائه؟ وكيف كان قصاصه منهم؟.

هذه الأسئلة نجيب عليها من خلال المسائل الآتية :

المسألة الأولى: من هو غلام ثقيف؟ وما هي مكانته الاجتماعية، ومدى علاقته بأهل البيت عليهم السلام ؟.

أولا: من هو المختار؟

نشأ المختار في أسرة عريقة ، فوالده : ابو عبيد بن مسعود بن عمرو بن عمير بن عوف ، بن عقدة بن غيره بن عوف بن قسي ـ وهو ثقيف ـ بن منبّه بن بكر بن هوازن.

وأمه : دَوْمة بنت عمرو بن وهب بن معتب ، وكانت من ربّات الفصاحة والبلاغة والرأي والعقل[١].

وكان مولد المختار في السنة التي هاجر فيها النبي صلى الله عليه وآله وسلم من مكة إلى المدينة[٢].

ثانيا: مكانته الاجتماعية

كان المختار ذا مكانة اجتماعية راقية ، وقد وصفه ابن عبد البر بقوله : (كان معدوداً من أهل الفضل والخير) ، وقال أيضا : (ـ كان ـ المختار معدوداً في أهل الفضل والدين)[٣].

وهو أحد وجوه الشيعة في المجتمع الكوفي وقد تعرض للاعتقال مع أربعة عشر نفراً من وجهاء الكوفة بسبب موالاتهم وتشيعهم لأهل البيت عليهم السلام وكان ذلك أثناء تولي زياد بن أبيه الإمارة على الكوفة ، ومما يشير إلى مكانته في المجتمع الكوفي نزول مسلم بن عقيل في داره حينما قدم الكوفة سفيراً للإمام الحسين عليه السلام .

(١) أعلام النساء : ج١ ، ص٤٢١.

(٢) بحار الأنوار للعلامة المجلسي رحمه الله : ج٤٥ ، ص٣٥٠.

(٣) الاستيعاب ، القسم الرابع : ص١٤٦٥.

ثالثا: علاقة المختار بأهل البيت عليهم السلام

كان المختار قديم الصلة بأهل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم منذ طفولته، فتربى عندهم ونشأ بينهم، لأنه قد انتقل إلى المدينة مع أبيه، في زمن عمر، وتوجه أبوه إلى العراق، فاستشهد يوم الجسر، وبقي المختار في المدينة، منقطعاً إلى بني هاشم(١).

وقد توسم فيه الإمام علي عليه السلام منذ صباه الفطنة والذكاء، فكان يجلسه على فخذه ويمسح رأسه، ويقول له:

«يا كيّس.. يا كيّس»(٢).

واستمر تردده على بني هاشم يأخذ عنهم الأدب والعلم، وبعد فترة من صلح الإمام الحسن بن علي عليهما السلام عاد من الكوفة إلى المدينة، وكان يجالس محمد بن الحنفية، ويأخذ عنه الأحاديث(٣).

وجاء في كتاب (مقتل الإمام الحسين للسيد عبد الرزاق المقرم) قوله: (المختار بن أبي عبيدة الثقفي... انقطع إلى آل الرسول الأقدس فاستفاد منهم علماً جمّاً، وأخلاقاً فاضلة، وناصح لهم في السرّ والعلانية)(٤).

رابعا: حبس المختار في سجن الكوفة ومنعه من الالتحاق بكربلاء

بعد أن انقلب أنصار مسلم بن عقيل عليه السلام وبعد تخفيه في بعض بيوت الكوفة، انقلبت كفة الأمور لصالح عبيد الله بن زياد، وفي نفس هذه الليلة التي

---

(١) الأعلام، ج٨، ص٧٠.

(٢) معجم رجال الحديث: ج١٨، ص٩٥.

(٣) بحار الأنوار للعلامة المجلسي رحمه الله: ج٤٥، ص٣٥٢.

(٤) المصدر السابق.

كان فيها مسلم بن عقيل متواريا عن الأنظار دخل المختار بن أبي عبيد الكوفة يحمل راية خضراء[(١)] ، وتحوط به مواليه[(٢)] حتى انتهى إلى باب الفيل من مسجد الكوفة ، وهناك صدمته الحقيقة لأن خبر انقلاب الناس على مسلم بن عقيل لم يكن قد وصل إليه ، فبقي على حيرة من أمره لا يعلم بمكان مسلم حتى ينصره ولا يقدر على الرجوع إلى أهله لأن جيش ابن زياد قد سد على الناس منافذ الدخول والخروج إلى الكوفة وأعلن حظراً للتجوال في عموم شوارع الكوفة وأزقتها وبين هذه الخيارات الصعبة ، يمرّ به هاني بن أبي حيّة الوادعي فيعرض عليه أن ينزل على عمرو بن حريث فاستجاب مضطرا إلى الصباح[(٣)].

وفي اليوم الثاني يأمر ابن زياد أن يدخل عليه الناس عامة فيدخل المختار في من دخل فيتوجه إليه ابن زياد قائلا له : (أنت المقبل في الجموع لتنصر ابن عقيل ، فقال له : لم أفعل ولكني أقبلت ونزلت تحت راية عمرو بن حريث ، وبت معه وأصبحت ، فقال له عمرو : صدق ـ أصلحك الله ـ فرفع عبيد الله القضيب ، فاعترض وجه المختار فخبط به عينه فشترها وقال : أما والله لو لا شهادة عمرو لك لضربت عنقك ، انطلقوا به إلى السجن)[(٤)].

وبعد أيام من اعتقال المختار يعتقل ميثم التمار ، ويودع السجن مع المختار ، وبعد حديث بينهما ينبعث في روح المختار أمل بالنجاة والخلاص من يد هؤلاء

---

(١) تاريخ الطبري : ج٥ ، ص٣٨١.

(٢) تاريخ الطبري : ج٥ ، ص٥٦٩.

(٣) تاريخ الطبري : ج٥ ، ص٥٧٠.

(٤) المصدر السابق.

الأشرار، بل والشرف العظيم بأخذ ثأر سيد الشهداء وأصحابه الأخيار حيث يقول له ميثم نقالاً عن الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام:

«إنك تفلت وتخرج ثائراً بدم الحسين عليه السلام فتقتل هذا الذي قتلنا...».

فتطمئن نفس المختار بهذا الكلام، لأنه واثق من مصدره ومُصدّق له، وبدأ يعدّ الساعات والدقائق، ويهيّئ نفسه للقيام بالمهمة الكبرى.

خامسا: أثر مقتل الحسين عليه السلام على المختار

كانت الأيام تمر سراعا في سجن ابن زياد عليه اللعنة وكانت الأخبار لا تأتي إلا بما يسوء، وفجأة يقرع أسماع من كان مسجوناً في زنزانة ابن زياد نبأ الفاجعة العظمى، والمجزرة الكبرى، التي ذبح فيها الحسين وآل الحسين عليهم السلام وأنصاره وأريقت دماؤهم الزكية على أرض كربلاء بعد ثلاثة أيام من العطش المهلك وفصلوا الرؤوس عن الأجساد، وتركوا أجسادهم مجرّدة، وأبدانهم مرمّلة، وخدودهم معفّرة... تصهرهم الشمس وتسفي عليهم الريح وبعد ذلك حملوا نساء البيت العلوي والأطفال على ظهور الجمال العجاف سبايا إلى أبناء الطلقاء.

فكان كلما ورد خبر من هذه الأخبار إلى أسماع المختار ورفاقه السجناء تزداد جروحهم عمقاً، وتشتد فيهم حالة الغضب على هؤلاء الجناة، ويشتد فيهم الشعور بالتقصير تجاه آل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وتأنيب الضمير لخذلانهم أهل الحق، وسكوتهم على جرأة الباطل.

سادسا: انطلاقة ثورة التوابين واتصال بعض قادتها بالمختار

تزعم حركة التوابين خمسة من زعماء الشيعة هم كل من: (سليمان بن صرد الخزاعي، المسيب بن نجبة الفزاري، عبد الله بن سعد بن نفيل الأزدي، عبد الله بن والي التميمي، ورفاعة بن شداد البجلي) وكلهم من خيار صحابة علي عليه السلام، ونظرة واحدة إلى هذه الأسماء تعطينا فكرة عن القبائل التي أسهمت في هذه الحركة التوابية، فكتب سليمان بن صرد إلى شيعة المدائن وشيعة البصرة يستنهضهم للأخذ بثأر الحسين فأجابوه جميعاً إلى ما دعاهم إليه.

وعندما التقى جيش التوابين بجيش ابن زياد طلب منهم ابن زياد أن يستسلموا ويبايعوا لعبد الملك بن مروان فرفض قادة التوابين هذا الرأي، طلب التوابون من جند الشام أن يخلعوا عبد الملك وينضموا إلى التوابين لقتال الأمويين والزبيريين وتسليم الخلافة لآل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، فرفض أهل الشام هذا الرأي.

وبدأت المعركة بين الفريقين وصمد التوابون لأهل الشام وقاتلوا قتال الأسود الضواري، وكادت المعركة أن تنتهي لصالحهم لولا النبال التي انهالت عليهم من كل جانب، وأصيب قائدهم سليمان بسهم كان به نهاية حياته.

وأخذ الراية من بعده المسيب بن نَجَبَة، وكان من أبطال الكوفة، فحمل بمن معه على أهل الشام... ولما قتل استمات أصحابه وهاجموا أهل الشام وهم يقولون: الجنة الجنة إلى البقية من أصحاب أبي تراب... لكن المعركة انتهت لصالح أهل الشام ورجع من بقي من التوابين ـ وهم قلة ـ كلٌّ إلى بلده، لم يحققوا الهدف الذي حاربوا من أجله.

ووصل إلى مسامع المختار وهو في السجن نبأ استشهاد سليمان وجمع من أصحابه على يد عبيد الله بن زياد، ورجوع المتبقين من جيش التوابين إلى الكوفة فكاتبهم في رسالة يثني فيها على جهادهم ويعرض عليهم الانخراط معه من جديد في ركاب الثورة، وكان نصّ الكتاب: (أمّا بعد فإنّي في الله أعظم لكم الأجر واحط عنكم الوزر بمفارقة القاسطين وجهاد المحلين، وأنّكم لم تنفقوا نفقة، ولم تقطعوا عقبة، ولم تخطوا خطوة إلاّ رفع الله لكم بها درجة، وكتب بها حسنة، على ما يحصيه الله من التضعيف، فابشروا فإني لو قد خرجت لجردت ما بين المشرق والمغرب في عدوكم السيف بإذن الله... فرحب الله بمن قارب منكم واهتدى ولا يبعد الله إلا من عصى وأبى، والسلام على من اتبع الهدى.

فأجابوه: قد قرأنا الكتاب ونحن حيث يسرك فإن شئت أن نأتيك حتى نخرجك فعلنا)[1].

المسألة الثانية: إعلان ساعة الصفر في الكوفة لمعركة القصاص

استطاعت شخصية المختار الفذّة أن تجمع أكثر الناس المعارضين للدولة الأموية وللدولة الزبيرية وكان الجو مشحونا بالتوتر ضد والي ابن الزبير الذي استعان بقتلة الإمام الحسين عليه السلام في الإدارة لشؤون الكوفة، فاستغل المختار هذه الأجواء للانطلاق من خلالها بالثورة، فحدّد تاريخ الرابع عشر من ربيع الثاني موعداً لإعلان ساعة الصفر.

فاستولى المختار على قصر الإمارة وسيطر على كامل أرض الكوفة بعد أربعة أيّام من الكر والفر، وجلس في القصر، واجتمع عليه الناس للبيعة فلم يزل باسطاً

---

(١) تاريخ الطبري: ج٤، ص٩٤.

يده حتى بايعه خلق من العرب والسادات والموالي[١].

وبعد أن سيطر على الكوفة بشكل كامل، أرسل العمّال والولاة إلى نواحي الكوفة والمناطق التابعة لها وفرّق العمّال بالجبال والبلاد[٢].

أولاً: تتبعه لقتلة الحسين عليه السلام والاقتصاص منهم

ذكر الطبري في تاريخه أن المختار تجرد لقتلة الحسين وأهل بيته عليهم السلام، وقال: (اطلبوهم، فإنه لا يسوغ لي الطعام والشراب، حتى أطهر الأرض منهم).

قال موسى بن عامر: فأول من بدأ به الذين وطأوا الحسين عليه السلام بخيلهم، وأنامهم على ظهورهم، وضرب سكك الحديد في أيديهم وأرجلهم، وأجرى الخيل عليهم حتى قطعتهم، وحرقهم بالنار، ثم أخذ رجلين اشتركا في دم عبد الرحمن بن عقيل بن أبي طالب وفي سلبه، كانا في الجبانة، فضرب أعناقهما، ثم أحرقهما بالنار، ثم أحضر مالك بن بشير فقتله في السوق.

ثم بعث أبا عمرة فأحاط بدار خولي بن يزيد الأصبحي، وهو حامل رأس الحسين عليه السلام إلى عبيد الله بن زياد، فخرجت امرأته إليهم وهي النوار ابنة مالك كما ذكر الطبري في تاريخه، وقيل: اسمها العيوف، وكانت محبة لأهل البيت عليهم السلام قالت: لا أدري أين هو؟ وأشارت بيدها إلى بيت الخلا، فوجدوه وعلى رأسه قوصرة، فأخذوه وقتلوه، ثم أمر بحرقه.

ثم بعث عبد الله بن كامل إلى حكيم بن الطفيل السنبسي وكان قد أخذ

---

(١) بحار الأنوار للعلامة المجلسي رحمه الله: ج٤٥، ص٣٦١.

(٢) بحار الأنوار للعلامة المجلسي رحمه الله: ج٤٥، ص٣٦٦.

سلب العباس، ورماه بسهم، فأخذوه قبل وصوله إلى المختار، ونصبوه هدفا، فرموه بالسهام.

وبعث إلى قاتل علي بن الحسين (الأكبر) عليهما السلام وهو مرة بن منقذ العبدي، وكان شيخا، فأحاطوا بداره، فخرج وبيده الرمح وهو على فرس جواد، فطعن عبيد الله بن ناجية الشبامي فصرعه، ولم تضره الطعنة، وضربه ابن كامل بالسيف فاتقاها بيده اليسرى، فأشرع فيها السيف، وتمطرت به الفرس فأفلت، ولحق بمصعب بن الزبير، وشلت يده بعد ذلك.

وأحضر زيد بن رقاد فرماه بالنبل والحجارة وأحرقه، وهرب سنان بن أنس (لعنه الله) إلى البصرة فهدم داره، ثم خرج من البصرة نحو القادسية، وكان عليه عيون، فأخبروا المختار، فأخذه بين العذيب والقادسية، فقطع أنامله، ثم يديه ورجليه، وأغلى زيتا في قدر وألقاه فيه.

وهرب عبد الله بن عقبة الغنوي إلى الجزيرة فهدم داره، وفيه وفي حرملة بن الكاهل (لعنه الله) وقد قتل واحدا من أصحاب الحسين عليه السلام يقول الشاعر:

وعند غني قطرة من دمائنا   وفي أسد أخرى تعد وتذكر

حدث المنهال بن عمرو قال: دخلت على زين العابدين عليه السلام أودعه وأنا أريد الانصراف من مكة، فقال: يا منهال، ما فعل حرملة بن كاهل؟ وكان معي بشر بن غالب الأسدي، فقلت: هو حي بالكوفة، فرفع يديه، وقال: اللهم أذقه حر الحديد، اللهم أذقه حر الحديد، اللهم أذقه حر النار. قال المنهال: وقدمت إلى الكوفة والمختار بها فركبت إليه، فلقيته خارجا من داره، فقال: يا منهال، ألم

تشركنا في ولايتنا هذه؟ فعرفته أني كنت بمكة، فمشى حتى أتى الكناس، ووقف كأنه ينتظر شيئا، فلم يلبث أن جاء قوم، فقالوا: أبشر أيها الأمير فقد اخذ حرملة، فجيء به، فقال: لعنك الله، الحمد لله الذي أمكنني منك، الجزار، الجزار، فأتي بجزار، فأمره بقطع يديه ورجليه، ثم قال: النار النار، فأتي بنار وقصب فاحرق.

فقلت: سبحان الله! سبحان الله! فقال: إن التسبيح لحسن، لم سبحت؟ فأخبرته بدعاء زين العابدين عليه السلام فنزل عن دابته، وصلى ركعتين، وأطال السجود، ثم ركب وسار فحاذى داري، فعزمت عليه بالنزول والتحرم بطعامي، فقال: إن علي بن الحسين عليهما السلام دعا بدعوات فأجابها الله على يدي، ثم تدعوني إلى الطعام؟ هذا يوم صوم شكرا لله تعالى، فقلت: أدام الله توفيقك.

وانهزم عبد الله بن عروة الخثعمي إلى مصعب فهدم داره، وطلب عمرو بن صبيح الصيداوي فأتوه وهو على سطحه بعدما هدأت العيون، وسيفه تحت رأسه، فأخذوه وسيفه، فقال: قبحك الله من سيف، ما أبعدك على قربك، فجيء به إلى المختار، فلما كان من الغداة طعنوه بالرماح، حتى مات.

وأنفذ إلى محمد بن الأشعث بن قيس وقد انهزم إلى قصر له في قرية إلى جنب القادسية، فقال: انطلق فإنك تجده لاهيا متصيدا، أو قائما متلبدا، أو خائفا متلددا، أو كامنا متغمدا، فائتني برأسه، فأحاطوا بالقصر، وله بابان، فخرج ومشى إلى مصعب، فهدم القصر وداره، وأخذ ما كان فيهما.

قال المرزباني: وأتوه بعبد الله بن أسيد الجهني ومالك بن هيثم البدائي،

وحمل ابن مالك المحاربي من القادسية، فقال لهم المختار: يا أعداء الله، أين الحسين بن علي عليهما السلام؟.

قالوا: أكرهنا على الخروج، قال: فألا مننتم عليه وسقيتموه من الماء؟!، وقال للبدائي: أنت أخذت برنسه؟، قال: لا، قال: بلى، وأمر بقطع يديه ورجليه، والآخران ضرب أعناقهما.

وأتوه ببجدل بن سليم الكلبي، وعرفوه أنه أخذ خاتمه، وقطع إصبعه، فأمر بقطع يديه ورجليه، فلم يزل ينزف دما حتى مات، وأتوه برقاد بن مالك وعمر بن خالد وعبد الرحمان البجلي وعبد الله بن قيس الخولاني، فقال المختار يا قتلة الصالحين، لقد أخذتم الورس في يوم نحس، وكان في رحل الحسين عليه السلام ورس فاقتسموه وقت نهب رحله عليه السلام، فأخرجهم إلى السوق وضرب أعناقهم.

وكان أسماء بن خارجة الفزاري ممن سعى في قتل مسلم بن عقيل عليه السلام، فقال المختار: أما ورب السماء ورب الضياء والظلماء، لتنزلن نار من السماء، دهماء، حمراء، سحماء، تحرق دار أسماء، فبلغ كلامه إليه، فقال: سجع أبو إسحاق، وليس هاهنا مقام بعد هذا، وخرج من داره هاربا إلى البادية، فهدم داره ودور بني عمه.

وكان الشمر بن ذي الجوشن (لعنه الله) قد أخذ من الإبل التي كانت تحت رحل الحسين عليه السلام فنحرها، وقسم لحمها على قوم من أهل الكوفة، فأمر المختار فأحصوا كل دار دخلها ذلك اللحم، فقتل أهلها وهدمها، ولم يزل المختار يتتبع قتلة الحسين عليه السلام حتى قتل خلقا كثيرا، وانهزم الباقون، فهدم دورهم، وأنزلهم بعد المعاقل والحصون، إلى المفاوز والصحون.

قال: وقتلت العبيد مواليها، وجاءوا إلى المختار فأعتقهم، وكان العبد يسعى بمولاه فيقتله المختار، حتى أن العبد ليقول لسيده: احملني على عنقك فيحمله، ويدلي رجليه على صدره إهانة له ولخوفه من سعايته به إلى المختار[1].

قال ابن نما الحلي: فيا لها من منقبة حازها، ونوبة أحرزها، فقد سر النبي صلى الله عليه وآله وسلم بفعله، وإدخاله الفرح على عترته وأهله عليهم السلام، وقد قلت هذه الأبيات مع كلال الخاطر، وقذى الناظر:

ثانيا: قتله لشمر بن ذي الجوشن (لعنه الله)

لم تستقر الكوفة كثيرا بعد تولي المختار الإمارة فسرعان ما تحزب قتلة آل البيت عليهم السلام للغدر به بعد أن خرج من الكوفة إبراهيم بن مالك الأشتر لقتال عبيد الله بن زياد الذي التجأ إلى أحضان عبد الملك بن مروان في الشام، وكان أهل الكوفة قد عزموا على الفتك بالمختار الذي علم حالهم وما عزموا عليه فبعث خلف إبراهيم بن مالك الأشتر يأمره بالعودة سريعا فرجع إبراهيم ووقعت معركة طاحنة استطاع فيها المختار وإبراهيم بن مالك الأشتر من القضاء على هذه الزمر وفر منهم جماعة خارج الكوفة كان من ضمنهم شمر بن ذي الجوشن مع بعض أصحابه.

أما من لم يفر منهم فقد التجأ إلى داره ظناً منهم أن المختار سيتركهم لكنه أخرجهم من دورهم مع من أسر منهم أثناء المعركة وكانوا خمسمائة أسير فجاء بهم جند المختار وعرضوهم عليه.

---

(١) ذوب النضار لابن نما الحلي: ص١٤٥. البحار للمجلسي: ج٤٥، ص٣٧٧.

فقال: كل من شهد منهم قتل الحسين عليه السلام فأعلموني به، فلا يؤتى بمن حضر قتله عليه السلام إلا ضرب عنقه، حتى قتل منهم مائتين وثمانية وأربعين رجلا وقتل المختار جمعا كثيرا بغير علمه وأطلق الباقين ممن لم يشهدوا قتل الحسين عليه السلام.

ثم علم المختار أن شمر بن ذي الجوشن (لعنه الله) خرج هاربا ومعه نفر ممن شرك في قتل الحسين عليه السلام فأمر عبدا له أسود يقال له رزين، وقيل: زربي، ومعه عشرة ـ وكان شجاعا ـ يتبعه فيأتيه برأسه.

قال مسلم بن عبد الله الضبابي: كنت مع شمر حين هزمنا المختار، فدنا منا العبد، فقال شمر: اركضوا وتباعدوا لعل العبد يطمع فيّ، فأمعنا في التباعد عنه، حتى لحقه العبد فحمل عليه شمر فقتله، ومشى فنزل في جانب قرية اسمها الكلتانية على شاطئ نهر إلى جانب تل، ثم أخذ من القرية علجا فضربه، ودفع إليه كتابا، وقال: عجل به إلى مصعب بن الزبير، وكان عنوانه: (للأمير مصعب بن الزبير من شمر بن ذي الجوشن)، فمشى العلج حتى دخل قرية فيها أبو عمرة بعثه المختار إليها في أمر ومعه خمسمائة فارس، فأقرأ الكتاب رجلا من أصحابه، وقرأ عنوانه، فسأل عن شمر وأين هو، فأخبره أن بينهم وبينه ثلاثة فراسخ.

قال مسلم بن عبد الله: قلت لشمر: لو ارتحلت من هذا المكان فانا نتخوف عليك.

فقال: ويلكم أكل هذا الجزع من الكذاب؟، والله لا برحت فيه ثلاثة أيام، فبينما نحن في أول النوم، إذ أشرفت علينا الخيل من التل وأحاطوا بنا، وهو عريان مؤتزرا بمنديل، فانهزمنا وتركناه، فأخذ سيفه ودنا منهم، وهو يقول:

نبهتمـــوا ليثـــا هزبـــرا باســـلا ‏ ‏ جهمـــا محيـــاه يـــدق الكـــاهلا

لـــم يـــك يومـــا مـــن عـــدو نـــاكلا ‏ ‏ إلا كـــذا مقـــاتلا أو قـــاتلا

يبـــرحهم ضـــربا ويـــروي العـــاملا

فلم يك بأسرع أن سمعنا: قتل الخبيث، قتله أبو عمرة، وقتل أصحابه، ثم جيء بالرؤوس إلى المختار، فخر ساجدا، ونصب الرؤوس في رحبة الحذائين حذاء الجامع.

ثالثا: قتله لعمر بن سعد بن أبي وقاص (لعنه الله) قائد الجيش في يوم عاشوراء

بعد أن أقام المختار رحمه الله الحد على قتلة ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم انعطف إلى ملاحقة قائد جيش المنافقين في يوم عاشوراء عمر بن سعد بن أبي وقاص فتمكن منه فقتله وقتل معه ولده حفص، وسيمر لاحقا كيفية وقوع ذلك في دعاء الإمام عليه السلام على عمر بن سعد حينما خرج علي الأكبر عليه السلام للقتال لينكشف للمسلمين ـ وكل من يقرأ التاريخ الإسلامي ـ أن الأثر الغيبي في دعاء الإمام المعصوم عليه السلام هو حقيقة عملية لا يمكن لعاقل نكرانها إلا من سلب العقلانية فانحدر إلى الحيوانية بل أضل سبيلا.

رابعا: قتله لوالي الكوفة عبيد الله بن زياد (لعنه الله) مع رموز جيش أهل الشام الذين اشتركوا في قتال الحسين عليه السلام

حينما تمكن المختار من القضاء على أعداء الله تعالى توجه للقصاص من عبيد الله بن زياد (عليه لعنة الله) فعزم على توجيه إبراهيم الأشتر مع أنصاره إلى الشام إلى ملجأ ابن زياد.

قال المؤرخون: (إنّ المختار قال: لم يبق عليّ أعظم من عبيد الله بن زياد، فأحضر إبراهيم بن مالك الأشتر، وأمره بالمسير إلى عبيد الله بن زياد.

وكان عبيد الله بن زياد قد علم بقدوم إبراهيم، فرحل في ثلاثة وثمانين ألفا حتى نزل قريبا من عسكر العراق، وطلبهم أشد الطلب، وجاءهم في جحفل لجب.

وكان مع إبراهيم بن مالك الأشتر أقل من عشرين ألفا، وكان في عسكر الشام من أشراف بني سليم عمير بن الحباب، فراسله إبراهيم بن مالك ووعده بالحباء والإكرام، فجاء ومعه ألف فارس من بني عمه وأقاربه، فصار مع عسكر العراق، فأشار عليهم بتعجيل القتال وترك المطاولة.

فلما كان في السحر صلوا بغلس، وعبأ إبراهيم بن مالك أصحابه، فجعل على ميمنته سفيان بن يزيد الأزدي، وعلى ميسرته علي بن مالك الجشمي، وعلى الخيل الطفيل بن لقيط النخعي، وعلى الرجالة مزاحم بن مالك السكوني، ثم زحفوا حتى أشرفوا على أهل الشام، ولم يظنوا أنهم يقدمون عليهم لكثرتهم، فبادروا إلى تعبئة عسكرهم، فجعل عبيد الله على ميمنته شرحبيل بن ذي الكلاع، وعلى ميسرته ربيعة بن مخارق الغنوي، وعلى جناح ميسرته جميل بن عبد الله الغنمي، وفي القلب الحصين بن نمير.

ووقف العسكران، والتقى الجمعان، فخرج ابن ضبعان الكلبي ونادى: يا شيعة المختار الكذاب، يا شيعة ابن الأشتر المرتاب:

أنا ابن ضبعان الكريم المفضل ... من عصبة يبرون من دين علي

كذاك كانوا في الزمان الأول

فخرج إليه الأحوص بن شداد الهمداني، وهو يقول:

أنا ابن شداد على دين علي	لست لعثمان بن أروى بولي
لأصلين القوم فيمن يصطلي	بحر نار الحرب حتى تنجلي

فقال للشامي: ما اسمك؟.

قال: منازل الأبطال، قال له الأحوص: وأنا مقرب الآجال، ثم حمل عليه وضربه فسقط قتيلا.

ثم نادى: هل من مبارز؟.

فخرج إليه داود الدمشقي، وهو يقول:

أنا ابن من قاتل في صفينا	قتال قرن لم يكن غبينا
بل كان فيها بطلا جرونا	مجربا لدى الوغى كمينا

فأجابه الأحوص يقول:

يا ابن الذي قاتل في صفينا	ولم يكن في دينه غبينا
كذبت قد كنت بها مغبونا	مذبذبا في أمره مفتونا
لا يعرف الحق ولا اليقينا	بؤسا له لقد مضى ملعونا

ثم التقيا فضربه الأحوص فقتله، ثم عاد إلى صفه وخرج الحصين بن نمير السكوني، وهو يقول:

يا قادة الكوفة أهل المنكر	وشيعة المختار وابن الأشتر
هل فيكم قرم كريم العنصر	مهذب في قومه بمفخر

يبرز نحوي قاصدا لا يمتري؟

فخرج إليه شريك بن خزيم التغلبي، وهو يقول:

يا قاتل الشيخ الكريم الأزهر	بكربلا يوم التقاء العسكر
أعني حسينا ذا الثنا والمفخر	ابن النبي الطاهر المطهر
وابن علي البطل المظفر	هذا فخذها من هزبر قسور

ضربة قوم ربعي مضري

فالتقا بضربتين فجدله التغلبي صريعا، فدخل على أهل الشام من أهل العراق مدخل عظيم.

ثم تقدم إبراهيم بن مالك الأشتر، ونادى: ألا يا شرطة الله، ألا يا شيعة الحق، ألا يا أنصار الدين، قاتلوا المحلين وأولاد القاسطين، ولا تطلبوا أثرا بعد عين، هذا عبيد الله بن زياد قاتل الحسين عليه السلام، ثم حمل على أهل الشام، وضرب فيهم بسيفه، وهو يقول:

قد علمت مذحج علما لا خطل	اني إذا القرن لقيني لا وكل
ولا جزوع عندها ولا نكل	أروع مقدام إذا النكس فشل
أضرب في القوم وان حان الأجل	هذا فخذها من هزبر قسور

بالذكر البتار حتى ينجدل

وحمل أهل العراق معه واختلطوا، ثم انجلت الحرب، وقد قتل أعيان أهل الشام، مثل الحصين بن نمير، وشرحبيل بن ذي الكلاع، وابن حوشب، وغالب الباهلي، وأشرس بن عبد الله الذي كان واليا على خراسان.

وحاز إبراهيم بن مالك الأشتر (رحمة الله عليه) فضيلة هذا الفتح، وعاقبة هذا المنح، الذي انتشر في الأقطار، ودام دوام الاعصار، ولقد أحسن عبد الله بن

الزبير الأسدي يمدح إبراهيم بن مالك الأشتر، فقال:

الله أعطــاك المهابــة والتقـــى	وأحـل بيتـك فـي العديـد الأكثـر
وأقــر عينــك يــوم وقعــة خــازر	والخيل تعثـر في القنـا المتكسر
مـــن ظـــالمين كفــتهم أيــامهم	تركـــوا لحاجلـــة وطيـــر أعثـــر
مــا كـان أجـرأهم جـزاهم ربهـم	يـوم الحساب على ارتكاب المنكر

قال الرواة: رأينا إبراهيم بعدما انكسر العسكر، وانكشف العثير، قوما منهم ثبتوا وصبروا وقاتلوا فلقطهم من صهوات الخيل، وقذفهم في لهوات الليل حتى صبغت الأرض من دمائهم ثيابا حمرا، وملا الفجاج ببأسه ذعرا، وتساقطت النسور، وأهوت العقبان على أجسادهم وهي كالعقيق المنثور، واصطلح على أكل لحومهم الذئب والسبع، والسيد والضبع.

قال إبراهيم بن مالك: واقبل رجل أحمر في كبكبة يغري الناس كأنه بغل أقمر لا يدنو منه فارس إلا صرعه، ولا كمي إلا قطعه، فدنا مني، فضربت يده فأبنتها، وسقط على شاطئ الخازر، فشرقت يداه، وغربت رجلاه، فقتلته، ووجدت رائحة المسك تفوح منه، وجاء رجل نزع خفيه، وظنوا أنه ابن زياد من غير تحقيق، فطلبوه فإذا هو على ما وصف إبراهيم، فاحتزوا رأسه، واحتفظوا طول الليل بجسده، فلما أصبحوا عرفه مهران مولى زياد، فلما رآه إبراهيم بن مالك قال: الحمد لله الذي أجرى قتله على يدي، وقتل في صفر.

وقال قوم من أهل الحديث: في يوم عاشوراء وعمره دون الأربعين، وقيل: تسع وثلاثون سنة، وأصبح الناس فحووا ما كان، وغنموا غنيمة عظيمة، ولقد

أجاد أبو السفاح الزبيدي بمدحته إبراهيم بن مالك وهجائه ابن زياد ــ لعنه الله ــ فقال:

أتاكم غلام من عرانين مذحج ... جري على الأعداء غير نكول
أتاه عبيد الله في شر عصبة ... من الشام لما أن رضوا بقليل
فلما التقى الجمعان في حومة الوغى ... وللموت فيهم ثم جر ذيول
فأصبحت قد ودعت هندا ... وأصبحت مولهة ما وجدها بقليل
وأخلق بهند أن تساق سبية ... لها من أبي إسحاق شر خليل
تولى عبيد الله خوفا من الردى ... تغشاه ماضي الشفرتين صقيل
جزى الله خيرا شرطة الله انهم ... شفوا بعبيد الله كل غليل

يعني بقوله هند بنت أسماء بن خارجة زوجة عبيد الله بن زياد لما قتل حملها عتبة أخوها إلى الكوفة، وبقوله أبي إسحاق هو المختار، وهرب غلام لعبيد الله بن زياد إلى الشام، فسأله عبد الملك بن مروان عنه، قال: لما جال الناس تقدم فقاتل، ثم قال: ائتني بجرة فيها ماء، فاتيته فشرب وصب الماء بين درعه وجسده، وصب على ناصية فرسه، ثم حمل، فهذا آخر عهدي به.

قال يزيد بن مفرغ يهجو ابن زياد ـ لعنه الله ـ:

ان المنايا إذا حاولن طاغية ... هتكن عنه ستورا بعد أبواب
ان الذي عاش غدارا بذمته ... ومات هزلا قتيل الله بالزاب
ما شق جيب ولا ناحتك نائحة ... ولا بكتك جياد عند أسلاب
هلا جموع نزار إذ لقيتهم ... كنت أمرا من نزار غير مرتاب
أو حمير كنت قبلا من ذوي يمن ... أن المقاويل في ملك وأحباب

وكان المختار قد سار من الكوفة يتطلع أحوال إبراهيم بن مالك، واستخلف على الكوفة السائب بن مالك، فنزل ساباط، ثم دخل المدائن ورقى المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، وأمر الناس بالجد في النهوض إلى إبراهيم.

قال الشعبي: كنت معه فاتته البشرى بقتل عبيد الله بن زياد وأصحابه، فكاد يطير فرحا، ورجع إلى الكوفة في الحال مسرورا بالظفر.

وذكر أبو السائب عن أحمد بن بشير، عن مجالد، عن عامر أنه قال: الشيعة يتهموني ببغض علي عليه السلام ولقد رأيت في النوم بعد مقتل الحسين عليه السلام كأن رجالا نزلوا من السماء، عليهم ثياب خضر، معهم حراب يتبعون قتلة الحسين عليه السلام فما لبث أن خرج المختار فقتلهم.

وذكر عمر بن شبة، قال: حدثني أبو أحمد الزبيري، عن عمه، قال: قال أبو عمر البزاز:

كنت مع إبراهيم بن مالك الأشتر لما لقي عبيد الله بن زياد (لعنه الله) بالخازر، فعددنا القتلى بالقصب لكثرتهم، قيل: كانوا سبعين ألفا، وصلب إبراهيم ابن زياد منكسا فكأني أنظر إلى خصييه كأنهما جعلان.

وعن الشعبي أنه لم يقتل قط من أهل الشام بعد صفين مثل هذه الوقعة بالخازر، وقال الشعبي:

كانت الوقعة يوم عاشوراء سنة سبع وستين ـ وهذا من عجيب حكمة الله تعالى في أن يقتل عبيد الله بن زياد في نفس اليوم الذي استشهد فيه الإمام الحسين عليه السلام وأن يرى الناس تحقق الأثر الغيبي في دعاء الشهداء على أعدائه.

وبعث إبراهيم بن مالك برأس عبيد الله بن زياد (لعنه الله) ورؤوس الرؤساء من أهل الشام وفي آذانهم رقاع أسمائهم، فقدموا على المختار وهو يتغدى، فحمد الله ـ تعالى ـ على الظفر.

فلما فرغ من الغداء قام فوطئ وجه ابن زياد بنعله، ثم رمى بها إلى غلامه، وقال: اغسلها فاني وضعتها على وجه نجس كافر.

وعن أبي الطفيل عامر بن واثلة الكناني قال: وضعت الرؤوس عند السدة بالكوفة، عليها ثوب أبيض، فكشفنا عنها الثوب، وحية تتغلغل في رأس عبيد الله بن زياد، ونصبت الرؤوس في الرحبة، قال عامر: ورأيت الحية تدخل في منافذ رأسه وهو مصلوب مرارا.

ثم حمل المختار رأسه ورؤوس القواد إلى مكة مع عبد الرحمان بن أبي عمير الثقفي، وعبد الرحمان بن شداد الجشمي، وأنس بن مالك الأشعري، وقيل: السائب بن مالك، ومعها ثلاثون ألف دينار إلى محمد بن الحنفية، وكتب معهم: (أني بعثت أنصاركم وشيعتكم إلى عدوكم، فخرجوا محتسبين أسفين، فقتلوهم، فالحمد لله الذي أدرك لكم الثأر، وأهلكهم في كل فج سحيق، وغرقهم في كل بحر عميق، وشفى الله صدور قوم مؤمنين.

فقدموا بالكتاب والرؤوس والمال عليه، فلمّا رآها خر ساجدا، ودعا للمختار، وقال: جزاه الله خير الجزاء، فقد أدرك لنا ثأرنا، ووجب حقه على كل من ولده عبد المطلب بن هاشم، اللهم واحفظ إبراهيم بن الأشتر وانصره على الأعداء، ووفقه لما تحب وترضى، واغفر له في الآخرة والأولى.

فبعث رأس عبيد الله بن زياد إلى علي بن الحسين عليه السلام فادخل عليه وهو يتغدى، فسجد شكرا لله تعالى وقال:

«الحمد لله الذي أدرك لي ثأري من عدوي، وجزى الله المختار خيرا».

ثم قال عليه السلام:

«أُدخلت على عبيد الله بن زياد وهو يتغدى ورأس أبي بين يديه، فقلت: اللهم لا تمتني حتى تريني رأس ابن زياد».

وقسم محمد المال في أهله وشيعته بمكة والمدينة على أولاد المهاجرين والأنصار، وروى المرزباني بإسناده عن جعفر بن محمد الصادق عليهما السلام أنه قال:

«ما اكتحلت هاشمية ولا اختضبت، ولا رئي في دار هاشمي دخان خمس حجج حتى قتل عبيد الله بن زياد (لعنه الله)».

وعن عبد الله بن محمد بن أبي سعيد، عن أبي العيناء، عن يحيى بن راشد، قال: قالت فاطمة بنت علي: (ما تحنأت امرأة منا، ولا أجالت في عينها مرودا، ولا امتشطت حتى بعث المختار رأس عبيد الله بن زياد).

وروي:

(أن المختار قتل ثمانية عشر ألفاً ممن شرك في قتل الحسين عليه السلام أيام ولايته وكانت ثمانية عشر شهراً أولها أربع عشرة ليلة من ربيع الأول سنة ست وستين، وآخرها النصف من شهر رمضان من سنة سبع وستين، وعمره سبع وستون سنة)[1].

---

(١) ذوب النضار لابن نما الحلي: ص١٣٢ـ١٤٥.

الحلقة الثانية: إن الله تعالى سلط عليهم سنين كسني يوسف عليه السلام

ويمكن لنا معرفة آثار دعاء الإمام الحسين عليه السلام الكاشف عن تحقق السنن الكونية الملازمة لوقوع الأفعال الإجرامية ـ التي يعبر عنها في الثقافة القرآنية بالآثام والذنوب والفواحش ـ من خلال الحركة التاريخية لحوادث أرض السواد أو العراق، وما آلت إليه الحالة الاقتصادية والاجتماعية بعد عام الفاجعة النبوية بقتل ابن النبي صلى الله عليه وآله وسلم على أرض العراق.

أولاً: عجز خزينة الدولة وتردي الوضع الاقتصادي

إنّ المقارنة بين الواردات المالية التي كانت تجبى عام (٣٠) للهجرة وبين عام (١٣٢) للهجرة الذي شهد أواخر الدولة الأموية تدل على نفوذ السنن التاريخية (الكونية) في سلوكيات المجتمع المسلم بعد تلك الفاجعة وحسبما حدده الإمام الحسين عليه السلام في حبس الأمطار وانتشار القحط.

ويمكن معرفة ذلك من خلال ما جمعه الدكتور حمدان عبد المجيد من روايات حول تعداد واردات العراق المالية منذ عهد عمر بن الخطاب إلى أواخر الدولة الأموية، فقال: «تتواتر الروايات التاريخية وتصبح أكثر وضوحاً عندما تتناول خراج سواد العراق. ولعل الفضل في ذلك يعود إلى الفقيه أبي يوسف الذي وضع كتابه «الخراج» في وقت مبكر، وضمّنه روايات واضحة ودقيقة وموثقة، عن حكم أراضي الخراج، وأنواعها وعن المبالغ التي جبيت من الأراضي الخراجية. وفي هذا الصدد نقل لنا أبو يوسف رواية ميمون بن مهران التي تبين أن الخليفة عمر بن الخطاب: «كان يجبي العراق كل سنة مائة ألف ألف أوقية»[١] فضة.

(١) الخراج، أبو يوسف: ص١١٤.

فإذا علمنا أن الأوقية كانت، في صدر الإسلام، تساوي أربعين درهماً[١] تكون موارد العراق (٤,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠) درهم. ويرجح أن أبا يوسف قصد بهذا المقدار كل موارد العراق ومن ضمنها الخراج[٢].

وتشير الرواية التي أوردها (ابن زنجويه) إلى أن المسؤولين في العراق حملوا من خراج الكوفة في عهد الخليفة عمر بن الخطاب، أول سنة (ثمانين ألف ألف درهم)، ثم حملوا في السنة التالية (مائة وعشرين مليون درهم)[٣].

وذكر اليعقوبي أن الثمانين مليون درهم التي وردت إلى بيت المال في عهد الخليفة عمر هي موارد خراج السواد[٤]. ولم يحدّد في روايته هذه أن الذي حُمل هو من سواد الكوفة أو غيرها. لكنه استدرك في الصحفة التالية؛ فذكر أن الخليفة عمر بعث إلى والي البصرة أبي موسى الأشعري يطلب منه أن يضع على أراضي البصرة الزراعية، من الخراج، مثل ما وضع عثمان بن حنيف على أراضي الكوفة[٥].

وهذا ما يؤكد أن الثمانين مليون درهم كانت من سواد الكوفة فقط. ويضيف اليعقوبي أن عثمان بن حنيف استمر يرسل إلى المدينة المنورة، في كل سنة من خراج الكوفة، ما بين عشرين مليون درهم إلى ثلاثين مليون درهم[٦].

---

(١) المكاييل والأوزان الإسلامية لهنتز: ص١٦.

(٢) الخراج أحكامه ومقاديره، د. حمدان عبدالمجيد: ص١٤٢.

(٣) الخراج أحكامه ومقاديره، د. حمدان عبدالمجيد: ص١٤٢.

(٤) المصدر السابق.

(٥) تاريخ اليعقوبي: ج٢، ص١٤٢.

(٦) المصدر السابق: ص١٤٣.

وهنا نجد انخفاضاً كبيراً في موارد سواد الكوفة، ولعل ذلك متأتٍّ من كثرة النفقات الراتبة، وحصول تغيير في الوحدات الإدارية.

ومهما يكن من أمر، فإن روايات ابن زنجويه أكّدت أن موارد خراج سواد العراق زادت حتى بلغت مائة وعشرين مليون درهم[١].

ويمكن القول: إن الروايات التاريخية تصبح أكثر وضوحاً، وبخاصة عندما أخذت تشير إلى مجمل خراج السواد بحيث لا تجزّئه. فروايات اليعقوبي والماوردي أشارت إلى أن خراج السواد على عهد الخليفة عمر بن الخطاب بلغ مائة ألف ألف وعشرين ألف ألف درهم[٢].

في حين أشارت رواية ابن خرداذبة إلى أن خراج السواد بلغ في عهد الخليفة عمر بن الخطاب مائة وثمانية وعشرين مليون درهم[٣]. وهذا المقدار متطابق مع ما أوردته رواية ابن حوقل[٤].

ورواية ابن رستة[٥] وياقوت[٦]. ويورد قدامة رواية مخالفة للمقادير المشار إليها آنفاً، إذ يقول: إن وارد السواد بلغ مائة وثلاثين مليون درهم[٧].

---

(١) الأموال، ابن زنجويه: ج١، ص٢١٣.

(٢) تاريخ اليعقوبي: ج٢، ص٢٢١. الأحكام السلطانية، الماوردي: ص١٧٥.

(٣) المسالك والممالك، ابن خرداذبة: ص١٤ ـ ١٥.

(٤) صورة الأرض، ابن حوقل: ص٢١١.

(٥) الأعلاق النفسية، ابن رستة: ص١٠٥.

(٦) البلدان، ياقوت: ج٣، ص١٧٨.

(٧) الخراج، قدامة: ص١٨٢.

وذكر الصولي أن جباية السواد بلغت مائة ألف ألف درهم في عهد الخليفة عثمان بن عفان[١].

وجباه الوالي عبيد الله بن زياد مائة ألف ألف وخمسة وثلاثين ألف ألف درهم، حمل منها إلى الخليفة معاوية بن أبي سفيان ستة ملايين درهم، وجباه والي العراق الحجاج بن يوسف الثقفي مائة ألف ألف وثمانية عشر ألف ألف. في حين كانت جباية السواد في عهد الخليفة عمر بن عبدالعزيز، بحسب رواية الماوردي مائة ألف ألف وعشرين ألف ألف درهم[٢].

بينما أشارت رواية ابن خرداذبة إلى أن موارد جباية السواد في عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز بلغت مائة وأربعة وعشرين مليون درهم[٣].

وهذا المقدار يقل بأربعة ملايين درهم عن المبلغ الذي أورده ابن حوقل، الذي ذكر أن جباية السواد في عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز بلغت مائة ألف ألف وثمانية وعشرين ألف ألف درهم[٤].

ويذكر الماوردي أن الوالي عمر بن هبيرة كان يجْبي من السواد مائة ألف ألف درهم سوى طعام الجند وأرزاق المُقاتلة. وفي أواخر العصر الأموي انخفض وارد السواد بحيث أصبح الوالي يوسف بن عمر الثقفي يجمع منه، في كل سنة، من ستين ألف ألف إلى سبعين ألف ألف درهم، ويحتسب بعطاء مَنْ قَبِلَه من جند أهل

---

(١) أدب الكاتب، الصولي: ص٢١٩.

(٢) الأحكام السلطانية، الماوردي: ص١٧٥ ـ ١٧٦.

(٣) المسالك والممالك، ابن خرداذبة: ص١٤ ـ ١٥.

(٤) صورة الأرض، ابن حوقل: ص٢١١.

الشام ستة عشر ألف ألف، وفي نفقة البريد أربعة آلاف ألف درهم، وفي الطوارق ألف ألف درهم، ويبقى في بيوت الأحداث والعواتق عشرة آلاف ألف درهم[١].

وفي رواية عبد الرحمن بن جعفر بن سليمان التي أوردها (الماوردي) أن وارد السواد كان «ألف ألف ألف ثلاث مرات»[٢]، عندما كانت الأراضي تُستثمر استثماراً جيداً. وإذا اعتمدنا الوسط بين الستين والسبعين ألفاً في الرواية السابقة يكون مقدار الخراج في زمن الوالي يوسف بن عمر الثقفي ستة وسبعين مليون درهم. ولعل انفراط حبل الأمن، وانتقال ملكية بعض الأراضي الخراجية إلى المسلمين، ودفع العُشر عنها بدل الخراج، لعل ذلك كله يكون وراء هذا العجز الذي حصل في موارد السواد»[٣].

ونقول: إلا أن الباحث لم يضع يده على موضع الجرح في انخفاض الواردات المالية وعجز ميزانية الدولة وتردي الوضع الاقتصادي وانعكاساتها على الوضع الاجتماعي والنفسي للفرد المسلم، فهو لم يلحظ التلازم بين انتهاك حرمة الأنبياء عليهم السلام، وتردي الوضع الاقتصادي والاجتماعي والبيئي في عرض القرآن والتاريخ للسنن التاريخية التي سلكتها الأمم السالفة في دورة حياتها. فلكل زمن من الأزمنة الغابرة واللاحقة شواهد تجد بعضها تنطق بلسان فصيح لذوي الألباب عن آثار انتهاك الحدود الإلهية مع اختلاف الرؤى والمفاهيم والقراءات لهذه الحوادث، التي لا يمكن أن يغيب عن حاضرها الأثر الغيبي الذي اختلفت مسمياته

(١) الأحكام السلطانية، الماوردي: ص ١٧٥ ـ ١٧٦.

(٢) المصدر السابق: ص١٧٣ ـ ١٧٤.

(٣) الخراج أحكامه ومقاديره، د. حمدان عبد المجيد الكبيسي: ص ١٤٢ ـ ١٤٥.

بين قوى الإله أو قوى السماء أو قوى الطبيعة أو قوى السنن الإلهية التي نؤمن بها وجاء بها القرآن الكريم.

فمثلما ابتليت أمم كثيرة بتردي حالها؛ وانهيار مجتمعاتها بفعل معتقداتها وسلوكياتها المخالفة للحدود والقيم السماوية التي جاء بها الأنبياء عليهم السلام، فان هذه الأمة قد سلكت تلك المسالك التي أدت بها ـ كما في غيرها ـ إلى المهالك؛ وما قتل نبي الله يحيى عليه السلام وحمل رأسه وإهداؤه إلى بغي من بغايا بني إسرائيل إلا عاملٌ أساسٌ في قتل بني إسرائيل وتشريدهم وإذلالهم فيما بعد.

﴿ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾[1].

وما أشبه اليوم بالأمس! فالمسلمون اليوم يقتلون ابن بنت نبيهم، ويحملون رأسه إلى بغي من البغايا وجبار من الجبابرة، فكيف لهم ان ينفلتوا عن العذاب الإلهي، أو أنْ ينجوا من نفوذ السنن الإلهية التي كانت منبعاً للأفعال الصادرة عن هذا الكائن الذي يسمّى الإنسان.

نعم: السبب في عجز ميزانية الدولة وتردي الحالة الاقتصادية والاجتماعية بعد فاجعة الطف كان سببه تحقق سنن الله في خلقه، مثلما تحققت في قوم نوح وصالح ولوط وغيرهم من الأنبياء (سلام الله عليهم أجمعين).

ثانياً: فرض الضرائب على الناس وتعذيبهم وسجنهم على ذلك

لم يمضِ عقدان على فاجعة النبوة بقتل ابن النبي صلى الله عليه وآله وسلم عام (٦١) للهجرة، حتى أتتْ حكومة بني مروان، لتذيق الناس ـ عرباً وموالي؛ مسلمين وذميين ـ الأمرين، ولاسيما في تولي الحجاج بن يوسف العراق، فقد فرض الضريبة على

---

(١) سورة الفتح، الآية: ٢٣.

الناس بالقوة والسلطة ولم يستثنِ أحداً من أشراف العرب أو من وضعائها من الذميين أو الموالي؛ وكان يعذبهم على أخذ الخراج ويسجنهم لدفع الضرائب؛ يدل على ذلك قول يزيد بن المهلب حين أراد سليمان بن عبد الملك أن يوليه العراق وخراجها فقال: «إنّ العراق قد أخرجها الحجاج، وأنا اليوم رجل العراق، ومتى قدمتها وأخذت الناس بالخراج وعذبتهم على ذلك، صرت مثل الحجاج وأعدت عليهم السجون وما عافاهم الله منه، ومتى لم آت سليمان ـ بن عبد الملك بن مروان ـ بمثل ما كان الحجاج أتى به لم يقبل مني»[1] فامتنع عن تولي امارة العراق.

ثالثاً: فرار المسلمين من القرى الزراعية إلى المدن بسبب الضرائب وعجزهم عن دفعها

تشير إحدى النصوص التاريخية إلى هجرة الموالين من الفرس بعد إسلامهم من أرض السواد، أي الأراضي الزراعية وانتقالهم إلى المدن الإسلامية الأخرى.

فقد روى الطبري عن أبي شوذب «أن عمال الحجاج كتبوا إليه: إن الخراج قد انكسر وان أهل الذمة قد أسلموا ولحقوا بالأمصار»[2].

وتكشف هذه الرواية عن سوء أحوال الزراعة في العراق، بسبب ما تفرضه الدولة من ضرائب على الفلاحين، مما أدى إلى عجزهم عن تسديد هذه الضرائب وما يخلفها من تعذيب وسجن، ففضلوا الهروب إلى المدن فانخفضت بذلك الأموال التي كانت تجبى من أرض العراق.

---

(١) الكامل في التاريخ لابن أثير: ج٥، ص٢٣. وفيات الأعيان لابن خلكان: ج٦، ص٢٩٦.

(٢) تاريخ الطبري: ج٥، ص١٨٢. الكافي في التاريخ لابن أثير: ج٤، ص٣٦٥.

رابعاً: فرض الدولة الجزية على أهل الذمة حتى بعد إسلامهم مع مخالفة ذلك للقرآن

من الشواهد التي أظهرت تردي الأوضاع في العراق، فكانت كسني يوسف عليه السلام، هو فرض الدولة الأموية الجزية على الموالي الفرس حتى بعد إسلامهم في مخالفة أخرى للقيم القرآنية، وفي سلوك جديد يضاف إلى رصيد ثقافة الهجر التي سنها بعض الصحابة حينما قالوا لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إنه يهجر.

إذ تقضي القيم القرآنية برفع الجزية عن أهل الذمة حين إسلامهم، لتساويهم مع إخوانهم المسلمين في الحقوق والواجبات، فمالهم وعرضهم ودماؤهم محرمة على بعضهم البعض، اما ان تبقى هذه الجزية والضريبة المالية على أهل الذمة حتى بعد إسلامهم، فهذا ما لم تقر به سوى شريعة ثقافة الهجر.

ويا ليت ان الأمر قد انحصر في ذلك، بل تم قتل من لم يستجب لهذا التشريع الجديد. كما تدل عليه النصوص التاريخية.

وعوداً على بدء، فحينما كتب عمال الحجاج بهجرة الموالي من القرى الزراعية وانكسار الخراج؛ كتب الحجاج إليهم ـ بكونه أحد أهم مكونات ثقافة الهجر، وأفضلهم حملاً لهذا الفكر ـ كتاباً قال فيه: «إنّ من كان له أصل في قرية فليخرج إليها»[1].

بمعنى كل من خرج من قريته فليعُدْ إليها؛ فقام أولئك الولاة فأخرجوا الناس من المدن، ولاسيما مدينة البصرة «فخرج الناس فعسكروا فجعلوا يبكون وينادون يا محمداه يا محمداه، وجعلوا لا يدرون أين يذهبون فجعل قراء أهل

---

(١) تاريخ الطبري: ج٥، ص١٨٢.

البصرة يخرجون إليهم متقنعين فيكون لما يسمعون منهم ويرون»[(١)].

ولم يجد الناس مخرجاً من هذا القرار الذي فرضته السلطة الأموية غير قدوم عبدالرحمن بن محمد بن الأشعث ـ مع جيشه من سجستان ـ[(٢)] وعزمه على تفيئة ذلك القرار. «واستبصر قراء أهل البصرة في قتال الحجاج مع عبدالرحمن بن محمد بن الأشعث»[(٣)]. فكانت النتيجة في هذه المعركة ان التجأ الحجاج إلى الخديعة فخدع الناس بالأمان ثم أمر بهم عمارة بن تيم اللخمي فقتلهم جميعاً صبراً[(٤)]، أي: عزّلاً لم يكن بيدهم سلاح.

اما عددهم فيقول ضمرة بن ربيعة الشيباني: «قتل الحجاج يوم الزاوية أحد عشر ألفاً ما استحيا منهم إلا واحداً كان ابنه في كتّاب الحجاج»[(٥)]. في حين عدد الذين قتلهم الحجاج خلال توليته العراق «مائة وعشرين أو مائة وثلاثين ألفاً»[(٦)(٧)].

وعليه: كانت هذه الأحداث هي مصداق لتحقق الأثر الغيبي في دعاء الإمام الحسين عليه السلام على جيش عمر بن سعد حينما قال: «وسلط عليهم سني كسني يوسف». فأصبح حالهم كما مرّ بيانه انفاً.

---

(١) المصدر السابق.

(٢) الخراج والنظم المالية، د. محمد ضياء الدين: ص٢١٨.

(٣) الطبري في تاريخه: ج٥، ص١٨٣.

(٤) المصدر السابق.

(٥) المصدر السابق.

(٦) المصدر السابق.

(٧) وللمزيد أنظر كتاب الأنثروبولوجيا الثقافية الإجتماعية لمجتمع الكوفة عند الإمام الحسين عليه السلام ـ السيد نبيل الحسني: ص١٦١ ـ ١٧٢.

المبحث الثاني: تحقق الأثر الغيبي الآني في دعائه عليه السلام

مثلما شهد التاريخ الإسلامي تحقق الأثر الغيبي في دعاء الإمام الحسين عليه السلام بعد عاشوراء بفترة زمنية قصيرة؛ ـ إن لم تكن مستمرة من يوم وقوع المأساة ـ فإن التاريخ شهد أيضا تحقق الأثر الغيبي في دعائه عليه السلام في يوم عاشوراء وبصورة آنية، أي: في اللحظة التي يتم فيها الإمام الحسين عليه السلام دعاءه.

وهو الأمر الذي لم يكن ليتحقق إلا في حياة الأنبياء والمرسلين وأوصيائهم عليهم السلام كما هو مبيّن في سيرتهم التاريخية سواء ما عرضها القرآن الكريم أو ما ورد عن الحبيب المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم.

ولقد كان في تحقق الأثر الغيبي الممثل بالاستجابة السريعة من الله تعالى في تحقق دعاء الإمام الحسين عليه السلام آثاره العديدة في تحديد ملامح الشخصية الإسلامية وما طرأ عليها من تغيرات فكرية وثقافية وعقائدية خلال نصف قرن، بل لقد كشفت هذه الآثار الغيبية الآنية في ساحة الطف عن حقائق تاريخية ارتبطت بنشوء الدولة الإسلامية وما أفرزته من مناهج فكرية شكلت بناءً جديداً للعقيدة الإسلامية.

ولكن قبل البدء في بيان هذه الحقائق نورد مواضع الدعاء التي ظهرت فيها الآثار الغيبية الآنية في يوم عاشوراء.

كما أن السبب الذي دفعنا إلى تقديم تحقق الأثر الغيبي بعد يوم عاشوراء على تحقق الأثر الآني هو لارتباط الأول بمصداق دعائه عليه السلام على جيش عمر بن سعد وتحديده لأنواع العذاب الذي سينزل بهم فكان منه تسليط الله عليهم غلام ثقيف.

المسألة الأولى: مواضع ظهور الأثر الغيبي الآني في يوم عاشوراء

الموضع الأول لاستجابة دعائه عليه السلام

روى الشيخ الصدوق رحمه الله: (أنّ الإمام الحسين عليه السلام: أمر بحفيرته التي ـ حفرت ـ حول عسكره فأضرمت بالنار، ليقاتل القوم من وجه واحد.

أما تحقق الأثر الغيبي الآني في دعائه فقد ظهر في مواضع محدودة في يوم عاشوراء؛ وهي كالآتي:

الشيخ الصدوق (رضي الله عنه): وأقبل رجل من عسكر عمر بن سعد على فرس له، يقال له: ابن أبي جويرية المزني، فلما نظر إلى النار تنقد صفق بيده، ونادى: يا حسين وأصحاب حسين أبشروا بالنار، فقد تعجلتموها في الدنيا!.

فقال الحسين عليه السلام:

«مَن الرجل؟».

فقيل: ابن أبي جويرية المزني. فقال الحسين عليه السلام:

«أللهم أذقه عذاب النار في الدنيا».

فنفر به فرسه وألقاه في تلك النار فاحترق)[1].

الموضع الثاني لاستجابة دعائه عليه السلام

ثم برز من عسكر عمر بن سعد رجل آخر يقال له: تميم بن حصين الفزاري، فنادى: يا حسين ويا أصحاب الحسين، أما ترون إلى ماء الفرات يلوح كأنه بطون الحيات؟ والله لا ذقتم منه قطرة حتى تذوقوا الموت جرعا.

---

(١) الأمالي للشيخ الصدوق رحمه الله: ص٢٢١.

فقال الحسين عليه السلام :

«مَن الرجل؟».

فقيل : تميم بن حصين. فقال الحسين عليه السلام :

«هذا وأبوه من أهل النار، أللهم اقتل هذا عطشاً في هذا اليوم، قال: فخنقه العطش حتى سقط عن فرسه فوطئته الخيل بسنابكها فمات»[١].

الموضع الثالث لاستجابة دعائه عليه السلام

وروى المازندراني : أن عبد الله بن حوزة التميمي أقبل من معسكر عمر بن سعد ، (فصاح : أفيكم حسين؟. وفي الثالثة ، قال أصحاب الحسين عليه السلام : هذا الحسين فما تريد منه؟. قال : يا حسين أبشر بالنار. قال الحسين عليه السلام :

«كذبت بل أقدم على رب غفور كريم مطاع شفيع، فمن أنت؟».

قال : أنا ابن حوزة. فرفع الحسين عليه السلام يديه حتى بان بياض أبطيه ، وقال :

«أللهم حزه إلى النار».

فغضب ابن حوزة وأقحم الفرس إليه وكان بينهما نهر فسقط عنها وعلقت قدمه بالركاب وجالت به الفرس وانقطعت قدمه وساقه وفخذه وبقي جانبه الآخر معلقا بالركاب وأخذت الفرس تضرب به كل حجر وشجر وألقته في النار المشتعلة في الخندق فاحترق بها ومات.

فخر الحسين ساجدا شاكرا حامدا على إجابة دعائه ثم أنه رفع صوته يقول :

«أللهم إنا أهل بيت نبيك وذريته وقرابته فاقصم من ظلمنا وغصبنا حقنا إنك سميع قريب».

---

(١) الناقب في المناقب ، ابن حمزة الطوسي : ص٣٤١. الأمالي للصدوق : ص٢٢١.

الموضع الرابع لاستجابة دعائه عليه السلام

فسمعه محمد بن الأشعث يقول ذلك، فقال له: أي قرابة بينك وبين محمد؟!!. فقال الحسين عليه السلام:

«أللهم إن محمد بن الأشعث يقول ليس بيني وبين محمد قرابة، أللهم أرني فيه هذا اليوم ذلا عاجلا».

فاستجاب الله دعاءه فخرج محمد بن الأشعث من العسكر ونزل عن فرسه لحاجته وإذا بعقرب أسود يضربه ضربة تركته متلوثا في ثيابه مما به، ومات بادي العورة[1].

فهذه الاستجابة في دعائه عليه السلام مع المواضع الأخرى كانت محلاً لظهور الأثر الغيبي الآني في يوم عاشوراء وقبل بدء المعركة، والتي غيرت بعض المفاهيم العقائدية والفكرية التي ظهرت في المجتمع الإسلامي ولاسيما أولئك الذين جاءوا لقتال الإمام الحسين عليه السلام وهو ما سنعرض له في المسائل القادمة.

المسألة الثانية: عوامل نشوء ثقافة التجري في المجتمع الإسلامي

مما يستوقف القارئ والباحث هو خروج هؤلاء إلى قتال ابن بنت نبيهم صلى الله عليه وآله وسلم وعزمهم على قتله مع أخوانه وأقاربه وأصحابه ونهب مالهم وسبي نسائهم مع ما لبعضهن من حرمة الانتساب لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم فهذه زينب بنت فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ووالدها علي بن أبي طالب أمير المؤمنين عليه السلام، وتلك أختها أم كلثوم وهذه (سكينة وفاطمة الصغرى المسماة برقية)

---

(١) مناقب آل أبي طالب عليه السلام، المازندراني: ج٣، ص٢١٤. بحار الأنوار للعلامة المجلسي: ج٤٥، ص٣٠١. مدينة المعاجز، البحراني: ج٣، ص٤٧٨. مقتل الإمام الحسين عليه السلام، المقرم: ص٢٤٠.

وهن بنات الإمام الحسين فهؤلاء النسوة لهن رحم ماسة برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فكيف يسبين كما تسبى نساء الأعاجم.

ولذلك: نحن أمام مجموعة كبيرة من الأسئلة تفرض نفسها بقوة في فهم هذه الحالة التي أصبح عليها المسلمون، فهل ارتدوا عن دينهم فانعطفوا على ذرية محمد صلى الله عليه وآله وسلم يذيقونهم أشد أنواع العذاب قتلا وتشريدا وسلبا ولا يستثنون في ذلك امرأة أو طفلا.

أو أنهم لم يؤمنوا أصلا إذ:

﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾[1].

ثم ما فائدة إسلامهم وقد هتكوا حرمة نبي الإسلام بما لم تنتهك بمثلها حرمة من أشراف العرب؟!، لا قبل الإسلام ولا بعده.

أو أن ثقافة جديدة غير ثقافة الإسلام قد زرعت في المجتمع الإسلامي خلال نصف قرن منذ وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وإلى يوم عاشوراء كان قد شب عليها الأطفال وهرم عليها الكبار هي التي سادت هذا المجتمع وقادته في كربلاء فكان واقعاً عملياً انكشفت فيه هذه الثقافة ومن أسسها وروّج لها وقادها؟!!.

أسئلة كثيرة؟ يفرضها واقع المسلمين قديماً وحاضراً ومستقبلاً مع كل قلم تدور به أنامل حامله لترسم ما يجول في فكر صاحبه من أسئلة متجددة.

---

(١) سورة الحجرات، الآية: ١٤.

إلا أنني وجدت من خلال البحث عن الإجابات لهذه الأسئلة أن الأمر يتعلق بثقافة التجري التي أنشأها البعض في المجتمع الإسلامي وعمل على تغلغلها فيه ونشرها بين مختلف طبقاته مستخدماً جميع الوسائل لتحقيق هذا الغرض، فكانت هذه الثقافة بصورها القاتمة بقتامة الدماء التي سفكت على أرض كربلاء وبرائحة الأجساد التي امتزج معها وبر الإبل المحترق بنيران جيش عمر بن سعد في هجومهم على مخيم ابن بنت سيد الأنبياء والمرسلين صلى الله عليه وآله وسلم، قد اتسمت بها المدن الإسلامية.

أما عوامل نشوء هذه الثقافة فكانت كالآتي:

العامل الأول: إبتذار الفكر الجبري

إن أول بذرة بُذرت لنشوء الفكر الجبري كانت في زمن أبي بكر، ومنذ الأيام الأولى لتوليه الخلافة التي اتخذت ـ أي الخلافة ـ في بادئ الأمر مفهوم خلافة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ثم اتخذت مفهوم خلافة المسلمين، ثم أمراء وحكام.

فكانت البذرة لظهور الفكر الجبري هي عند قول أبي بكر: (إلا وإنكم إن كلفتموني أن أعمل بمثل عمل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لم أقم به، كان رسول الله عبدا أكرمه الله بالوحي وعصمه به، ألا وإنما أنا بشر ولست بخير من أحد منكم فراعوني، فإذا رأيتموني استقمت فاتبعوني، وإن رأيتموني زغت فقوموني، واعلموا أن لي شيطانا يعتريني، فإذا رأيتموني غضبت فاجتنبوني لا أوثر في أشعاركم ـ أي شعر الرأس ـ وأبشاركم ـ أي بشرة الجلد ـ)[١].

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد: ج ٣، ص ٢١٢.

وهذا القول وإن لم يكن محوره (إرادة الله) وانه مجبر على فعله إلا أنه كان البداية لنشوء فكرة التخلي عن مسؤولية الأفعال الصادرة عن الخليفة لعلتين.

١ ـ لأنه لم يكن يوحى إليه، ولذا فهو غير ملزم بما كان يفعله رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الذي كان يسدد بالوحي، ولذلك هو لا يخطئ أو إن لديه مبرراً في فعله وقوله وهو الوحي.

٢ ـ إن له شيطاناً يعتريه فإذا غضب وأصدر أمراً في قطع رؤوسهم أو أعضائهم، وهو ما كنى عنه بلفظ (أشعاركم وأبشاركم)، فهو غير مسؤول عن هذا الصنع، لأنه مجبر على فعله بسبب اعتراء الشيطان له.

ومما يدل عليه:

ما روي عنه بلفظ آخر: (أفتظنون أني أعمل فيكم بسنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ـ؟! إذن: لا أقوم بها إن رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ كان معه ملك، وإن لي شيطاناً يعتريني، فإذا غضبت فاجتنبوني لا أوثر في أشعاركم وأبشاركم، ألا فراعوني)[١]، أي التخلي عن مسؤولية الأفعال وفي نفس الوقت انه مجبر على القيام بها، فضلاً عن التأسيس لعقيدة جديدة تختلف جذيريا عن سنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقد صرح بذلك أبو بكر جليا على رؤوس أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم حينما قال:

«أفتظنون اني أعمل فيكم بسنة رسول الله؟ اذن لا أقوم بها».

ثم تبلورت هذه الفكرة في خلافة أمير المؤمنين عليه السلام، حينما خرج عليه معاوية بن أبي سفيان، وتحديدا تبلور هذا الفكر في حديث السيدة عائشة؛ التي

---

(١) كنز العمال للمتقي الهندي: ج ٥، ص ٥٩٠. الغدير للعلامة الأميني: ج ٧، ص ١١٨.

لعبت دورا أساساً في دعم خروج معاوية بن أبي سفيان لحرب علي بن أبي طالب عليه السلام، ومما يدل عليه:

ما رواه الذهبي، وابن عساكر، وابن كثير، وغيرهم، عن الأسود بن يزيد، قال: (قلت لعائشة، ألا تعجبين لرجل من الطلقاء ينازع أصحاب رسول الله في الخلافة؟.

فقالت: وما تعجب من ذلك؟ هو سلطان الله يؤتيه البر والفاجر، وقد ملك فرعون أهل مصر أربعمائة سنة، وكذلك غيره من الكفار)[1].

ولقد أعطى هذا القول دفعا قويا فيما بعد لحكام بني أمية، كما أنه أعطى نموا للفكر الجبري الذي ظهرت ثمرته في حكم يزيد بن معاوية، الذي يبدو أنه استخدم هذا الفكر بقوة للتخلص من الجريمة التي ارتكبها في حق الإسلام والمسلمين، حينما قام بقتل ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته، وسبي بناته وذريته.

ومما يدل عليه:

١ ـ ما رواه الطبري في أحداث سنة ٦١هـ، من قول عن يزيد بن معاوية وهو يحاول بث الفكر الجبري أمام الحاضرين في مجلسه، وهو يحادث الإمام علي بن الحسين عليهما السلام قائلا له: (أبوك نازعني سلطاني فصنع الله به ما قد رأيت)[2].

(١) سير أعلام النبلاء للذهبي: ج ٣، ص ١٤٣. تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر: ج ٥٩، ص١٤٥. البداية والنهاية لابن كثير: ج ٨، ص ١٤٠. شرح الأخبار للقاضي النعمان المغربي: ج ٢، ص ١٥٩. الغدير للعلامة الأميني: ج ١٠، ص ١٧٣.

(٢) تاريخ الطبري: ج٥، ص ٤٦١.

ـ وقوله: (إن الحسين لم يقرأ قوله تعالى:

﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[(١)])[(٢)].

٣ ـ ولم ينحصر الفكر الجبري بيزيد بن معاوية، وإنما هو عند ولاته أيضا مما يدل على أن هذا الفكر منتشر في الساحة الإسلامية آنذاك.

ومن الشواهد على ذلك:

قول عبيد الله بن زياد والي الكوفة للعقيلة زينب بنت علي أمير المؤمنين عليهما السلام: كيف رأيت صنع الله بأخيك وأهل بيتك!؟. فقالت عليها السلام:

«ما رأيت إلا جميلا، هؤلاء قوم كتب عليهم القتل، فبرزوا إلى مضاجعهم، وسيجمع الله بينك وبينهم فتحاج وتخاصم، فانظر لمن يكون الفلج يومئذ، ثكلتك أمك يا ابن مرجانة»[(٣)].

أي: إن كنت تسأل عن صنع الله تعالى فالله لا يصنع إلا جميلا، وإن كنت تسأل عن فعل قتلهم فستحاج يوم القيامة وسيخاصمك الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم وعندها فانظر لمن يكون هذا الفعل الذي نزل بأخي وأهل بيتي أهو لله كما تزعم أم أن هذا الفعل فعلك يا ابن مرجانة. فتحاج وتخاصم ولذا كان رد العقيلة زينب عليها السلام يعد كضربة سيف أبيها عليه السلام لعمرو بن وحد أو لمرحب أو لعتبة وشيبة في يوم بدر.

(١) سورة آل عمران، الآية: ٢٦.

(٢) تاريخ الطبري: ج ٥، ص ٤٦٤.

(٣) كتاب الفتوح لابن أعثم: ج ٥، ص ١٢٢. مثير الأحزان لابن نما الحلي: ص ٧١. اللهوف لابن طاووس: ص ٩٤.

العامل الثاني: الخلط بين الخلافة والملك

هذه الشبهة التي وقع فيها بعض الصحابة فضلاً عن حكام البلاط الأموي، أي: الخلط بين الظهور بمظهر الخلافة وأن الحاكم إنما هو (خليفة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم) وبين الظهور بمظهر الملك والسلطان وأن الله تعالى اختار لملكه هذا الحاكم أو ذاك، أدى إلى الاضطراب في السلوك، لأن الخلافة تفرض من خلال موقعها وعنوانها الشرعي المتصل بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم تفرض على صاحبها السير ضمن الحدود الشرعية، وهو ما لم يتصف به الحكام والملوك، لأنهم لم يخضعوا لتلك الضوابط التي يخضع لها الخليفة، أي خليفة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، من ثم فهم لا يعلمون أملوك هم أم خلفاء؟

ومما يدل عليه:

١ ـ روى ابن سعد عن سفيان بن أبي العوجاء، قال: قال عمر بن الخطاب: والله ما أدري أنا خليفة أم ملك؟ فإن كنت ملكا فهذا أمر عظيم.

قال قائل: يا أمير المؤمنين أن بينهما فرقا، فإن الخليفة لا يأخذ إلا حقا ولا يضعه إلا في حق، وأنت بحمد الله كذلك، والملك يعسف الناس فيأخذ من هذا ويعطي هذا، فسكت عمر[1].

٢ ـ وعن ابن سعد ايضا، عن سلمان المحمدي (الفارسي)، أنّ عمر قال له: أملك أنا أم خليفة؟.

فقال سلمان: إن أنت جبيت من أرض المسلمين درهما أو أقل أو أكثر، ثم

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد: ج٣، ص٣٠٧. الدر المنثور لجلال الدين السيوطي: ج٥، ص٣٠٦.

وضعته في غير حقه فأنت ملك غير خليفة؛ فاستعبر عمر[١].

٣ ـ روى الثعلبي في تفسيره، أن عمر بن الخطاب سأل طلحة والزبير وكعبا وسلمان: ما الخليفة من الملك؟. فقال طلحة والزبير: ما ندري.

فقال سلمان: الخليفة الذي يعدل في الرعية، ويقسم بينهم في السوية، ويشفق عليهم شفقة الرجل على أهله، ويقضي بكتاب الله.

فقال كعب: ما كنت أحسب أن في المجلس أحداً يعرف الخليفة من الملك غيري، ولكن الله عزّ وجلّ ملأ سلمان حكما وعلما وعدلا[٢].

ورب سؤال يفرض نفسه في البحث: مَنْ مِنَ الذين جلسوا على منبر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كانت فيه هذه الصفات، التي ذكرها الصحابي الجليل سلمان المحمدي رضوان الله تعالى عليه؟ كي نعلم من منهم كان خليفة ومن كان ملكاً.

٤ ـ قول عائشة الذي سبق، حينما سألها الأسود بن يزيد عن منازعة معاوية بن أبي سفيان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وهو من الطلقاء ــ أي: أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قد أطلقه من الأسر يوم فتح مكة هو وجميع المشركين، فقال: اذهبوا فأنتم الطلقاء ـ فكان الأسود متعجبا من منازعة معاوية الصحابة في خلافة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

فقالت: (وما تعجب من ذلك؟ هو سلطان الله يؤتيه البر والفاجر، وقد ملك فرعون أهل مصر أربعمائة سنة، وكذلك غيره من الكفار).

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد: ج ٣، ص ٣٠٦. تاريخ الطبري: ج ٣، ص ٢٧٩. الكامل في التاريخ لابن الأثير: ج ٣، ص ٥٩.

(٢) تفسير الثعلبي: ج١، ص١٧٧.

ويظهر من حديث عائشة:

أ. إمكانية أن يجلس على منبر رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ويحكم المسلمين من يكون كفرعون ملك مصر أو غيره من الكفار، ومن ثمّ: ليس هناك من عجب في منازعة معاوية بن أبي سفيان؛ وهو من الطلقاء؛ أصحاب رسول الله ﷺ في خلافة رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ.

ب. الخلط واضح في الفكر السائد عند الرموز في الساحة الإسلامية بين مقام خلافة رسول الله ﷺ، وبين الملك الذي يمكن أن يظهر في كافر من الكفار كفرعون، لأن السائل يسأل عن خلافة رسول الله ﷺ، وعائشة تجيب عن الملك.

ج. وجود حالة من النزاع بين صحابة رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ على مقام الخلافة أو الملك كلا منهم حسب فهمه لهذا الموقع.

د. إسكات الأصوات المعارضة لهذا النزاع، والتي تُظهر نسبة من الوعي والقدرة على تمييز الدخلاء على موقع خلافة رسول الله ﷺ عن غيرهم.

هـ. إفراغ موقع خلافة رسول الله ﷺ من العنوان الشرعي من خلال المقارنة بينها وبين رسول الله ﷺ وخليفة وبين ملك مصر، في حين كان يلزم الأمر أن تكون المقارنة بين موسى عليه السلام وخليفته على بني إسرائيل، وهذا يدعو إلى الاعتقاد منذ البدء بأنه ملك وليس خلافة مرتبطة بالسماء كما عنون لها القرآن:

﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[1].

وهو نبي الله آدم عليه السلام ومن بعده الأنبياء وأوصيائهم عليهم السلام جميعاً.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٣٠.

ولذا حاول أولئك الحكام والملوك إصباغ موقعهم السلطوي بصبغة شرعية محورها إرادة الله، وأن الملك لله تعالى يهبه من يشاء، وعليه فيمكن أن يكون الحاكم أسوأ من فرعون، ولا علاقة للحدود الشرعية في أمره ونهيه وفعله وتركه، وهو ما كان عليه حال المسلمين خلال القرون الماضية، وليس حالهم اليوم بأفضل من أمسهم.

وإن الذين خرجوا لقتال ابن بنت رسول الله ﷺ إنما لبوا أمر السلطان الذي يدافع عن عرشه وكرسيه وملكه ولذا قال يزيد ـ لعنه الله ـ للإمام زين العابدين عليه السلام:

(أبوك نازعني ملكي)، ومن قبله قال عمر بن الخطاب: (أخليفة أنا أم ملك؟)، فضلاً عن إعلان أبي بكر انتفاء العمل بسنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقد انتهى ذلك العصر الذي تسوده التوجيهات والتسديدات السماوية وبدأ عصر من له شيطان يعتريه ولذا فهو بحاجة إلى أمرين:

١ ـ إلى التقويم.

٢ ـ إلى عدم إغضابه.

وكلاهما لا ينسجمان فكيف يتحقق التقويم للسلوك وظهور الاعوجاج فيه مع عدم حصول الغضب الشديد الذي يصرح فيه أبو بكر بقتل من يغضبه أو بقطع أحد أعضاءه، وأقل ما يقوم به الجلد؛ من الواضح جداً انها مراوغة فهمها من سمعها فأعرضوا تقويم أبي بكر ولزموا تهديده لهم لعلمهم بقوة شيطانه الذي يعتريه كما أعلن لهم ذلك بلسانه.

كل هذه التحولات والأنماط الفكرية ظهرت في عاشوراء كواقع عملي يرى ضرورة قتل ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حفاظاً على الملك.

العامل الثالث: تثاقف المجتمع الكوفي

دور التثاقف في تكوين عقيدة المجتمع الإسلامي، مجتمع الكوفة

لقد وجد علماء الإتنوغرافيا (علم الأقوام) ومن خلال الدراسات والمراكز المعاصرة في أوائل القرن العشرين: (أن الثقافات تتأثر بعضها ببعض نتيجة الاتصال أيا كانت طبيعته ومدته وأهدافه.

وقد ركز الإتنوغرافيون ـ أو الاجتماعيون ـ على نتائج الالتقاء أو الاحتكاك الثقافي للأوربيين بثقافات الجماعات البدائية في ظل النشاط الاستعماري في آسيا وإفريقيا وأمريكا اللاتينية، بمعنى آخر لقد ركزت دراسات الاتصال الثقافي على نوع واحد معين من عملية التغير كما يقول ـ راديوكليف براون: (تغير الحياة الاجتماعية بفعل تأثر أو سيطرة الغزاة الفاتحين الأوربيين وبخاصة في القارة الإفريقية).

وكان الباحث الأمريكي ـ ميلفين هرسكوفيتز (١٨٩٥ـ١٩٦٣) أول من أطلق مصطلح التثاقف أو التزاوج الثقافي كدلالة على الدراسة الاتنوغرافية التي تهتم بظاهرة الاتصال الثقافي بين الجماعات البشرية عن طريق الاحتكاك)[١].

تعريف التثاقف

تعريف التثاقف: (يشمل التثاقف التغير الثقافي في تلك الظواهر التي تنشأ حين تدخل جماعات من الأفراد الذين ينتمون إلى ثقافتين مختلفتين في اتصال مباشر مستمر معهما، مما يترتب عليه حدوث تغيرات في الأنماط الثقافية الأصلية السائدة في إحدى هاتين الجماعتين أو فيهما معا)[٢].

---

(١) علم خصائص الشعوب، أ.د. علي عبد الله الجباوي: ص ٣٩٢.

(٢) المصدر السابق.

وقد حاول معاوية بن أبي سفيان من خلال عملية التثاقف إيجاد تغيرات في الأنماط الثقافية الأصلية السائدة في جماعة أهل الكوفة، دون أن يغيب عن ذهنه إمكانية أن يتأثر أهل الشام ولاسيما أولئك الذين يظهرون الولاء له ويحملون ثقافة بغض علي بن أبي طالب عليه السلام.

فقام بتهجير مجاميع كبيرة من أهل الكوفة وتحديدا أولئك الذين يحملون ثقافة حب علي بن أبي طالب عليه السلام ونقلهم إلى خراسان أو تضييعهم أثناء عملية النقل مع أسرهم.. وزجّ أصحاب الثقافة المغايرة إلى مجتمع الكوفة عسى أن تؤدي عملية التثاقف هذه إلى تغير الأنماط الثقافية لأهل الكوفة في حبهم لعلي بن أبي طالب عليه السلام.

ولم يكتف معاوية بعملية التثاقف هذه والاحتكاك بين مجموعتين مختلفتين ثقافيا وإنما عمل بإسناد الثقافة التي يحملها ونشرها في البلاد الإسلامية مما يؤدي إلى فرض هذه الثقافة في المجتمعات الإسلامية ومحاولة اقتلاعها من مجتمع الكوفة فقام بما يلي:

الحلقة الأولى ـ إرهاب الثقافة

سرعان ما يتبادر إلى الذهن معنى مصطلح (ثقافة الإرهاب) أما معنى مططلح (إرهاب الثقافة) فيتضح معناه من خلال ما شهده مجتمع الكوفة في أثناء حكومة معاوية بن أبي سفيان وما اتبعها من أنماط ثقافية إلى يومنا الحاضر.

إذ يمكن لنا أن نتصور إرهاب ثقافة بغض علي بن أبي طالب عليه السلام التي زرعت في المجتمع الإسلامي خلال نصف قرن من بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من خلال الشواهد التالية:

الشاهد الأول: رواية الإمام الباقر عليه السلام

خير صورة تجسد إرهاب الثقافة في حكومة معاوية بن أبي سفيان هو حديث الإمام الباقر عليه السلام عن هذه الفترة، حينما أخذ يحدث أحد أصحابه عن تلك المرحلة الزمنية، قال عليه السلام:

«يا فلان ما لقينا من ظلم قريش إيانا وتظاهرهم علينا، وما لقي شيعتنا ومحبونا من الناس، إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قبض وقد أخبر أنّا أولى الناس بالناس فتمالأت علينا قريش حتى أخرجت الأمر عن معدنه واحتجت على الأنصار بحقنا وحجتنا، تداولتها قريش واحداً بعد واحد حتى رجعت إلينا فنكثت بيعتنا، ونصبت الحرب لنا، ولم يزل صاحب الأمر في صعود كؤود حتى قتل.

فبويع الحسن ابنه وعوهد، ثم غدر به، وأسلم، ووثب عليه أهل العراق حتى طعن بخنجر في جنبه وانتهب عسكره، وعولجت خلاخيل أمهات أولاده فوادع معاوية وحقن دمه ودماء أهل بيته، وهم قليل حق قليل.

ثم بايع الحسين عليه السلام من أهل العراق عشرون ألفا ثم غدروا به، وخرجوا عليه، وبيعته في أعناقهم فقتلوه.

ثم لم نزل أهل البيت نستذل ونستضام، ونقصى ونمتهن، ونحرم ونقتل ونخاف ولا نأمن على دمائنا ودماء أوليائنا، ووجد الكاذبون الجاحدون لكذبهم وجحودهم موضعا يتقربون به إلى أوليائهم، وقضاة السوء وعمال السوء في كل بلدة، فحدثوهم بالأحاديث الموضوعة المكذوبة ورووا عنا ما لم نقله ولم نفعله ليبغضونا إلى الناس، وكان عظم ذلك وكبره زمن معاوية، بعد موت الحسين عليه السلام

فقتلت شيعتنا بكل بلدة، وقطعت الأيدي والأرجل على الظنة، وكان من ذكر بحبنا والانقطاع إلينا سجن أو نهب ماله، أو هدمت داره.

ثم لم يزل البلاء يشتد ويزداد إلى زمان عبيد الله بن زياد قاتل الحسين عليه السلام ثم جاء الحجاج فقتلهم كل قتلة، وأخذهم بكل ظنة وتهمة، حتى أن الرجل ليقال له زنديق أو كافر أحب إليه من أن يقال شيعة علي، وحتى صار الرجل الذي يذكر بالخير ولعله يكون ورعا صدوقا يحدث بأحاديث عظيمة عجيبة، من تفضيل من قد سلف من الولاة، ولم يخلق الله تعالى شيئا منها ولا كانت ولا وقعت وهو يحسب أنها حق لكثرة من قد رواها ممن لم يعرف بكذب ولا بقلة ورع»[1].

الشاهد الثاني: قتل من يروي حديثا في فضل علي وأهل بيته عليهم السلام

بعد بيان الإمام الباقر عليه السلام للحالة العامة التي مرّ بها أهل البيت عليهم السلام وشيعتهم خلال القرن الأول للهجرة فإن التاريخ قد أظهر بعض التفاصيل عن إرهاب الثقافة التي قام بها معاوية بن أبي سفيان على المسلمين.

فقد روى أبو الحسن علي بن محمد بن أبي سيف المدائني في كتاب الأحداث، قال: كتب معاوية نسخة واحدة إلى عماله بعد عام الجماعة: أن برئت الذمة ممن روى شيئا من فضل أبي تراب وأهل بيته[2].

---

(١) بحار الأنوار للعلامة المجلسي رحمه الله: ج ٤٤، ص ٦٨.

(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد المعتزلي: ج ١١، ص ٤٤. مختصر البصائر لحسن بن سليمان الحلي: ص ١٣. بحار الأنوار للعلامة المجلسي رحمه الله: ج ٣٣، ص ١٩١، ح ٧٥.

فقام الخطباء في كل كورة وعلى كل منبر يلعنون عليا ـ والعياذ بالله ـ ويبرؤون منه ويقعون فيه وفي أهل بيته، وكان أشد الناس بلاء حينئذ أهل الكوفة لكثرة من بها من شيعة علي[1].

الشاهد الثالث: تولية معاوية لزياد بن سمية على الكوفة

ثم قام معاوية فولى على الكوفة زياد بن سمية وضم إليه البصرة، وقد كان يتتبع الشيعة وهو بهم عارف، ولذا فقد قتلهم تحت كل حجر، ومدر، وأخافهم وقطع الأيدي والأرجل، وسمل العيون، وصلبهم على جذوع النخل، وطردهم، وشردهم عن العراق، فلم يبق بها معروف منهم.

فضلاً عن قتله صحابة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الذين كانوا يحبون علي بن أبي طالب عليه السلام وهو الأمر الذي يعد واجباً شرعياً فرضته عليهم عقيدتهم الإسلامية، كحجر بن عدي، وعمرو بن الحمق الخزاعي وغيرهما[2].

الشاهد الرابع: إسقاط شهادة شيعة علي عليه السلام

ومن الأنماط الأخرى لإرهاب الثقافة الذي مارسه معاوية على شيعة أهل البيت عليهم السلام هو إصداره كتاباً إلى ولاته على المدن الإسلامية بأن لا يجيزوا لأحد من شيعة علي وأهل بيته الشهادة[3].

---

(١) مناقب أهل البيت عليهم السلام للمولى حيدر الشيرواني: ص ٢٧. الغدير للشيخ الأميني: ج ١١، ص٢٨.

(٢) الاحتجاج للطبرسي: ج٢، ص٢٠. البحار للمجلسي: ج٤٤، ص٢١٣.

(٣) كتاب سليم بن قيس، تحقيق محمد باقر الأنصاري: ص ٣١٧. الاحتجاج للشيخ الطبرسي: ج٢، ص ١٧. مناقب أهل البيت عليهم السلام للمولى حيدر الشيرواني: ص ٢٧.

الشاهد الخامس: نشر الأحاديث المكذوبة في فضائل عثمان

ولم يكتف معاوية بمنع شهادة شيعة أهل البيت عليهم السلام وفرض حصار اجتماعي واقتصادي عليهم في الأقطار كافة، وإنما عمد إلى سياسة أخرى ونمط جديد من أنماط إرهاب الثقافة، فقام بتعميم كتاب إلى الولاة يقول فيه: (أن انظروا من قبلكم من شيعة عثمان وصحبته وأهل بيته، والذي يروون فضائله ومناقبه، فأدنوا مجالسهم وقربوهم وأكرموهم واكتبوا إلي بكل ما يروي رجل منهم واسمه واسم أبيه وعشيرته).

ففعلوا ذلك حتى أكثروا في فضائل عثمان ومناقبه، لما كان يبعثه إليهم معاوية من الصلات والكساء والجبات والقطائع، وتنافسوا في المنازل والدنيا، فليس أحد يجيء من مصر من الأمصار فيروي في عثمان فضيلة إلا كتب اسمه وقرب وأجيز فلبثوا بذلك ما شاء الله[1].

وحينما كثر الحديث في جميع المدن الإسلامية وانتشرت بينهم ثقافة التزوير والتحريف وشاع استخدامها وطمع في تحصيلها أصحاب المصالح والنفوس المريضة، عمد معاوية إلى نمط آخر من الإرهاب الفكري فقام بترويج هذه الصنعة الجديدة في أوساط الرواة إلى تغير الوجهة من الإكثار في فضائل عثمان إلى الإكثار في فضائل الصحابة والشيخين مع اعتماد نمط جديد في إرهاب الثقافة يعتمد على وضع أحاديث مشابهة للأحاديث التي تتحدث عن فضائل أهل البيت عليهم السلام كي

(١) شرح نهج البلاغة، المعتزلي: ج١١، ص٤٤. بحار الأنوار للعلامة المجلسي: ج٤٤، ص١٢٥. كتاب الغدير للشيخ الأميني: ج١١، ص٢٨. مناقب أهل البيت عليهم السلام للمولى حيدر الشيرواني: ص٢٧.

يختلط على الناس التمييز، ومن ثم فقدان الخصوصية في تميّز أهل البيت عليهم السلام عن بقية الصحابة.

فكتب إلى الولاة: (إن الحديث في عثمان قد كثر وفشا في كل مِصْر، وفي كل وجه وناحية، فإذا جاءكم كتابي هذا فادعوا الناس إلى الرواية في فضائل الصحابة والخلفاء الأولين، ولا يتركوا خبرا يرويه أحد من المسلمين في أبي تراب إلا وأتوني بمناقض له في الصحابة، فإن هذا أحب إلي وأمرّ لعيني، وأدحض لحجة أبي تراب ولشيعته، وأشد عليهم من مناقب عثمان وفضله[1].

فرويت أخبار كثيرة في مناقب الصحابة مفتعلة لا حقيقة لها، وجدّ الناس في رواية ما يجري هذا المجرى، حتى أشاروا بذكر ذلك على المنابر، وألقي إلى معلمي الكتاتيب، فعلموا صبيانهم وغلمانهم من ذلك الكثير الواسع، حتى رووه وتعلموه كما يتعلمون القرآن، حتى علموه بناتهم ونساءهم وخدمهم وحشمهم، فلبثوا بذلك ما شاء الله)[2].

ثم كتب إلى عماله نسخة واحدة إلى جميع البلدان: (انظروا من قامت عليه البينة أنه يحب عليا وأهل بيته، فامحوه من الديوان وأسقطوا عطاءه ورزقه)[3].

---

(١) مختصر البصائر لحسن بن سليمان الحلي: ص ١٣. بحار الأنوار للعلامة المجلسي رحمه الله: ج ٤٤، ص١٢٥.

(٢) مناقب أهل البيت عليهم السلام للمولى حيدر الشيرواني: ص ٢٨. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ج١١، ص٤٥. بحار الأنوار للعلامة المجلسي: ج٤٤، ص١٢٥.

(٣) أضواء على الصحيحين للشيخ محمد صادق النجمي: ص ٥٣. النصائح الكافية لابن عقيل: ص٩٨. مختصر البصائر لحسن بن سليمان الحلي: ص١٤. شرح نهج البلاغة للمعتزلي: ج١١، ص٤٥. بحار الأنوار: ج٤٤، ص. كتاب سليم بن قيس، تحقيق محمد باقر الأنصاري: ص٣١٨.

الشاهد السادس: التنكيل بشيعة علي وهدم دورهم

ولم يكتف معاوية بكل هذه الأنماط من إرهاب الثقافة فقام بإصدار كتاب آخر وبعث به إلى جميع الولاة على المدن الإسلامية، جاء فيه: (من اتهمتموه بموالاة هؤلاء القوم فنكلوا به، واهدموا داره)[1].

فلم يكن البلاء أشد ولا أكثر منه بالعراق، ولاسيما الكوفة، حتى أن الرجل من شيعة علي ليأتيه مما يثق به فيدخل بيته فيلقي إليه سره، ويخاف من خادمه ومملوكه ولا يحدث حتى يأخذ عليه الأيمان الغليظة ليكتمن عليه[2].

حتى قيل في ذلك:

إن اليهود بحبهم لنبيهم	**أمنوا بوائق حادث الأزمان**
وذوي الصليب بحبهم لصليبهم	**يمشون زهوا في قرى نجران**
والمؤمنون بحب آل محمد	**يرمون بالآفاق بالنيران[3]**

الحلقة الثانية ـ آثار الأنماط التثاقفية

يرى علماء الإناسة، وبالأخص الإتنوغرافيون في مثل هذه الحالات من التثاقف: (أن تسود هذه العلاقة الاحتكاكية من التثاقف صفة السيادة والتحكم والسيطرة بالثقافة الخاصة للشعب الأقل تطورا من قبل الثقافة الأكثر تطورا)[4].

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد المعتزلي: ج ١١، ص ٤٥. مناقب أهل البيت عليهم السلام للمولى حيدر الشيرواني: ص ٢٨.

(٢) مختصر البصائر لحسن بن سليمان الحلي: ص١٤. كتاب الغدير للشيخ الأميني: ج١١، ص٢٩.

(٣) أولاد الإمام الباقر عليه السلام للسيد حسين الزرباطي: ص ٥٠.

(٤) علم خصائص الاقوام لعلي عبد الله الجباوي: ص ٣٩٣.

بمعنى: (أن ما يحدث في عملية التثاقف بين شعبين هو تأثر الشعب الأقل تطورا بثقافة الشعب الأكثر تطورا)[1].

وفي الواقع لا يمكن معرفة أي الثقافتين الأكثر تطورا والأقل تطورا ما لم يتم دراسة آثار كل من هاتين الثقافتين على الشعبين.

والتاريخ يتحدث عن تأثر ثقافة بغض علي بن أبي طالب عليه السلام بثقافة حب علي بن أبي طالب عليه السلام، فمع كل ما عمله معاوية من إرهاب الثقافة وإرهاب الإنسان في ماله وولده ونفسه إلا أن ثقافة حب علي بن أبي طالب عليه السلام هي التي فرضت نفسها على الثقافات الأخرى، لدرجة احتار فيها بعض من عرف بميوله وتوجهاته الثقافية المغايرة.

قال الشعبي: ما لقينا من علي بن أبي طالب، إن أحببناه قتلنا وإن أبغضناه هلكنا[2].

وكان الحسن البصري يروي أحاديثه عن علي عليه السلام مرسلة خوفا من بني أمية[3].

وقال أحمد الحفظي في أرجوزته:

والحسن البصري يروى عن علي — علومه وللسماع يجتلي

قال الإمام أحمد بن حنبل — لسائل عن فضل مولانا علي

ماذا أقول بعد كتمان العدا — للنصف من فضل الولي حسدا

(١) علم خصائص الأقوام للجباوي: ص٣٩٣.

(٢) النصائح الكافية لابن عقيل: ص ١٥٤.

(٣) المصدر السابق.

ونـصفه خوفـا مـن القتـل وذا حقيقـة يعرفهـا مـن احتـذا

وأظهـر الله مـن الكتمـين مـا مـلأ البـرين والبحـرين[١]

ويكفي بالتاريخ حكما سابقا وحاضرا في بيان أي الثقافتين تأثرت بالأخرى، وأيهما تنامت وتضاعفت حب علي بن أبي طالب عليه السلام أم بغضه.

ويستدل علماء الإناسة على حقيقة انتصار الثقافة الأصيلة على الثقافة الوضيعة ما شهده العالم العربي في أثناء تولي الأتراك العثمانيين للحكم (فقد حاولت الدولة العثمانية الغازية والمحتلة عثمنة الشعب العربي عن طريق جعل اللغة العثمانية ـ التركية ـ هي اللغة الرسميّة في مجالات الحياة كافة.

لكن الشيء الذي حدث هو العكس تماما حيث تأثرت اللغة التركية ذاتها باللغة العربية وبالثقافة العربية نتيجة لعملية الاحتكاك الثقافي بين العرب الأكثر تطورا في مجال الثقافة وبين الأتراك العثمانيين الأقل ثقافة.

فقد استعادت اللغة العثمانية معظم مفرداتها اللغوية من اللغة العربية لدرجة أن عملية التثاقف هنا كادت أن تؤدي باللغة التركية إلى الهلاك فيما لو بقيت الحالة في الدولة التركية الجديدة بعد مصطفى أتاتورك، كما كانت عليه في السابق تكتب بالحروف العربية، ويعود سبب التأثر الثقافي التركي بالثقافة العربية إلى القرآن الكريم ومبادئ الدين الإسلامي الذي يدين به كل من العرب والأتراك)[٢].

ولأن منبع الثقافة الإسلامية الأصيلة هي القرآن الكريم والنبي الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم لم يتمكن معاوية من سَرْيَنَة المسلمين ومحو ثقافة حب علي بن أبي طالب عليه السلام.

---

(١) النصائح الكافية لابن عقيل: ص ١٥٤.

(٢) علم خصائص الشعوب، د. علي الجباوي: ص ٣٩٣.

بل هو الذي هلك وهلكت معه ثقافته، وإن كان لها حملة في بعض البلاد الإسلامية بسبب غياب الثقافة القرآنية عنهم ولو تثقف المسلمون بثقافة القرآن ما أصبح هذا حالهم، إذ كانوا:

﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾.

العامل الرابع: سلوك الحكام سياسة التجري على الحكم الشرعي

من الأمور التي ساعدت على نجاح عملية التثاقف داخل المجتمع الكوفي هو سلوك الحكام سياسة التجري على الحرمات وكسر حاجز القداسة حول الرموز الدينية والشرعية التي نص عليها القرآن الكريم والنبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله.

ممثلا ذلك في الهجوم على دار بضعة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وانتهاك حرمته وحرقه[1] بمن فيه إن لم يخرج علي عليه السلام لبيعة ابن أبي قحافة.

حتى باتت هذه الحادثة من بديهات الثقافة الإسلامية كما يصرح بها حافظ إبراهيم شاعر النيل قائلاً:

وقولة لعلي قالها عمر	أكرم بسامعها أعظم بملقيها
حرقت دارك لا أبقي عليك بها	ان لم تبايع وبنت المصطفى فيها[2]

(١) راجع في حادثة التحريق والهجوم على بيت فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله: «تاريخ الطبري: ج٣، ص٤٤٣. تاريخ أبي الفداء: ج٢، ص٦٤. العقد الفريد لابن عبد ربه: ج٤، ص٢٥٤. الإمامة والسياسة: ج١، ص١٢. تاريخ اليعقوبي: ج٢، ص١١.

(٢) ديوان حافظ إبراهيم بشرح الديمياطي طبع سنة ١٩٣٧م، طبع دار الكتب في جزئين والأبيات المذكورة توجد في ج١، ص٨٢.

بل الأدهى من ذلك التجري على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قبل وفاته بأيام قلائل حينما قال له عمر بن الخطاب:

(إنه ليهجر، وقد وردت هذه الرزية بألفاظ مختلفة في صحيح البخاري ومسلم)[1].

ومحاربة علي بن أبي طالب عليه السلام والمجاهرة ببغضه والخروج لقتاله على الرغم من قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

«لا يحبك إلا مؤمن ولا يبغضك إلا منافق»[2].

وما ينفعهم قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقد انتهكت حرمته وهو حي يرزق واتهم بالهجر وهو الذي:

﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾[3].

بل الأعجب من فعل السلف اعتذار الخلف عنهم وتزيين تلك الفعال فلا يدري الباحث أيبحث عن إجابات عن أسئلته حول فعل السلف أم عن تبريرات الخلف؟!! أم يبحث عن إجابات لمنعه عن التفكير وطرح تلك الأسئلة؟!! فمرة يتهم بالتكفير؛ وأخرى بالتزوير؛ وأقل ما يقال فيه هو (التخلف) لبحثه في أخبار أمة قد خلت وكأنّ القائل من أمة موسى أو عيسى عليهما السلام ولا يمت إلى الإسلام بصلة؛ فأي أمة تلك التي خلت ومقدساتها تنتهك على مر الزمن؟!.

---

(١) كتاب صحيح البخاري، باب: دعاء النبي صلى الله عليه وآله وسلم: ج٤، ص٦٦، وغيرها من المواضع. صحيح مسلم، باب الأمر بقضاء النذر: ج٥، ص٧٦.

(٢) الإرشاد، الشيخ المفيد: ج١، ص٤٠.

(٣) سورة النجم، الآيات: ٣، ٤.

ومن هنا: نجد هؤلاء يتصرفون بهذه الكيفية التي تعبر عن اعتقادهم بصحة فعلهم لأنهم نشأوا على ثقافة جديدة غير التي أرسى قواعدها القرآن الكريم والنبي الأعظم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّم، فهي لم تحمل من ثقافة القرآن سواء قوالب الألفاظ التي أصبح لها مدلولات جديدة؛ فالمقدس في عصر النبوة هو القرآن والنبي وعترته وهما مصدر الحكم الشرعي.

والمقدس في عصر الخلافة هو الذي يجلس على العرش سواء كان واحداً من الصحابة أو يزيد أو أتاتورك فطاعة الأمير واجبة.

بل: إن قدسيّة الخليفة في ثقافة عصر الخلافة، لاسيما خلافة بني أمية، أعظم من قدسية رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّم كما صرح والي العراق الحجاج بن يوسف الثقفي مدلل البلاط الأموي ومثبت حكم بني أمية حينما بعث برسالة إلى عبد الملك بن مروان يقول له فيها: (إنّ خليفة الرجل في أهله أكرم عليه من رسوله إليهم، وكذلك الخلفاء يا أمير المؤمنين أعلى منزلة من المرسلين)[1]؟!!.

وهو القائل لجمعٍ من أهل الكوفة يريدون زيارة قبر رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّم: (تبّاً لهم إنما يطوفون بأعواد ورمة بالية، هلا طافوا بقصر أمير المؤمنين عبد الملك؟ ألا يعلمون أن خليفة المرء خير من رسوله)[2].

وتغافل ذلك المتبجح والممتهن للحرمات أنّ الرسل والأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَام خلفاء الله

---

(١) العقد الفريد، ابن عبد ربه: ج٢، ص٣٥٤ وج٥، ص٥١. البداية والنهاية: ج١٩، ص١٣١. تهذيب تاريخ دمشق: ج٤، ص٧٢.

(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد المعتزلي: ج١٥، ص٢٤٢. الكامل للمبرد: ص٢٢٢، ط النهضة، مصر.

في أرضه، كما نص عليه القرآن في قضية آدم عليه السلام؛ قال تعالى:

﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[(١)].

فكيف لا يخرجون لقتال ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومفهوم الطاعة والمعصية في ثقافتهم لا علاقة لها بالحسنات والسيئات وإنما بالدينار والدرهم ورضا الأمير أو سخطه. ولذلك: نجد التاريخ يحدث عن خروج بعض الجند من جيش عمر بن سعد ومخاطبتهم لابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بتلك الألفاظ التي تكشف عن ثقافة عصر الخلافة.

١ـ فأما ابن أبي جويرية فيخاطب الإمام الحسين عليه السلام: (يا حسين وأصحاب حسين أبشروا بالنار، فقد تعجلتموها في الدنيا)[(٢)].

٢ـ وتميم بن حصين خاطبه قائلا:

(يا حسين واصحاب الحسين أما ترون إلى ماء الفرات كأنه بطون الحيات؟ والله لاذقتم منه قطرة حتى تذوقوا الموت جرعا)[(٣)].

٣ـ وابن حوزة يقول له: (يا حسين أبشر بالنار).

٤ـ أما محمد بن الأشعث بن قيس فيتساءل متبجحا وساخرا من صلة القرابة التي بين الحسين ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، قائلا: (أي قرابة بينك وبين محمد) وكأن محمداً صلى الله عليه وآله وسلم رجل من قريش لم يُعرف له شأن أو أنه قد سمع الناس يقولون عنه إنه نبي الإسلام الذي لم يعرفه محمد بن الأشعث لا هو ولا أبوه ولا جده ولذلك لم يقل للحسين عليه السلام: (أية قرابة بينك وبين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم)؛ وإنما قال: (بينك وبين محمد).

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٣٠.

(٢) الأمالي، الشيخ الصدوق رحمه الله: ص٢٢١. روضة الواعظين، الفتال النيسابوري: ص١٨٥.

(٣) الثاقب في المناقب، ابن حمزة الطوسي: ص٣٤٠.

إذن: ليس من المستغرب أن تكون ثقافة عصر الخلافة التي سلكت أسلوب التجري على حرمات الشريعة المحمدية منذ اللحظات الأولى لرحيل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأسست للفكر الجبري وتعاظمت مع إيجاد التثاقف الأموي وسَفْيَنَةِ العقيدة أن تُخرج تلك الرموز التي حملت رأس ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لتطوف به في المدن الإسلامية ويستقبل بالزينة والأهازيج وكأنه رأس قيصر الروم لا ابن بنت نبيهم إن كانوا به مؤمنين!!!.

المسألة الثالث: الحكمة في ظهور الأثر الغيبي الآني في دعاء الإمام الحسين عليه السلام في يوم عاشوراء

إنّ مما ساعد على تمركز هذه الثقافة في المجتمعات الإسلامية هو غياب العقاب الإلهي خلال نصف قرن مع كثرة تلك الانتهاكات والتجاهر بحرب الله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم وعترته عليهم السلام مستغلين بذلك حلم الله سبحانه ومتغافلين عن حكمته في استدراج الظالمين، وهو ما بنيته عقيلة الطالبين في قمعها لتبجج يزيد بن معاوية حينما تمادى في حربه لله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم وهو يضرب بعصاه ثنايا سيد شباب أهل الجنة فقالت عليها السلام:

«الحمد لله ب العالمين وصلى الله على رسوله وآله أجمعين، صدق الله سبحانه كذلك يقول:

﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَىٰ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ﴾[1].

(١) سورة الروم، الآية: ١٠.

أظننت يا يزيد حيث أخذت علينا أقطار الأرض وآفاق السماء فأصبحنا نساق كما تساق الأسراء إن بنا هوانا على الله وبك عليه كرامة وإن ذلك لعظم خطرك عنده فشمخت بانفك ونظرت في عطفك جذلان مسروراً حين رأيت الدنيا لك مستوثقة والأمور متسقة، وحين صفا لك ملكنا وسلطاننا فمهلاً مهلاً أنسيت قول الله تعالى:

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًاۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾[1][2].

ولقد حاول مؤسسو هذه الثقافة في ظل غياب العقاب الإلهي تحقيق أكثر من هدف؛ إذ لم ينحصر الأمر ببقائهم في الحكم وإنما بطمس هذا الدين كي لا يحاول أهله العودة إلى النهوض من جديد.

ومما يدل عليه:

ما ذكره الزبير بن بكار في الموفقيات، عن المطرف بن المغيرة بن شعبة قال:

(دخلت مع أبي على معاوية، فكان أبي يأتيه فيتحدث معه، ثم ينصرف إليه فيذكر معاوية وعقله، ويعجب بما يرى منه، إذ جاء ذات ليلة فأمسك عن العشاء، ورأيته مغتما فانتظرته ساعة، وظننت أنه لأمر حدث فينا فقلت: ما لي أراك مغتما منذ الليلة؟.

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٧٨.

(٢) اللهوف في قتلى الطفوف لابن طاووس: ص١٠٦. بلاغات النساء لابن طيور: ص٢٢. الاحتجاج للطبرسي: ج٢، ص٣٥.

فقال: يا بني، جئت من أكفر الناس وأخبثهم، قلت: وما ذاك؟.

قال: قلت له وقد خلوت به؛ إنك قد بلغت سنّاً يا أمير المؤمنين فلو أظهرت عدلا، وبسطت خيرا فإنك قد كبرت، ولو نظرت إلى أخوتك من بني هاشم فوصلت أرحامهم، فوالله ما عندهم اليوم شيء تخافه، وإن ذلك مما بقي لك ذكره وثوابه؟.

فقال: هيهات هيهات! أي ذكر أرجو بقاءه؟ ملك أخو تيم فعدل وفعل ما فعل، فما عدا أن هلك حتى هلك ذكره إلا أن يقول قائل: أبو بكر.

ثم ملك أخو عدي، فاجتهد وشمر عشر سنين، فما عدا أن هلك حتى هلك ذكره، إلا أن يقول قائل: عمر.

وإن ابن أبي كبشة ليصاح به كل يوم خمس مرات (أشهد أن محمدا رسول الله) فأي عمل يبقى؟، وأي ذكر يدوم بعد هذا لا أبا لك؟ لا والله إلا دفنا دفنا).

وروى المدائني في كتاب الأحداث قال: كتب معاوية نسخة واحدة إلى عماله بعد عام الجماعة: أن برئت الذمة ممن روى شيئا من فضل أبي تراب وأهل بيته، وكتب إليهم: أن انظروا من قبلكم من شيعة عثمان ومحبيه وأهل ولايته والذين يروون فضائله ومناقبه فأدنوا مجالسهم، وقربوهم وأكرموهم، واكتبوا إلي بكل ما يروى كل رجل منهم واسمه واسم أبيه وعشيرته.

ففعلوا ذلك حتى أكثروا في فضائل عثمان ومناقبه، لما كان يبعث إليهم معاوية من الصلات والكساء والحباء والقطائع، ويفيضه في العرب منهم والموالي، فكثر ذلك وتنافسوا في المنازل والدنيا، فليس يجيء أحد مردود من الناس عاملا

من عمال معاوية فيروي في عثمان فضيلة أو منقبة إلا كتب اسمه وقربه وشفعه، فلبثوا بذلك حينا.

ثم كتب إلى عماله: إن الحديث عن عثمان قد كثر وفشا في كل مصر وفي كل وجه وناحية، فإذا جاءكم كتابي هذا فادعوا الناس إلى الرواية في فضائل الصحابة والخلفاء الأولين، ولا تتركوا خبرا يرويه أحد من المسلمين في أبي تراب إلا وأتوني بمناقض له في الصحابة مفتعلة فإن هذا أحب إلي، وأقر لعيني، وأدحض لحجة أبي تراب إلا وأتوني بمناقض له في الصحابة مفتعلة فإن هذا أحب إلي، وأقر لعيني، وأدحض لحجة أبي تراب وشيعته، وأشد عليهم من مناقب عثمان وفضله، فقرئت كتبه على الناس، فرويت أخبارٌ كثيرة في مناقب الصحابة مفتعلة لا حقيقة لها.

وجدّ الناس في رواية ما يجرى هذا المجرى حتى أشادوا بذكر ذلك على المنابر، وألقي إلى معلمي الكتاتيب فعلموا صبيانهم وغلمانهم حتى رووه وتعلموه كما يتعلمون القرآن، بل علموه بناتهم ونساءهم وخدمهم، فلبثوا بذلك ما شاء الله فظهر حديث كثير موضوع، وبهتان منتشر، ومضى على ذلك الفقهاء والقضاة والولاة.

وكان أعظم الناس في ذلك القراء المراؤون الذين يظهرون الخشوع والنسك ويفتعلون الأحاديث ليحظوا بذلك عند ولاتهم ويقربوا مجالسهم ويصيبوا به الأموال والضياع والمنازل، حتى انتقلت تلك الأخبار والأحاديث إلى أيدي الديانين الذين لا يستحلون الكذب والبهتان فقبلوه ورووها وهم يظنون أنها حق، ولو علموا أنها باطلة لما رووها ولا تدينوا بها.

وقد ورث معاوية عن أبيه قسوته وكيده ودهاءه، ولم تكن أم معاوية بأقل من أبيه تنكرا للإسلام وبغضا لأهله وحفيظة عليهم، وهم قد وتروها يوم بدر فثأر لها المشركون يوم أحد، ولكن ضغنها لم يهدأ وحفيظتها لم تسكن، حتى فتحت مكة فأسلمت كارهة كما أسلم زوجها كارها وكما أسلم كذلك ابنها معاوية بعد إسلام أبيه كارها.

وهند هذه هي التي أغرت وحشيا بحمزة عم النبي حتى قتله ثم أعتقته، ولما قتل حمزة بقرت بطنه، ولاكت كبده، وفعلت فعلتها بجثته! وإذا كان معاوية قد ورث بغض علي عن آبائه ـ مما حدثناك عنه ـ فإن هناك أسبابا أخرى تسعر من نار هذا البغض، منها إن عليا قتل أخاه حنظلة يوم بدر، وخاله الوليد بن عتبة وغيرهما كثيرين من أعيان عبد شمس وأماثلها.

ومن أجل ذلك كان معاوية أشد الناس عداوة لعلي يتربص به الدوائر دائما، ولا يفتأ يسعى في الكيد له سرا وعلانية، قولا وفعلا، قال أبو جعفر الإسكافي: إن معاوية وضع قوما من الصحابة وقوما من التابعين على رواية أخبار قبيحة في علي عليه السلام تقتضي الطعن فيه والبراءة منه، وجعل لهم على ذلك جعلا يرغب في مثله، اختلقوا ما أرضاه، منهم أبو هريرة وعمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة، ومن التابعين عروة بن الزبير.

ومن الغريب أننا لا نجد لمعاوية فضيلة معترفا بها، وقد أفرد له البخاري في صحيحه بابا عنونه بـ(ذكر معاوية) بينما عنون لغيره بـ(فضائل) فلان وفلان مع أنه لم يأت في هذا الباب بأحاديث مرفوعة إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

وحكى ابن الجوزي في الموضوعات عن إسحاق بن راهويه ـ شيخ البخاري ـ إنه قال:

(لم يصح فضائل معاوية شيء؛ وقد أكد العلماء المحققون جريمة معاوية الكبرى في حق الإسلام والمسلمين حين صرف الخلافة بحقده ومكره عن صاحبها الأصلي فقد قال ابن رشد الفيلسوف المعروف: إن معاوية أقام دولة بني أمية وسلطانها الشديد، ففتح بذلك بابا للفتن التي لا تزال إلى الآن قائمة قاعدة حتى في بلادنا هذه الأندلس)[1].

أما العلة في تأخر ظهور الأثر الغيبي الآني قبل عاشوراء فيعود للأسباب الآتية:

١ـ أن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم لم يدعُ على أمته بالعذاب، وأنه توفي وهو غاضب على من آذوه في عترته عليهم السلام.

٢ـ كما أن بضعته فاطمة عليها السلام لم تدعُ بتعجيل هلاك ظالميها، وإنما دعت عليهما بالعذاب محتسبة الله في ذلك يصنع فيهما ما يشاء، ونفس الأمر نلحظه في سيرة أمير المؤمنين عليه السلام، بل في سيرة أغلب أئمة العترة عليهم السلام، إلا ما اقتضته الضرورة الشرعية التي يراها حجة الله تعالى.

---

(١) الأخبار الموفقيات، الزبير بن بكار: ص٥٧٦، ٥٧٧. مروج الذهب، المسعودي: ج٣، ص٤٥٤، حوادث سنة ٢١٢هـ. النصائح الكافية لابن عقيل: ص١١٦. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ج٥، ص١٣٠. المسترشد لابن جرير الطبري (الامامي): ص٦٧٩. بحار الأنوار للعلامة المجلسي رحمه الله: ج٣٣، ص١٧٠. الغدير للأميني: ج١٠، ص٢٨٤. كشف الغمة للأربلي: ج٢، ص٤٦. كشف اليقين للحلي: ص٤٧٥.

٣ ـ لقوله تعالى:

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾[١].

٤ ـ لقوله تعالى:

﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾[٢].

وأما الحكمة في ظهور الأثر الغيبي الآني في يوم عاشوراء هو:

ألف ـ لتبديد ما رسخ في أذهان الناس من عقيدة فاسدة زرعها الحكام وأشياعهم خلال نصف قرن؛ وقلب تلك الأسس التي قامت عليها ثقافة سَقِيْفَةِ المسلمين وانكفاء سحرها على وجوه مؤسسيها.

باء ـ لرفع الحجج والأعذار في ادعائهم أي الجند وأسيادهم كابن زياد وأميره القابع في البلاط الأموي ومن سار على هذا النهج ممن سيخلفونهم وعلى مرِ السنين بأنهم لم يكونوا على علم بأنه حجة الله وهو ما يعرف عند أهل الأصول بحجية القطع أي انتقال رتبة الدليل من الظن إلى القطع بأنه حجة الله تعالى التي لا ترد له دعوة فكيف بعدئذ سيقدمون على حربه أو الادعاء بجواز فعلهم عند الله تعالى ـ والعياذ بالله ـ.

ولذلك تهاوت كل هذه الإدعاءات وبان قبحها مع قبح عقول معتقديها.

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٧٨.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٥٩.

جيم ـ لنجاة ممن غرر بهم ومُوه عليهم فضلوا الطريق فلما رأوا هذه الآثار الغيبية والآنية في دعاء الإمام الحسين عليه السلام انحازوا من معسكر عمر بن سعد إلى معسكر الإمام الحسين عليه السلام أبرز من اتضح له حقيقة الثقافة السفيانية هو الحر بن يزيد الرياحي الذي كان أحد قادة الجيش، وأحد رؤساء الأرباع في الكوفة وهم بنو تميم وهمدان.

وكمسروق بن وائل الحضرمي الذي قال بعد مشاهدته الأثر الغيبي في دعاء الإمام الحسين عليه السلام على ابن حوزة: (كنت في أول الخيل التي تقدمت لحرب الحسين لعلّي أن أصيب رأس الحسين فأحظى به عند ابن زياد فلما رأيت ما صنع بابن حوزة عرفت أن لأهل هذا البيت حرمة ومنزلة عند الله وتركت الناس وقلت لا أقاتلهم فأكون في النار)[1].

---

(١) مقتل الإمام الحسين عليه السلام، عبد الرزاق المقرم: ص٢٤٠، ٢٤١.



الفصل السابع:

مواضع أدعيته عليه السلام لأصحابه عليهم السلام

على الرغم من ظهور الآثار الغيبية الآنية في دعاء الإمام الحسين عليه السلام إلا أنهم أخذتهم العزة بالأثم فأصروا على فعلهم؛ وحينها اتخذ الإمام الحسين عليه السلام خطوة أخيرة كي لا يقدم هؤلاء على انتهاك حرمة الله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم فيقدم أولئك على فعل يبقى عاره وثناره إلى يوم القيامة.

قام عليه السلام فاستدعى عمر بن سعد ـ قائد الجيش ـ فدعي له وكان كارها لا يحب أن يأتيه، فقال:

(أي عمر أتزعم أنك تقتلني ويوليك الدعي بلاد الري وجرجان والله لا تتهنأ بذلك، عهد معهود فاصنع ما أنت صانع، فإنك لا تفرح بعدي بدنيا ولا آخرة.

وكأني برأسك على قصبة يتراماه الصبيان بالكوفة ويتخذونه غرضاً بينهم)[1].

---

(١) مقتل الحسين عليه السلام، الخوارزمي: ج٢، ص٨. بحار الأنوار للعلامة المجلسي رحمه الله: ج٤٥، ص١٠. الكنى والألقاب، الشيخ عباس القمي: ص٣٠٧. شرح إحقاق الحق، السيد المرعشي: ج١١، ٦٢٦.

فصرف ـ عمر بن سعد ـ بوجهه عنه مغضباً، ونادى بأصحابه: (ما تنظرون به أحملوا بأجمعكم إنما هي أكلة واحدة)[١].

وتقدم عمر بن سعد نحو عسكر الحسين عليه السلام ورمى بسهم وقال اشهدوا لي عند الأمير أني أول من رمى، ثم رمى الناس فلم يبق من أصحاب الحسين عليه السلام أحد إلا أصابه من سهامهم.

فقال عليه السلام لأصحابه:

«قوموا رحمكم الله إلى الموت الذي لابد منه، فإن هذه السهام رسل القوم إليكم»[٢].

فحمل أصحابه حملة واحدة، واقتتلوا ساعة، فما انجلت الغبرة إلا عن خمسين صريعاً[٣].

وبعد الحملة الأولى بدأت مرحلة جديدة من المعركة إذ بدأ القتال الفردي بين أصحاب الحسين عليه السلام وأعداء الله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم وبه تظهر مجموعة أخرى من دعواته عليه السلام: في يوم عاشوراء.

وهي حسب المواضع الآتية:

---

(١) بحار الأنوار للعلامة المجلسي رحمه الله: ج٤٥، ص١٠. شرح إحقاق الحق، السيد المرعشي: ج١١، ص٦٢٦. لواعج الأشجان، محسن الأمين: ص١٣٣.

(٢) بحار الأنوار للعلامة المجلسي: ج٤٥، ص١٢.

(٣) تاريخ الطبري: ج٧، ص٢٠٩. اللهوف لابن طاووس: ص٦٠. بحار الأنوار للعلامة المجلسي رحمه الله: ج٤٥، ص١٢. لواعج الأشجان، محسن الأمين: ص٣٦.

الموضع الأول من أدعيته لأصحابه: دعاؤه لأم وهب رضي الله عنها

قال عليه السلام في دعائه لها:

«**لا يقطع الله رجاك يا أم وهب**»(١).

مسائل البحث في الدعاء:

المسألة الأولى: من هي أم وهب؟

روى المجلسي رحمه الله: أنها قدمت مع ولدها وهب بن عبد الله بن حباب الكلبي إلى كربلاء لنصرة سيد شباب أهل الجنة عليه السلام؛ ولقد كانت هي وولدها وزوجته من النصارى إلا أنهم أسلموا على يد الإمام الحسين عليه السلام(٢).

المسألة الثانية: سبب الدعاء

قال العلامة المجلسي رحمه الله: إنّ أم وهب قالت لولدها: قم يا بني فانصر ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

فقال: أفعل يا أماه ولا أقصر، فبرز ـ يقاتل ـ حتى قتل منهم جماعة فرجع إلى أمه وامرأته فوقف عليهما فقال: يا أماه أرضيت؟.

فقالت: ما رضيت أو تقتل بين يدي الحسين عليه السلام، فقالت امرأته: بالله لا تفجعني في نفسك!.

فقالت أمه: يا بني لا تقبل قولها وارجع، فقاتل بين يدي ابن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيكون غدا في القيامة شفيعا لك بين يدي الله، فرجع قائلا:

---

(١) بحار الأنوار للعلامة المجلسي رحمه الله: ج٤٥، ص١٧.

(٢) بحار الأنوار للعلامة المجلسي: ج٤٥، ص١٧.

إنـــي زعـــيم لـــك أم وهـــب ... بـالطعن فـيهم تـارة والـضرب

ضـــرب غـــلام مـــؤمن بـــالرب ... حتـى يـذيق القـوم مـر الحـرب

إنـــي امــــرؤ ذو مــــرة وعـــصب ... إنـــي امــــرؤ ذو مــــرة وعـــصب

حـسبي إلهـي مـن علـيم حـسبي

فلم يزل يقاتل حتى قتل تسعة عشر فارسا واثني عشر راجلا ثم قطعت يداه فأخذت امرأته عمودا وأقبلت نحوه وهي تقول: فداك أبي وأمي قاتل دون الطيبين حرم رسول الله، فأقبل كي يردها إلى النساء فأخذت بجانب ثوبه، وقالت: لن أعود أو أموت معك.

فقال الحسين عليه السلام:

«**جزيتم من أهل بيتي خيرا!، ارجعي إلى النساء رحمك الله**».

فانصرفت، وجعل يقاتل حتى قتل رضوان الله تعالى عليه، قال: فذهبت امرأته تمسح الدم عن وجهه فبصر بها شمر، فأمر غلاما له فضربها بعمود كان معه فشدخها وقتلها، وهي أول امرأة قتلت في عسكر الحسين.

وروي: أنه قتل في المبارزة أربعة وعشرين راجلاً واثني عشر فارساً، ثم أخذ أسيراً فأتي به عمر بن سعد فقال:

ما أشد صولتك؟.

ثم أمر به فضربت عنقه، ورمي برأسه إلى عسكر الحسين عليه السلام، فأخذت أمه الرأس فقبلته ثم رمت بالرأس إلى عسكر ابن سعد فأصابت رجلا فقتلته، ثم شدت بعمود الفسطاط، فقتلت رجلين.

فقال لها الحسين عليه السلام:

«ارجعي يا أم وهب أنت وابنك مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فإن الجهاد مرفوع عن النساء».

فرجعت وهي تقول: إلهي لا تقطع رجائي. فقال لها الحسين عليه السلام:

«لا يقطع الله رجاك يا أم وهب»[(١)].

المسألة الثالثة: ما هو رجاء أم وهب عليها السلام؟

هذا السؤال يمكن معرفة إجابته ـ ولو على الظاهر ـ من خلال حث أم وهب ولدها على نصرة الإمام الحسين عليه السلام وتحديداً في ثلاثة أمور:

الأمر الأول: هو استشهاد ولدها في سبيل الله وبين يدي ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقد تحقق هذا لديها.

والأمر الثاني: وهو استمرار هذا الرجاء الذي سألت الله عنه بأن لا ينقطع، أي: أن تنال الشهادة هي أيضا كما نالها ولدها وزوجته، لتكون هذه العائلة المكونة من ثلاثة أشخاص في موضع واحد في الجنة.

الأمر الثالث: هو أنها ترجو الله بأن يحقق لها الهدف والغاية من وراء استشهاد ولدها واستشهادها ألا وهي شفاعة الإمام الحسين عليه السلام يوم القيامة وقد بدا ذلك واضحاً في قولها لولدها حينما رجع إليها من حملته الأولى التي خرج بها لقتال الأعداء، قائلاً لها: (يا أماه أرضيت)؟.

---

(١) بحار الأنوار للعلامة المجلسي رحمه الله: ج٤٥، ص١٨. العوالم، الإمام الحسين عليه السلام للبحراني: ص٢٦١. موسوعة كلمات الإمام الحسين عليه السلام: ص٥٢٥.

فقالت: (ما رضيت أو تقتل بين يدي الحسين عليه السلام).

والسؤال المطروح هو: لماذا لا ترضى حتى يقتل بين يدي الحسين عليه السلام؟

جوابه حينما قالت لولدها: يا بني لا تقبل قولها وارجع فقاتل بين يدي ابن رسول الله فيكون غدا في القيامة شفيعا لك بين يدي الله، فرجع.

وهذا يكشف عن أمرين:

أولا: دور الأم في ترسيخ العقائد والأصول الإيمانية في أبنائها.

ثانيا: سمو رتبتها الإيمانية ويقينها بالله تعالى وبالمعاد وأنه ينجي عباده في اليوم الآخر، ولذا ظهر عندها الرجاء لارتباطه بالإيمان باليوم الآخر.

المسألة الرابعة: شفاعة الأئمة يوم القيامة

إن من المسائل العقائدية التي نالت اهتماما كبيرا في كتب العلماء وعلى مختلف أذواقهم الفكرية ومشاربهم الفقهية هي مسألة الشفاعة، ولأن الإسهاب فيها غير مناسب ها هنا لكونه سيخرج المبحث عن عنوانه؛ إلا أنني أحببت أن أذكر ما بإمكانه أن يضع بين يدي القارئ الكريم صورة بسيطة المعنى واضحة الدلالة، وهي كالآتي:

أولا: الشفاعة لغة

قال الفراهيدي: الشفع، ما كان من العدد أزواجا، تقول: كان وتراً فشفعته بالآخر حتى صار شفعا، وفي القرآن (والشفع والوتر) الشفع يوم النحر، والوتر يوم عرفة.

ويقال: الشفع الحصا يعني كثرة الخلق، والوتر الله.

قال الحجاج: شفع تميم بالحصى المتمم، يريد به الكثرة.

والشافع الطالب لغيره: وتقول استشفعت بفلان فتشفع لي إليه فشفعه فيّ.

والاسم: الشفاعة، واسم الطالب: الشفيع[١].

وقال الجوهري: والشفيع: صاحب الشفعة، وصاحب الشفاعة[٢].

وقال ابن منظور: والشفاعة: كلام الشفيع للملك في حاجة يسألها لغيره، وشفع إليه في معنى طلب إليه والشافع: الطالب لغيره يتشفع به إلى المطلوب.

يقال: تشفعت بفلان إلى فلان فشفعني فيه واسم الطالب شفيع.

ثانيا: الشفاعة عند الفقهاء

قال الشيخ الصدوق ﷺ:

(اعتقادنا في الشفاعة أنّها لمن ارتضى الله دينه من أهل الكبائر والصغائر، فأما التائبون من الذنوب فغير محتاجين إلى الشفاعة). وقال صلى الله عليه وآله وسلم:

«من لم يؤمن بشفاعتي فلا أناله الله شفاعتي»[٣].

وقال أمير المؤمنين علي عليه السلام:

«لا شفيع أنجح من التوبة»[٤].

---

(١) كتاب العين، الفراهيدي: ج١، ص٢٦١.

(٢) الصحاح، الجوهري: ج٣، ص١٢٣٨.

(٣) الأمالي للشيخ الصدوق: ص٥٦؛ الفصول المهمة لابن الصباغ المالكي: ج٢، ص١٠٠.

(٤) من لا يحضره الفقيه للصدوق: ج٣، ص٥٧٥.

والشفاعة للأنبياء والأوصياء والمؤمنين والملائكة وفي المؤمنين من يشفع في مثل ربيعة ومضر، وأقل المؤمنين شفاعة من يشفع لثلاثين إنساناً، والشفاعة لا تكون لأهل الشك والشرك، ولا لأهل الكفر والجحود، بل تكون للمذنبين من أهل التوحيد»[1].

وقال الشيخ المفيد ﺗﺘﺘ : (واتفقت الإمامية على أن رسول الله ﷺ يشفع يوم القيامة لجماعة من مرتكبي الكبائر من أمته، وأن أمير المؤمنين عليه السلام يشفع في أصحاب الذنوب من شيعته، وأن أئمة آل محمد ـ عليهم السلام ـ يشفعون كذلك وينجي الله بشفاعتهم كثيرا من الخاطئين، ووافقهم على شفاعة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المرجئة سوى ابن شبيب وجماعة من أصحاب الحديث، وأجمعت المعتزلة على خلاف ذلك زعمت أن شفاعة رسول الله للمطيعين دون العاصين وأنه لا يشفع في مستحق العقاب من الخلق أجمعين)[2].

وقال الشيخ الطوسي ﺗﺘﺘ (٣٨٥ـ٤٦٠هـ): (حقيقة الشفاعة عندنا أن يكون في إسقاط المضار دون زيادة المنافع، والمؤمنون عندنا يشفع لهم النبي ﷺ فيشفعه الله تعالى ويسقط بها العقاب عن المستحق من أهل الصراط لما روي من قوله ﷺ :

«**ادخرت شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي**»[3].

والشفاعة ثبتت عندنا للنبي صلى الله عليه وآله وسلم وكثير من أصحابه ولجميع الأئمة المعصومين وكثير من المؤمنين الصالحين).

---

(١) الاعتقادات في دين الإمامية، الصدوق: ص٦٦.

(٢) أوائل المقالات، الشيخ المفيد: ص٤٧.

(٣) النكت في مقدمات الأصول للشيخ المفيد: ص٥٤. معجم الزوائد للهيثمي: ج١٠، ص٣٧٨.

ثالثا: الشفاعة عند المفسرين

وقال السيد العلامة الطباطبائي قدس سره : (الشفاعة على ما نعرف من معناها إجمالا بالقريحة المكتسبة من الاجتماع والتعاون و(هي من الشفع مقابل الوتر كأن الشفيع ينضم إلى الوسيلة الناقصة التي مع المستشفع فيصير به زوجا بعد ما كان فردا فيقوى على نيل ما يريده، لو لم يكن يناله وحده لنقص وسيلته وضعفها وقصورها)، من الأمور التي نستعملها لانجاح المقاصد، ونستعين بها على حوائج الحياة، وجل الموارد التي نستعملها فيها اما مورد يقصد فيها جلب المنفعة والخير، وإما مورد يطلب فيها دفع المضرة والشر، لكن لا كل نفع وضرر.

فإنا لا نستشفع فيما يتضمنه الأسباب الطبيعية والحوادث الكونية من الخير والشر والنفع والضر، كالجوع، والعطش، والحر، والبرد، والصحة، والمرض، بل نتسبب فيها بالأسباب الطبيعية، ونتوسل إليها بوسائلها المناسبة لها كالاكل، والشرب، واللبس والاكتنان والمداواة، وانما نستشفع في الخيرات والشرور والمنافع والمضار التي تستدعيها أو تستتبعها أوضاع القوانين والاحكام التي وضعتها واعتبرتها وقررتها وأجرتها حكومة الاجتماع بنحو الخصوص أو العموم.

ففي دائرة المولوية والعبودية وعند كل حاكم ومحكوم، وأحكام من الأمر والنهي إذا عمل بها وامتثلها المكلف بها استتبع ذلك تبعة الثواب من مدح أو نفع، من جاه أو مال، وإذا خالفها وتمرد منها استتبع ذلك تبعة العقاب من ذم أو ضرر مادي، أو معنوي.

فإذا أمر المولى أو نهى عبده، أو كل من هو تحت سيادته وحكومته بأمر أو نهي مثلا فامتثله كان له بذلك أجر كريم، وإن خالف كان له عقاب أو عذاب

فهناك نوعان من الوضع والاعتبار، وضع الحكم ووضع تبعة الحكم، يتعين به تبعة الموافقة والمخالفة.

وعلى هذا الأصل تدور جميع الحكومات العامة بين الملل والخاصة بين كل إنسان ومن دونه، فإذا أراد الانسان أن ينال كمالا وخيرا ماديا أو معنويا وليس عنده ما يستوجب ذلك بحسب ما يعينه الاجتماع ، ويعرف به لياقته، أو أراد أن يدفع عن نفسه شرا متوجها إليه من عقاب المخالفة وليس عنده ما يدفعه، أعني الامتثال والخروج عن عهدة التكليف، وبعبارة واضحة إذا أراد نيل ثواب من غير تهيئة أسبابه، أو التخلص من عقاب من غير إتيان التكليف المتوجه إليه فذلك مورد الشفاعة، وعنده تؤثر لكن لا مطلقا فإن من لا لياقة له بالنسبة إلى التلبس بكمال، أو لا رابطة له تربطها إلى المشفوع عنده أصلا، كالعامي الأمي الذي يريد تقلد مقام علمي، أو الجاحد الطاغي الذي لا يخضع لسيده أصلا لا تنفع عنده الشفاعة، فإنما الشفاعة متممة للسبب لا مستقلة في التأثير.

ثم إن تأثير الشفيع عند الحاكم المشفوع عنده لا يكون تأثيرا جزافيا من غير سبب يوجب ذلك بل لا بد أن يوسط أمرا يؤثر في الحاكم، ويوجب نيل الثواب، أو التخلص من العقاب، فالشفيع لا يطلب من المولى مثلا أن يبطل مولوية نفسه وعبودية عبده فلا يعاقبه، ولا يطلب منه أن يرفع اليد عن حكمه وتكليفه المجعول، أو ينسخه عموما أو في خصوص الواقعة فلا يعاقبه، ولا يطلب منه أن يبطل قانون المجازاة عموما أو خصوصا فلا يعاقب لذلك رأسا، أو في خصوص الواقعة، فلا نفوذ ولا تأثير للشفيع في مولوية وعبودية، ولا في حكم ولا في جزاء حكم، بل الشفيع بعد ما يسلم جميع الجهات الثلاث المذكورة إنما يتمسك: إما

بصفات في المولى الحاكم توجب العفو والصفح كسؤدده، وكرمه، وسخائه، وشرافة محتده، وإما بصفات في العبد تستدعي الرأفة والحنان وتثير عوامل المغفرة كمذلته ومسكنته وحقارته وسوء حاله، وإما بصفات في نفسه أعني نفس الشفيع من قربه إلى المولى وكرامته وعلو منزلته عنده فيقول: ما أسألك إبطال مولويتك وعبوديته، ولا أن تبطل حكمك ولا أن تبطل الجزاء، بل أسألك الصفح عنه بأن لك سؤددا ورأفة وكرما لا تنتفع بعقابه ولا يضرك الصفح عن ذنبه أو بأنه جاهل حقير مسكين لا يعتني مثلك بشأنه ولا يهتم بأمره أو بأن لي عندك من المنزلة والكرامة ما يوجب إسعاف حاجتي في تخليصه والعفو عنه.

ومن هنا: يظهر للمتأمل أن الشفيع إنما يحكم بعض العوامل المربوطة بالموارد المؤثرة في رفع العقاب مثلا من صفات المشفوع عنده أو نحوها على العامل الآخر الذي هو سبب وجود الحكم وترتب العقاب على مخالفته، ونعني بالحكومة أن يخرج مورد الحكم عن كونه موردا بإدخاله في مورد حكم آخر، فلا يشمله الحكم الأول لعدم كونه من مصاديقه لا أن يشمله فيبطل حكمه بعد الشمول بالمضادة كإبطال الأسباب المتضادة في الطبيعة بعضها حكم بعض بالمعارضة والغلبة في التأثير، فحقيقة الشفاعة التوسط في إيصال نفع أو دفع شر بنحو الحكومة دون المضادة. ومن هنا يظهر أيضا: أن الشفاعة من مصاديق السببية فهي توسيط السبب المتوسط القريب بين السبب الأول البعيد ومسببه، هذا ما يتحصل من تحليل معنى الشفاعة التي عندنا)[1].

ويظهر مما سبق أن مسألة الشفاعة هي حقيقة قرآنية قد نص عليها الوحي وبيّنها النبي الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم وأن أئمة آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم يشفعون للمذنبين من شيعتهم.

---

(١) تفسير الميزان: ج١، ص١٥٧-١٥٩.

وهنا في شأن أم وهب فأمر الشفاعة الذي حثت ولدها عليه عند خروجه للقتال بين يدي ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عائد لكونها لم ترزق الشهادة بين يدي أبي عبد الله عليه السلام كما نالها ولدها وزوجته ولكونها لم تحظَ بذلك فرجّحت نوال شفاعة الحسين عليه السلام.

رابعاً: شفاعة الإمام الحسين عليه السلام

إن من الثوابت التي اشتملت عليها عقيدتنا بأهل البيت عليهم السلام أن الله تعالى قد خصهم بالشفاعة كما خص من قبل جدهم المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم وحيث أن الشافع تتسع دائرة شفاعته عند الله تعالى بلحاظ حظوته ومنزلته فإن مما لا ريب فيه أن الحظوة والمنزلة التي للحسين عليه السلام عند الله تعالى هي منزلة وحظوة خاصة تتناسب مع عبوديته لمولاه وربه عزّ شأنه؛ وحيث أن الله تعالى يجازي أولياءه بأحسن ما قدموا لربهم.

فضلا عن كونه عزّ شأنه أكرم الأكرمين وأجود المعطين، وقوله صدق ووعده حق فلا يتغير لديه القول لزم أن يفيض على الشافع بلطفه وجماله وإحسانه فلا يرده خائبا لا خجلا بل يظهر سبحانه للمستشفعين جلالة قدر من استشفعوا بهم وسمو منزلتهم لديه، ليغبطهم عليه السلام ويغبط شيعتهم بذلك ويحرق قلوب أعدائهم بهذه الشفاعة.

ولأن هذه الشفاعة لا ينالها إلا ذو حظ عظيم فقد ورد التوسل بها إلى الله تعالى في زيارة عاشوراء وفي السجود كي يكون المستشفع داعياً ربه في أقرب المواطن إلى الله سبحانه لعظم هذه النعمة يوم القيامة.

كما جاء في الدعاء :

(اللهم ارزقني شفاعة الحسين يوم الورود).

ولأنها شفاعة خاصة اقترن تحصيلها بثبات القدم وبصدقه كما جاء في آخر كلمات الدعاء في زيارة عاشوراء :

«وثبت لي عندك قدم صدق مع الحسين وأصحاب الحسين الذين بذلوا مهجم دون الحسين عليه السلام».

وعليه :

فان أم وهب قد قدمت الثبات ، والصدق ولذا فهي من حيث الأصل قد حققت ما عليها وقامت بما ينبغي منها وبقي عندها أمر واحد وهي الشفاعة الحسين عليه السلام يوم الورود ولذا تسأل الله أن لا يخيب رجائها ، ولذلك قام الإمام أبو عبد الله عليه السلام بالدعاء لها وتطمينها مرتين.

الأولى : حينما خرجت زوجة وهب وقد أخذت عموداً وأقبلت نحو زوجها وهب وهي تقول له : فداك أبي وأمي قاتل دون الطيبين حرم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فاقبل كي يردها إلى النساء فأخذت بجانب ثوبه ، وقالت لن أعود أو أموت معك فقال الإمام الحسين عليه السلام :

«جزيتم من أهل بيت خيراً».

فكان هذا التطمين الأول بأنهم مشتركون في أجر الجهاد.

والتطمين الثاني : حينما قال عليه السلام لأم وهب :

«أرجعي يا أم وهب أنتِ وابنك مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم».

الموضع الثاني من أدعيته لأصحابه: دعاؤه لجون

قال عليه السلام في دعائه:

«أللهم بيّض وجهه، وطيّب ريحه، واحشره مع الأبرار، وعرّف بينه وبين محمد وآل محمد».

مسائل البحث في الدعاء:

المسألة الأولى: من هو جون؟

روى الشاهرودي: (إنّ جون كان عبداً للفضل بن العباس بن عبد المطلب، اشتراه أمير المؤمنين (صلوات الله عليه بمائة وخمسين ديناراً ووهبه لأبي ذر ليخدمه، وكان عنده إلى الربذة، فلما توفي أبوذر رجع وانضم إلى أمير المؤمنين ثم إلى الحسن ثم إلى الحسين صلوات الله عليهم أجمعين، ثم تشرف بشرف الشهادة في يوم عاشوراء[1].

المسألة الثانية: أسباب الدعاء

ذكر أصحاب المقاتل والتراجم: عن جوناً برز للقتال وكان عبداً أسود، فقال له الحسين عليه السلام:

«أنت في اذن مني، فإنما تبعتنا طلباً للعافية، فلا تبتل بطريقنا».

فقال: يا ابن رسول الله أنا في الرخاء الحس قصاعكم وفي الشدة أخذلكم؛ والله ان ريحي لمنتن، وان حسبي للئيم، ولوني لأسود، فتنفس علي بالجنة،

---

(١) البحار للمجلسي: ج٤٥، ص٢٣. روضة الواعظين: ج١، ص١١٧. أعيان الشيعة للأمين: ج١، ص٦٠٥. مستدرك علم الرجال، الشاهرودي: ج٢، ص٢٤٥، برقم ٢٩٦٠.

فتطيب ريحي ويشرق حسبي، ويبيض وجهي؟ لا والله لا أفارقكم حتى يختلط هذا الدم الأسود مع دمائكم».

فوقف عليه الحسين عليه السلام وقال:

«أللهم بيّض وجهه وطيّب ريحه واحشره مع الأبرار وعرّف بينه وبين محمد وآل محمد»[1].

المسألة الثالثة: تحقق الأثر الغيبي في دعائه عليه السلام لجون

من المواضع التي تحقق فيها الأثر الغيبي في دعاء الإمام الحسين عليه السلام هو دعاؤه لجون عليه السلام.

فقد روي عن الإمام الباقر عليه السلام عن أبيه علي بن الحسين عليهما السلام، أنه قال:

«إنّ الناس كانوا يحضرون المعركة، ويدفنون القتلى، فوجدوا جوناً بعد عشرة أيام يفوح منه رائحة المسك رضوان الله عليه»[2].

وفيه أمور ينبغي الإشارة إليها، منها:

أولا: من المشهور تاريخياً أن الإمام زين العابدين عليه السلام قد تولى دفن الأجساد الطاهرة بعد ثلاثة أيام من استشهاد الإمام الحسين عليه السلام وكان يعينه على

(١) مثير الأحزان لابن نما الحلي: ص٤٨. اللهوف في قتلى الطفوف لابن طاووس: ص٦٥. ابصار العين للسماوي: ص١٧٧.

(٢) بحار الأنوار للمجلسي: ج٤٥، ص٢٣. العوالم، الإمام الحسين عليه السلام للبحراني: ص٢٦٦. مستدرك سفينة البحار: ج٢، ص ١٣٨. لواعج الأشجان، السيد محسن الأمين: ص١٤٩.

ذلك بنو أسد. والذي يستفاد من الرواية أن الإمام زين العابدين عليه السلام لم يدفن جوناً مولى أبي ذر الغفاري في هذا الوقت وإنما تركه لكي يدفنه بنو أسد بعد عشرة أيام من يوم عاشوراء، أي في العشرين من المحرم ففي هذا اليوم تم إلحاق جون في روضة الشهداء التي دفنهم فيها الإمام زين العابدين عليه السلام، وحيث أن بني أسد كانوا يعينون الإمام على مواراة هذه الأجساد فقد عرفوا مواضعها، وألحقوا جوناً مع الشهداء عليهم السلام.

ثانيا: إنّ الحكمة في ترك الإمام زين العابدين عليه السلام دفن جون هي لتعريف الناس بمكانته عند الله تعالى وفي تحقق دعاء الإمام الحسين عليه السلام في تبييض لونه وتطييب ريحه ولذا كان المسك يفوح منه على الرغم من بقائه عشرة أيام بعد موته مما يدل على أن هذا البدن ليس فقط تغيرت رائحته وإنما لم تؤثر فيه العوامل الطبيعية عند خروج الروح من تعفن وتآكل أو بفعل الخلايا البكتيرية التي تسبب رائحة نتنة قوية.

ثالثا: كما يمكن فهم الحكمة في فعل الإمام زين العابدين عليه السلام هو لتحقيق أمنية جون حينما تمنى من الإمام الحسين عليه السلام تحقيق أمور ثلاثة كان يتمناها في الحياة الدنيا، وإلا هو في الآخرة موقن بمكانه في الجنة من خلال ملازمته لأهل البيت عليهم السلام وهو ما أشار إليه الإمام الحسين عليه السلام حينما قال له:

«أنت في إذن مني فإنما تبعتنا للعافية فلا تبتل بطريقتنا»[1].

وهي الشهادة.

---

(١) مستدرك أعيان الشيعة، حسن الأمين: ج١، ص٢٩.

فأجابه بقوله: (يا بن رسول الله أنا في الرخاء ألحس قصاعكم، وفي الشدة أخذلكم، والله إن ريحي لنتن وأن حسبي لئيم، وإن لوني لأسود فتنفس علي بالجنة فيطيب ريحي، ويشرف حسبي، ويبيض وجهي، لا والله لا أفراقكم حتى يختلط هذا الدم الأسود مع دمائكم)[١].

ثم برز وهو يقول:

كيف ترى الكفار ضرب الأسود	بالسيف ضربا عن بني محمد
أذب عنهم باللسان واليد	أرجو به الجنة يوم المورد[٢]

فكان ترك الإمام زين العابدين عليه السلام لبدن جون هو لتحقيق تلك الأمنيات الدنيوية والتي تعكس الأحاسيس الوجدانية التي يشعر بها العبيد في المجتمع الذي ينظر إليهم بالازدراء والتفرقة والتعالي عليهم لاسيما في الجزيرة آنذاك.

فأراد جون عليه السلام أن تتحقق هذه الأمنيات وينظر الناس إليه بتلك النظرة التي ينظرون بها إلى أهل الحسب والشرف وأن تنتهي هذه النظرة الدونية من الناس إليه.

وإلاّ في حقيقة الحال هو لا يحتاج إلى هذه النظرة في الآخرة، قال تعالى:

﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾[٣].

(١) مثير الأحزان، ابن نما الحلي: ص٤٨. بحار الأنوار للعلامة المجلسي رحمه الله: ج٤٥، ص٢٢. لواعج الأشجان، محسن الأمين: ص١٤٩.

(٢) المناقب، ابن شهر آشوب: ج٣، ص٢٥٢. بحار الأنوار: ج٤٥، ص٢٢. الفتوح، ابن أعثم الكوفي: ج٥، ص١٠٨.

(٣) سورة المؤمنون، الآيات: ١٠١، ١٠٢.

ومن هنا: عرف الناس حسبه وشرفه الرفيع في الدنيا قبل الآخرة وأيقنوا من خلال مشاهدتهم وتعرفهم عليه بعد عشرة أيام من استشهاده أنه من أهل العزّة والرفعة والجلالة وأنّ هذه الطبقية التي تطبّع عليها الناس فيجلون هذا ويأنفون من ذاك وفق معطيات المال واللون والنسب ومفاهيمها وأحساب الآباء هي في الآخرة وبالٌ على أهلها إن لم يحسنوا استخدامها في طاعة الله تعالى. وأنّ العزة والشرف والرفعة هي في طاعة الله تعالى التمسك بما أمر به رسول الله ﷺ وهو القرآن والعترة.

رابعا: قوله رضوان الله عليه:

«فتنفس علي بالجنة فيطيب ريحي ويشرف حسبي...».

يكشف عن حقيقة مهمة وهي: أنه أصبح الآن في الجنة التي يتغير فيها ما يبتلى به الإنسان في الحياة الدنيا من اللون الأسود أو الريح النتن أو التفاوت في المقامات الاجتماعية وغيرها.

فحينما تغير لونه، وطاب ريحه الذي أصبح كالمسك، ولم يتغير بدنه بعد عشرة أيام من استشهاده يدل على أنه في الجنة؛ ولذلك نجد أن ذكر الجنة في طلبه تقدم على تغير اللون وطيب الرائحة كي يتحقق ما يبتغيه من بياض اللون وطيب الرائحة وشرافة المقام.

وهذا يكشف عن مستوى إيمانه ورسوخ عقيدته فهو قد أيقن أن هذه الظواهر الدنيوية والنظرة الدونية والتفاوت في الطبقات الاجتماعية كلها تزول حينما يدخل الإنسان الجنة، ولكي يعرف الناس بأنه من أهل الجنة وإنه فاقهم في عزّه وشرفه وطاعته لله ورسوله وأهل بيته فقد تحققت أمنيته فدخل الجنة، ولذا تغير لونه وطاب ريحه وشرف حسبه، حتى لو بقي على الأرض إلى يوم يبعثون.

الموضع الثالث من أدعيته عليه السلام لأصحابه: دعاؤه لأبي الشعثاء الكندي

قال عليه السلام:

«أللهم سدد رميته واجعل ثوابه الجنة».

مسائل البحث في الدعاء

المسألة الأولى: من هو (أبو الشعثاء الكندي)؟

قال التستري: (يزيد بن زياد بن مهاصر، الكندي، البهدلي، استشهد مع الحسين عليه السلام وسلم عليه في زيارة الناحية المقدسة.

وفي الطبري، عن أبي مخنف، عن فضيل بن خديج الكندي أنه جثا على ركبتيه بين يدي الحسين عليه السلام فرمى بمائة سهم ما سقط منها إلاّ خمسة أسهم، فكان كلما رمى قال:

أنـــا بـــن بهدلـــة فرســـان العرجلـــة

ويقول له الحسين عليه السلام:

«أللهم سدد رميته واجعل ثوابه الجنة».

فلما رمى بها قام، فقال: ما سقط منها إلا خمسة أسهم، ولقد تبين لي أني قد قتلت خمسة نفر[1].

(١) قاموس الرجال، التستري: ج١١، ص١٠٢. تاريخ الطبري: ج٤، ص٣٤٠. الكامل لابن الأثير: ج٤، ص٧٣.

وكان ممن خرج مع عمر بن سعد إلى الحسين عليه السلام فلما ردوا الشروط على الحسين عليه السلام مال إلى الحسين عليه السلام.

وهذا القول للطبري يتنافى مع قول آخر له يذكر فيه أن أبا الشعثاء كان ضمن معسكر الإمام الحسين عليه السلام كما تدل عليه المحاورة التي دارت بينه وبين رسول عبيد الله بن زياد إلى الحر بن يزيد حينما خرج لملاقاة الإمام الحسين عليه السلام[١].

المسألة الثانية: دور القائد في رفع مستوى المقاتل

يظهر من بعض النصوص التاريخية، ولاسيما ما ورد في سيرة المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم أن العرب كانت تختار اكفأ الرماة في معاركها فيجلسون أمام القائد ويرمي الرامي بسهامه ويقوم القائد برفع همة الرامي من خلال الثناء عليه أو الدعاء له ـ كما كان يفعل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في معركة أحد حينما دعا لسعد بقوله:

«أللهم سدد رميته وأجب دعوته»[٢].

والحكمة في ذلك الفعل: هو اعتماد الرامي على قواه الذهنية واستقراره النفسي وضبط هواجسه كي يستطيع تسديد رميته وإصابة هدفه.

ومن هنا: نجد أن الإمام الحسين عليه السلام أجلسه أمامه ووقف بجانبه يدعو له ليشترك في ذهن الرامي الحرص على إصابة الهدف، واستحصال رضا الله تعالى في ذلك.

ولذلك: كانت النسبة في إصابة العدد (٩٥٪) فمن بين مائة سهم سقط خمسة.

---

(١) قاموس الرجال، التستري: ج١١، ص١٠٢، بتصرف.

(٢) مستدرك الحاكم: ج٣، ص٢٦. المصنف للصنعاني: ج١١، ص٢٣٨. كتاب السنة لابن أبي عاصم: ص٦٠١. البحار للمجلسي: ج١٨، ص١٨.

الموضع الرابع من دعائه عليه السلام لأصحابه: دعاؤه للغفاريان

قال عليه السلام:

«جزاكم الله يا ابني أخي بوجدكما في ذلك ومواساتكما أياي بأنفسكما أحسن جزاء المتقين».

مسائل البحث في الدعاء:

المسألة الأولى: أسباب الدعاء

أولا: إنّ الظاهر من رواية الطبري أنهما ممن التحق بجيش عمر بن سعد رغماً عنهما كما هو واضح في قولهما لسيد الشهداء عليه السلام: (حازنا العدو إليك فأحببنا أ ن نقتل بين يديك نمنعك وندفع عنك)[1].

ثانيا: إنهما كانا يبكيان حينما جاءا لنصرة الإمام الحسين عليه السلام وهذا يكشف عن صدق مشاعرهما وحبهما لسيد الشهداء عليه السلام وإنهما كانا يتمنيان لو يستطيعان أن يدفعا عنه بأكثر من تقديم نفسيهما؛ بمعنى يبكيان على غربته وقلة ناصره.

ولذلك قال لهما:

«أدنوا مني».

فدنوا منه وهما يبكيان، فقال لهما:

«يا ابني أخي ما يبكيكما؟ فوالله إني لأرجو أن تكونا عن ساعة قريري العين».

---

(١) تاريخ الطبري: ج٤، ص٣٣٧. الكامل في التاريخ: ج٤، ص٧٢.

فقالا : جعلنا الله فداك ، لا والله ما نبكي على أنفسنا ولكن نبكي عليك ، نراك قد أحيط بك ولا نقدر على أن نمنع عنك ، فدعا لهما[١].

المسألة الثانية: التعريف بهما

هما : عبد الله وعبد الرحمن أبناء عزرة[٢] ، وقيل : عروة[٣] الغفاريان ؛ أي كانا أخوين ، ولم أعثر على ترجمة لهما في كتب الرجال.

المسألة الثالثة: درجات المواساة للعترة النبوية ورتب استحقاقها من الأجر

يُظهر الدعاء مراتب استحقاق الأجر ضمن درجات المواساة للعترة النبوية صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين في نطاق سنة إلهية مرتبة بالأعمال التي يقوم بها الإنسان ، وهو يسير ـ أي هذا الدعاء ـ جنبا إلى جنب مع قوله تعالى :

﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ﴾[٤].

بمعنى : أنّ الله تعالى يجازي العامل على عمله حسبما يقدمه من مكنوناته القلبية والنفسية والجسدية ، فقد يُعبّر الإنسان من خلال نعمة قوة البدن عن الطاعة لله وقلبه منصرف لغير الله ، وقد يتفاوت الانصراف لغير الله تعالى ، كما يتفاوت التوجه إليه أيضا.

---

(١) بحار الأنوار للعلامة المجلسي : ج٤٥ ، ص٢٩. العوالم ، الإمام الحسين عليه السلام : ص٢٧٣. الكامل لابن الأثير: ج٤ ، ص٧٢. أعيان الشيعة : ج١ ، ص٦٠٧.

(٢) تاريخ الطبري : ج٤ ، ص٣٣٧.

(٣) الكامل ، ابن الأثير: ج٤ ، ص٧٢.

(٤) سورة الزلزلة ، الآية : ٧.

كما يدل عليه الأثر النبوي، حينما دخل صلى الله عليه وآله وسلم إلى المسجد ورأى مصلياً يصلي وهو يعبث بلحيته، فقال صلى الله عليه وآله وسلم:

«أما إنه لو خشع قلبه لخشعت جوارحه»[١].

فهنا أجر المصلي يتناسب مع إقبال قلبه وخشوع جوارحه، فكل شيء بقدر، كما أن عوائد هذه الأعمال مختلفة أيضا فمن كان دامع العين منصرفاً بكله إلى الله تعالى وهو يصلي فإن العوائد الإيمانية والبدنية والقلبية التي تعود عليه مختلفة أيضا.

وحينما ننظر إلى هذه السنة الإلهية وما دلت عليه الأحاديث الشريفة في معرض بيانها لتفاوت درجات المواساة لأهل البيت عليهم السلام نجد أنّ المقبل إليهم بقلبه وعقله ونفسه له من الأجر والثواب ما يتناسب مع تقديمه هذه النعم في طاعة الله تعالى، ومشرك هذه النعم من خلال مواساة أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وان التفاوت في الأجر يرجع إلى التفاوت في النعم الإلهية التي تصرف في طاعة الله تعالى، فمن استعان بنعمة البدن يختلف في استحقاقه للأجر عن الذي استعان بنعمة البدن والقلب معاً في طاعة الله تعالى ومواساة رسوله وأهل بيته عليهم السلام.

بمعنى: أنّ من أشرك الدمع والحزن بوصفهما ألمين مترابطين بالقلب والنفس في مواساة العترة عليهم السلام، يختلف من حيث الاستحقاق الأخروي عند الله تعالى من الذي قدم المواساة بالنفس فقط. وهذا يدل على عظم هذه النعمة عند الله تعالى، أي: نعمة الموالاة لأهل البيت عليهم السلام، ولذلك يثيب الله تعالى عليها بأجر لا يعلمه إلا هو عزّ شأنه، كما يدل على عظم منزلة أهل البيت عليهم السلام عند الله تعالى.

---

(١) منتهى المطلب للعلامة الحلي: ج١، ص٣١٢. المصنف لابن أبي شيبة الكوفي: ج٢، ص١٩١. ميزان الحكمة، محمد الريشهري: ج٢، ص١٦٣٦، برقم٢٢٨٦.

ومن هنا: جاءت الأحاديث الشريفة لتبين هذه الرتب في الاستحقاق الأخروي والدنيوي وعوائدهما في كلا الدارين؛ فمنها:

١ـ عن الحسن بن محبوب، عن أبي الحسن الرضا عليه السلام قال، قال لي:

«لابد من فتنة صماء صيلم[١] يسقط فيها كل بطانة ووليجة[٢]، وذلك عند فقدان الشيعة الثالث من ولدي يبكي عليه أهل السماء وأهل الأرض وكل حرى وحران وكل حزين لهفان.

ثم قال بأبي وأمي:

«سمّي جدي، شبيهي وشبيه موسى بن عمران ـ عليه السلام ـ عليه جيوب النور، تتوقد بشعاع ضياء القدس كم من حرى مؤمنة، وكم مؤمن متأسف حيران، حزين عند فقدان الماء المعين»[٣].

٢ـ عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال:

«نفس المهموم لنا، المغتم لظلمنا تسبيح، وهمه لأمرنا عبادة، وكتمانه لسرنا جهاد في سبيل الله»[٤].

قال محمد بن سعيد أحد رواة الحديث: أكتب هذا بالذهب فما كتبت شيئا أحسن منه.

---

(١) الصيلم: الأمر الشديد.

(٢) بطانة الرجل ووليجته: خاصته.

(٣) الإمامة والتبصرة، لابن بابويه القمي: ص١١٤، ح١٠٢. عيون أخبار الرضا، للشيخ الصدوق: ج١، ص١٠، ح١٤.

(٤) الكافي، للشيخ الكليني رحمه الله: ج٢، ص٢٢٦، ح١٦. وسائل الشيعة (آل البيت)، للحر العاملي: ج١٦، ص٢٥٠.

٣ـ عن مسمع كردين البصري، قال: قال أبو عبد الله عليه السلام:

«**يا مسمع أنت من أهل العراق أما تأتي قبر الحسين عليه السلام**»؟.

قلت: لا، أنا رجل مشهور عند أهل البصرة، وعندنا من يتبع هوى هذا الخليفة وعدونا كثير من أهل القبائل من النصاب وغيرهم، ولست آمنهم أن يرفعوا حالي عند ولد سليمان فيمثلون بي. قال لي:

«**أفما تذكر ما صنع به**»؟.

قلت: نعم، قال:

«**فتجزع؟**».

قلت: إي والله، واستعبر لذلك حتى يرى أهلي اثر ذلك علي، فامتنع من الطعام حتى يستبين ذلك في وجهي، قال:

«**رحم الله دمعتك، أما انك من الذين يعدون من أهل الجزع لنا، والذين يفرحون لفرحنا، ويحزنون لحزننا، ويخافون لخوفنا، ويأمنون إذا أمنا، أما انك سترى عند موتك حضور آبائي لك ووصيتهم ملك الموت بك وما يلقونك به من البشارة أفضل، وملك الموت ارق عليك وأشد رحمة لك من الام الشفيقة على ولدها**».

قال: ثم استعبر ـ عليه السلام ـ واستعبرت معه، فقال:

«**الحمد لله الذي فضلنا على خلقه بالرحمة وخصنا أهل البيت بالرحمة، يا مسمع إن الأرض والسماء لتبكي منذ قتل أمير المؤمنين عليه السلام رحمة لنا، وما بكى لنا من الملائكة أكثر وما رقأت دموع الملائكة منذ قتلنا، وما بكى أحد رحمة لنا ولما لقينا إلا رحمه الله قبل أن تخرج الدمعة من عينه، فإذا سالت دموعه على خده**

فلو أن قطرة من دموعه سقطت في جهنم لأطفأت حرها حتى لا يوجد لها حر، وإن الموجع قلبه لنا ليفرح يوم يرانا عند موته فرحة لا تزال تلك الفرحة في قلبه حتى يرد علينا الحوض، وان الكوثر ليفرح بمحبنا إذا ورد عليه حتى أنه ليذيقه من ضروب الطعام ما لا يشتهي أن يصدر عنه. يا مسمع من شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبدا ولم يستق بعدها أبدا، وهو في برد الكافور وريح المسك وطعم الزنجبيل، أحلى من العسل، وألين من الزبد، وأصفى من الدمع، وأذكى من العنبر، يخرج من تسنيم ويمر بأنهار الجنان، يجري على رضراض الدر والياقوت، فيه من القدحان أكثر من عدد نجوم السماء، يوجد ريحه من مسيرة ألف عام، قدحانه من الذهب والفضة وألوان الجوهر، يفوح في وجه الشارب منه كل فائحة حتى يقول الشارب منه: يا ليتني تركت هاهنا لا أبغي بهذا بدلا ولا عنه تحويلا.

أما انك يا كردين ممن تروي منه، وما من عين بكت لنا إلا نعمت بالنظر إلى الكوثر وسقيت منه من أحبنا، وان الشارب منه ليعطي من اللذة والطعم والشهوة له أكثر مما يعطاه من هو دونه في حبنا، وان على الكوثر أمير المؤمنين عليه السلام وفي يده عصا من عوسج يحطم بها أعداءنا، فيقول الرجل منهم: إني أشهد الشهادتين، فيقول: انطلق إلى إمامك فلان فاسأله أن يشفع لك، فيقول: يتبرأ مني إمامي الذي تذكره، فيقول: ارجع إلى ورائك فقل للذي كنت تتولاه وتقدمه على الخلق فاسأله إذا كان خير الخلق عندك أن يشفع لك، فان خير الخلق حقيق أن لا يرد إذا شفع، فيقول: إني أهلك عطشا، فيقول له: زادك الله ظمأ، وزادك الله عطشا».

قلت: جعلت فداك وكيف يقدر على الدنو من الحوض ولم يقدر عليه غيره، فقال:

«ورع عن أشياء قبيحة وكف عن شتمنا أهل البيت إذا ذكرنا، وترك أشياء اجترى عليها غيره، وليس ذلك لحبنا ولا لهوى منه لنا، ولكن ذلك لشدة اجتهاده في عبادته وتدينه ولما قد شغل نفسه به عن ذكر الناس، فأما قلبه فمنافق ودينه النصب باتباع أهل النصب وولاية الماضين وتقدمه لهما على كل أحد»[1].

فهذه الأحاديث الشريفة تكشف عن تفاوت درجات المواساة لأهل البيت عليهم السلام عند الله عز وجل ولأجل هذا التفاوت اختلفت رتب استحقاق الأجر.

ولأجله: نجد أن الإمام الحسين عليه السلام بيّن في دعائه للغفاريين أن الذي يواسي أهل البيت عليهم السلام بالعواطف القلبية كالحزن والبكاء لأجلهم ويقرن ذلك بالمواساة بالنفس يكون أجره عند الله تعالى:

«أحسن جزاء المتقين».

وهذا الأمر واضح جلي في دعائه عليه السلام حيث قال:

«جزاكما الله يا ابني أخي بوجدكما من ذلك ومواساتكما إياي بانفسكما أحسن جزاء المتقين».

أما جزاء المتقين فالقرآن الكريم مليئ بالآيات المباركة التي تتحدث عن جزاء المتقين في الآخرة لا حاجة لذكرها سوى أن من حزن شديداً لدرجة البكاء وواسى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته بنفسه سينال أحسن ما أعد الله سبحانه للمتقين من النعيم في الآخرة.

---

(١) كامل الزيارات، لجعفر بن محمد بن قولوية: ص٢٠٣ إلى ٢٠٤، برقم(٢٩١)٧. بحار الأنوار للعلامة المجلسي رحمه الله: ج٤٤، ص٢٨٩، ح٣١.

الموضع الخامس من دعائه لأصحابه: دعاؤه لأبي ثمامة الصائدي

قال عليه السلام:

«**ذكرت الصلاة جعلك الله من المصلين الذاكرين**».

مسائل البحث في الدعاء:

المسألة الأولى: أسباب الدعاء

ذكر المؤرخون وأصحاب المقاتل: «وتعطف الناس على ـ أصحاب الحسين عليه السلام ـ فكثروهم فلا يزال الرجل من أصحاب الحسين قد قتل، فإذا قتل منهم الرجل والرجلان تبين فيهم وأولئك كثير لايتبين فيهم ما يقتل منهم.

فلما رأى ذلك أبو ثمامة عمرو بن عبد الله الصائدي قال للحسين عليه السلام: يا أبا عبد الله، نفسي لك الفداء، إني أرى هؤلاء قد اقتربوا منك، ولا والله لا تقتل حتى أقتل دونك إن شاء الله، وأحب أن ألقى ربي وقد صليت هذه الصلاة التي قد دنا وقتها. قال: فرفع الحسين رأسه، ثم قال:

«**ذكرت الصلاة، جعلك الله من المصلين الذاكرين، نعم، هذا أول وقتها**».

ثم قال:

«**سلوهم أن يكفوا عنا حتى نصلي**».

فقال لهم الحصين بن تميم: إنها لا تُقبل! فقال له حبيب بن مظاهر: لا تقبل، زعمت الصلاة من آل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وتقبل منك يا حمار»[1].

---

(١) تاريخ الطبري: ج٤، ص٣٣٤. الكامل لابن الأثير: ج٤، ص٧٠، مقتل أبي مخنف الأزدي: ص١٤٢.

وفي رواية: فهل تقبل صلاتك يا ابن الخمارة البوالة على عقبيها[١].

وفي رواية: (فأذن وأقام، فقاموا في الصلاة، وهم ـ أي: جيش عمر بن سعد ـ يرمون السهام إليهم؛ فقال: يا ويلكم ألا تقفون عن الحرب حتى نصلي.

قال: فحمل عليهم حصين بن تميم، وخرج إليه حبيب بن مظاهر، فضرب وجه فرسه بالسيف فشب ووقع عنه، وحمله أصحابه، واستنقذوه)[٢].

المسألة الثانية: التعريف بأبي ثمامة الصائدي

ترجم له الشيخ محمد السماوي بقوله: (هو عمرو بن عبد الله بن كعب الصائد بن شرحبيل بن شراحيل بن عمرو بن جشم بن حاشد بن جشم بن حيزون بن عوف بن همدان، أبو ثمامة الهمداني الصائدي.

كان أبو ثمامة تابعيا، وكان من فرسان العرب ووجوه الشيعة، ومن أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام الذين شهدوا معه مشاهده، ثم صحب الحسين عليه السلام بعده، وبقي في الكوفة، فلما توفي معاوية كاتب الحسين عليه السلام، ولما جاء مسلم بن عقيل ـ عليه السلام ـ إلى الكوفة قام معه وصار يقبض الأموال من الشيعة بأمر مسلم فيشتري بها السلاح، وكان بصيرا بذلك.

ولما دخل عبيد الله الكوفة وثار الشيعة بوجهه، وجهُه مسلم فيمن وجهه، وعقد له على ربع تميم وهمدان، فحصروا عبيد الله في قصره، ولما تفرق عن مسلم الناس بالتخذيل، اختفى أبو ثمامة فاشتد طلب ابن زياد له، فخرج إلى

---

(١) ينابيع المودة، القندوزي: ج٣، ص٧٠.

(٢) بحار الأنوار للعلامة المجلسي رحمه الله: ج٤٥، ص٢١. العوالم، الإمام الحسين عليه السلام، الشيخ البحراني: ص٢٦٤. لواعج الأشجان، محسن الأمين: ص١٥٥. معالم المدرستين، مرتضى العسكري: ص١١١.

الحسين عليه السلام ومعه نافع بن هلال الجملي، فلقياه في الطريق وأتيا معه.

قال الطبري: ولما نزل الحسين كربلاء ونزلها عمر بن سعد، بعث إلى الحسين عليه السلام كثير بن عبد الله الشعبي ـ وكان فاتكا ـ فقال له: إذهب إلى الحسين وسله ما الذي جاء به؟ قال: أسأله فإن شئت فتكت به، فقال: ما أريد أن تفتك به ولكن أريد أن تسأله، فأقبل إلى الحسين، فلما رآه أبو ثمامة الصائدي قال للحسين، أصلحك الله أبا عبد الله! قد جاءك شر أهل الأرض وأجرأهم على دم وأفتكهم، ثم قام إليه وقال: ضع سيفك.

قال: لا والله ولا كرامة، إنما أنا رسول فإن سمعتم مني أبلغتكم ما أرسلت به إليكم، وإن أبيتم انصرفت عنكم، فقال له أبو ثمامة: فإني آخذ بقائم سيفك، ثم تكلم بحاجتك، قال: لا والله ولا تمسه. فقال له: فأخبرني بماذا جئت؟ وأنا أبلغه عنك، ولا أدعك تدنو منه، فإنك فاجر.

قال: فاستسبا، ثم رجع كثير إلى عمر فأخبره الخبر، فأرسل قرة بن قيس التميمي الحنظلي مكانه فكلم الحسين عليه السلام[1].

المسألة الثالثة: دور القائد في ترسيخ حب الصلاة وإقامتها

تشكل الصلاة أحد أهم الفرائض التي جاء بها الإسلام وأكثرها ظهورا في الدلالة على هذا الدين، ناهيك عن دورها الأساس في تقويم السلوك الإنساني بصفتها:

﴿تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾.

---

(١) إبصار العين في أنصار الحسين عليه السلام، الشيخ محمد السماوي: ص١٢٠.

ولقد سعى النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم إلى ترسيخ هذه الفريضة في أذهان المسلمين لكونها من ضروريات الدين، حتى (أن مستحل تركها كافر إن لم يدع شبهة محتملة)[١].

ولذلك: لم تعذر الشريعة الإسلامية بأي حال من الأحوال ترك الفريضة، (فهي واجبة حتى على الكافر وإن لم تصح منه)[٢].

والموقف الذي قدمه سيد الشهداء عليه السلام يوم العاشر هو رسالة عملية لجميع متبعي الأديان تنص على أن الأنبياء وأوصياءهم عليهم السلام جاهدوا لأجل هذه الصلاة؛ وأن آخر عهدهم من الحياة الدنيا هو الصلاة.

ولذلك: لم تمنعه كثرة العدو وشدة ما نزل به من الرزايا ممثلا بقتل أكثر أصحابه ومحاصرته من كل جانب ورميه بالسهام من كل جهة من أقامة الصلاة بمن بقي من أصحابه. فما جهاده وقتاله وبذله لنفسه وأهله وأصحابه إلا لأجل إقامة الصلاة التي إن ذهبت ذهب عماد الدين، وهو المعنى الذي دل عليه قول الإمام الصادق عليه السلام في خطابه لجده الحسين عليه السلام:

«أشهد أنك أقمت الصلاة».

بمعنى: أن استشهادك أقام الصلاة وحفظها من الضياع. كما يدل هذا العمل الحسيني على دور القائد والداعية إلى الله تعالى وجميع من تصدى لحمل رسالة الدعوة إلى الإسلام في أن يكون فعله مطابقاً لقوله، بل يكون فعله في الحفاظ على فرائض الدين هو المصداق الأول على دعوته وأن يسعى في إكرام الذين يسعون لحفظ فرائض الرسالة.

ومن هنا: استحق أبو ثمامة الصائدي دعاء الإمام الحسين له بأن يجعله الله من المصلين الذاكرين.

---

(١) رسائل الكركي: ج١، ص٧٨.

(٢) المصدر السابق.

الموضع السادس من دعائه لأصحابه: دعاؤه لزهير بن القين

قال عليه الصلاة والسلام:

«لا يبعدنك الله يا زهير ولعن قاتليك، لعن الذين مسخوا قدرة وخنازير».

مباحث الدعاء:

المبحث الأول: التعريف بشخصية زهير بن القين ـ عليه السلام ـ

المسألة الأولى: أقوال العلماء فيه

ترجم له السيد أبو القاسم الخوئي قدس سره في معجمه: «من أصحاب الحسين عليه السلام، (رجال الشيخ) وقال ابن شهر آشوب في المناقب: (جعله الحسين عليه السلام يوم الطف على الميمنة، وحبيب بن مظاهر على الميسرة وأعطى رايته العباس بن علي عليه السلام، فبرز الحر وقتل نيفا وأربعين رجلا، ثم برز بعده جماعة، ثم برز زهير بن القين، فقتل مائة وعشرين رجلا.

وقال المجلسي في البحار:

وقد سلم عليه في الزيارة الرجبية وكذلك في الزيارة التي خرجت من الناحية المقدسة وفيها: (السلام على زهير بن القين البجلي القائل للحسين عليه السلام وقد أذن له في الانصراف: لا والله لا يكون ذلك أبداً أأترك ابن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أسيرا في يد الأعداء وأنجو أنا؟ لا أراني الله ذلك اليوم»[1].

(١) معجم رجال، السيد الخوئي: ج٨، ص٣٠٦.

المسألة الثانية: علاقته بسيد الشهداء عليه السلام

يمكن الوقوف على هذه العلاقة من خلال ما جمعه الشيخ محمد السماوي في إبصار العين، فقال:

(كان زهير رجلاً شريفا في قومه، نازلاً فيهم بالكوفة، شجاعاً له في المغازي مواقف مشهورة ومواطن مشهودة، وكان أولاً عثمانيا، فحج سنة ستين في أهله، ثم عاد فوافق الحسين عليه السلام في الطريق، فهداه الله وانتقل علويا.

روى أبو مخنف عن بعض الفزاريين قال: كنا مع زهير بن القين حين أقبلنا من مكة نساير الحسين عليه السلام فلم يكن شيء أبغض إلينا من أن نسايره في منزل، فإذا سار الحسين عليه السلام تخلف زهير، وإذا نزل الحسين تقدم زهير، حتى نزلنا يوما في منزل لم نجد بدا من أن ننازله فيه، فنزل الحسين في جانب، ونزلنا في جانب، فبينا نحن نتغذى من طعام لنا، إذ أقبل رسول الحسين فسلم ودخل، فقال: يا زهير بن القين إن أبا عبد الله الحسين بن علي عليهما السلام بعثني إليك لتأتيه، فطرح كل إنسان منا ما في يده حتى كأن على رؤوسنا الطير.

قال أبو مخنف:

فحدثتني دلهم بنت عمرو، امرأة زهير قالت: فقلت له: أيبعث إليك ابن رسول الله ثم لا تأتيه!، سبحان الله لو أتيته فسمعت من كلامه ثم انصرفت، قالت: فأتاه زهير بن القين، فما لبث أن جاء مستبشرا قد أسفر وجهه: فأمر بفسطاطه وثقله ومتاعه، فقوض وحمل إلى الحسين عليه السلام، ثم قال لي: أنت طالق، الحقي بأهلك، فإني لا أحب أن يصيبك بسببي إلا خير.

ثم قال لأصحابه: من أحب منكم أن يتبعني وإلا فإنه آخر العهد، إني سأحدثكم حديثا، غزونا بلنجر، ففتح الله علينا وأصبنا غنائم، فقال لنا سلمان: أفرحتم بما فتح الله عليكم، وأصبتم من الغنائم؟.

فقلنا: نعم.

فقال لنا: إذا أدركتم شباب آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم فكونوا أشد فرحا بقتالكم معه بما أصبتم من الغنائم، فأما أنا فإني أستودعكم الله، قال: ثم والله ما زال أول القوم حتى قتل معه.

وقال أبو مخنف: لما عارض الحر بن يزيد الحسين عليه السلام في الطريق وأراد أن ينزله حيث يريد فأبى الحسين عليه، ثم إنه سايره، فلما بلغ ذا حسم خطب أصحابه خطبته التي يقول فيها:

«أما بعد، فإنه نزل بنا من الأمر ما قد ترون...، الخ».

فقام زهير وقال لأصحابه: أتتكلمون أم أتكلم؟ قالوا: بل تكلم، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: (قد سمعنا ـ هداك الله يا بن رسول الله ـ مقالتك، والله لو كانت الدنيا لنا باقية، وكنا فيها مخلدين، إلا أن فراقها في نصرك ومواساتك، لآثرنا النهوض معك على الإقامة فيها)، فدعا له الحسين وقال له خيرا.

وروى أبو مخنف: أن الحر لما ضايق الحسين عليه السلام بالنزول وأتاه أمر ابن زياد أن ينزل الحسين ـ عليه السلام ـ على غير ماء ولا كلأ ولا في قرية، قال له الحسين عليه السلام:

«دعنا ننزل في هذه القرية».

يعني: نينوى، أو هذه يعني: الغاضرية، أو هذه يعني: شفية.

فقال الحر: لا والله لا أستطيع ذلك، هذا رجل قد بعث عليّ عيناً، فقال زهير للحسين: يا بن رسول الله إن قتال هؤلاء أهون علينا من قتال من بعدهم، فلعمري ليأتينا من بعدهم ما لا قبل لنا به، فقال له الحسين عليه السلام:

«ما كنت لأبدأهم بقتال».

فقال له زهير: فسر بنا إلى هذه القرية فإنها حصينة، وهي على شاطئ الفرات، فإن منعونا قاتلناهم، فقتالهم أهون من قتال من يجيء من بعدهم، فقال الحسين عليه السلام:

«وأية قرية هي»؟.

قال: هي العقر، فقال الحسين عليه السلام:

«اللهم إني أعوذ بك من العقر».

فنزل بمكانه وهو كربلا، وقال أبو مخنف: لما أجمع عمر بن سعد على القتال نادى شمر بن ذي الجوشن: يا خيل الله اركبي وأبشري بالجنة، والحسين عليه السلام جالس أمام بيته محتبيا بسيفه، وقد وضع رأسه على ركبته من نعاس، فدنت أخته زينب منه وقالت: يا أخي قد اقترب العدو، وذلك يوم الخميس التاسع من المحرم بعد العصر، وجاءه العباس فقال: يا أخي أتاك القوم، فنهض ثم قال:

«يا عباس اركب إليهم حتى تسألهم عما جاء بهم».

فركب العباس في عشرين فارسا منهم حبيب بن مظهر وزهير بن القين فسألهم العباس، فقالوا جاء أمر الأمير بالنزول على حكمه أو المنازلة، فقال لهم العباس: لا تعجلوا حتى أرجع إلى أبي عبد الله فأعرض عليه ما ذكرتم، فوقفوا وقالوا له: ألقه فأعلمه، ثم القنا بما يقول، فذهب العباس راجعا، ووقف أصحابه.

فقال حبيب لزهير: كلم القوم إن شئت وإن شئت كلمتهم أنا، فقال زهير أنت بدأت فكلمهم، فكلمهم (...)، فرد عليه عزرة بن قيس بقوله: إنه لتزكي نفسك ما استطعت، فقال له زهير: إن الله قد زكاها وهداها فاتق الله يا عزرة، فإني لك من الناصحين، أنشدك الله يا عزرة أن تكون ممن يعين الضلال على قتل النفوس الزكية.

فقال عزرة: يا زهير ما كنت عندنا من شيعة هذا البيت إنما كنت عثمانيا، قال: أفلا تستدل بموقفي هذا على أني منهم؟!، أما والله ما كتبت إليه كتابا قط، ولا أرسلت إليه رسولا قط، ولا وعدته نصرتي قط، ولكن الطريق جمع بيني وبينه، فلما رأيته ذكرت به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومكانه منه، وعرفت ما يقدم عليه من عدوه وحزبكم: فرأيت أن أنصره، وأن أكون في حزبه، وأن أجعل نفسي دون نفسه، حفظا لما ضيعتم من حق الله وحق رسوله.

قال: وأقبل العباس فسألهم إمهال العشية، فتوامروا ثم رضوا فرجعوا.

وروى أبو مخنف عن الضحاك بن عبد الله المشرقي قال: لما كانت الليلة العاشرة خطب الحسين أصحابه وأهل بيته فقال في كلامه:

«هذا الليل قد غشيكم فاتخذوه جملا، وليأخذ كل رجل منكم بيد رجل من أهل بيتي، فإن القوم إنما يطلبوني».

...، ثم قام زهير فقال: والله لوددت أني قتلت ثم نشرت ثم قتلت حتى أقتل كذا ألف قتلة، وأن الله يدفع بذلك القتل عن نفسك وعن أنفس هؤلاء الفتية من أهل بيتك.

وقال أهل السير: لما صف الحسين عليه السلام أصحابه للقتال وإنما هم زهاء السبعين جعل زهيراً على الميمنة، وحبيبا على الميسرة، ووقف في القلب، وأعطى الراية لأخيه العباس.

وروى أبو مخنف عن علي بن حنظلة بن أسعد الشبامي عن كثير بن عبد الله الشعبي البجلي، قال: لما زحفنا قبل الحسين عليه السلام خرج إلينا زهير بن القين على فرس له ذنوب، وهو شاك في السلاح، فقال: يا أهل الكوفة، نذار لكم من عذاب الله نذار! إن حقا على المسلم نصيحة أخيه المسلم، ونحن حتى الآن إخوة وعلى دين واحد وملة واحدة ما لم يقع بيننا وبينكم السيف، فإذا وقع السيف انقطعت العصمة، وكنا أمة وكنتم أمة، إن الله قد ابتلانا وإياكم بذرية نبيه محمد صلى الله عليه وآله وسلم لينظر ما نحن وأنتم عاملون، إنا ندعوكم إلى نصره، وخذلان الطاغية ابن الطاغية عبيد الله بن زياد، فإنكم لا تدركون منهما إلا السوء عموم سلطانهما كله، إنهما يسملان أعينكم، ويقطعان أيديكم وأرجلكم، ويمثلان بكم، ويرفعانكم على جذوع النخل، ويقتلان أماثلكم وقراءكم، أمثال حجر بن عدي وأصحابه، وهاني بن عروة وأشباهه.

قال: فسبوه وأثنوا على عبيد الله وأبيه، وقالوا: والله لا نبرح حتى نقتل صاحبك ومن معه، أو نبعث به وبأصحابه إلى الأمير، فقال لهم زهير: عباد الله إن ولد فاطمة عليها السلام أحق بالود والنصر من ابن سمية، فإن لم تنصروهم فأعيذكم بالله أن تقتلوهم، فخلوا بين هذا الرجل وبين يزيد، فلعمري إنه ليرضى من طاعتكم بدون قتل الحسين عليه السلام.

قال: فرماه شمر بسهم وقال له: اسكت أسكت الله نامتك، فقد أبرمتنا بكثرة كلامك! فقال زهير: يا بن البوال على عقبيه، ما إياك أخاطب، إنما أنت بهيمة، والله ما أظنك تحكم من كتاب الله آيتين، فأبشر بالخزي يوم القيامة والعذاب الأليم.

فقال له شمر: إن الله قاتلك وصاحبك عن ساعة، قال زهير: أفبالموت تخوفني؟! والله للموت معه أحب إلي من الخلد معكم، قال: ثم أقبل على الناس رافعا صوته، وصاح بهم: عباد الله لا يغرنكم عن دينكم هذا الجلف الجافي وأشباهه، فوالله لا تنال شفاعة محمد صلى الله عليه وآله وسلم قوما هرقوا دماء ذريته وأهل بيته، وقتلوا من نصرهم وذب عن حريمهم.

قال: فناداه رجل من خلفه: يا زهير إن أبا عبد الله يقول لك: أقبل، فلعمري لئن كان مؤمن آل فرعون نصح لقومه وأبلغ في الدعاء، لقد نصحت لهؤلاء وأبلغت لو نفع النصح والإبلاغ، فذهب إليهم.

وروى أبو مخنف عن حميد بن مسلم قال: حمل شمر حتى طعن فسطاط الحسين عليه السلام برمحه، وقال: علي بالنار حتى أحرق هذا البيت على أهله، فصاحت النساء وخرجن من الفسطاط، فصاح الحسين: يا بن ذي الجوشن، أنت تدعو بالنار لتحرق بيتي على أهلي، حرقك الله بالنار.

وحمل زهير بن القين في عشرة من أصحابه فشد على شمر وأصحابه، فكشفهم عن البيوت حتى ارتفعوا عنها، وقتل زهير أبا عزة الضبابي من أصحاب الشمر وذوي قرباه، وتبع أصحابه الباقين فتعطف الناس عليهم، فكثروهم وقتلوا أكثرهم وسلم زهير.

قال أبو مخنف:

واستحر القتال بعد قتل حبيب، فقاتل زهير والحر قتالا شديدا فكان إذا شد أحدهما واستلحم شد الآخر فخلصه، فقتل الحر ثم صلى الحسين عليه السلام صلاة الخوف، ولما فرغ منها تقدم زهير فجعل يقاتل قتالا لم ير مثله ولم يسمع بشبهه وأخذ يحمل على القوم فيقول:

أنا زهير وأنا بن القين　　　أذودكم بالسيف عن حسين

ثم رجع فوقف أمام الحسين وقال له:

فدتك نفسي هاديا مهديا　　　اليوم ألقى جدك النبيا

وحسنا والمرتضى عليا　　　وذا الجناحين الشهيد الحيا

فكأنه ودعه، وعاد يقاتل فشد عليه كثير بن عبد الله الشعبي ومهاجر بن أوس التميمي فقتلاه، وقال السروي في المناقب: لما صرع وقف عليه الحسين عليه السلام فقال:

«لا يبعدنك الله يا زهير، ولعن الله قاتليك، لعن الذين مسخوا قردة وخنازير»[1].

وفيه أقول:

لا يبعدنك الله من رجل　　　وعظ العدى بالواحد الأحد

ثم انثنى نحو الخميس فما　　　أبقى لدفع الضيم من أحد[2]

---

(١) إبصار العين في أنصار الحسين عليه السلام، محمد السماوي: ص١٦١ إلى ١٦٧. البداية والنهاية لابن كثير: ج٨، ص١٩٤ـ١٩٥.

(٢) هذه الأبيات للسماوي، (إبصار العين في أنصار الحسين عليه السلام: ص١٦٧).

المبحث الثاني: جواز اللعن في الشريعة

إنّ المتأمل في دعاء الإمام الحسين عليه السلام بعد استشهاد زهير بن القين ـ رضوان الله عليه ـ يجد فيه سمة خاصة لم ترد في أي دعاء من أدعيته في يوم عاشوراء على الرغم من عظم مصائبه وتنوع رزاياه. وهذه السمة، هي: (اللعن). إذ لم يلعن الإمام الحسين عليه السلام أعداءه إلاّ عند مقتل زهير بن القين عليه السلام، قائلا:

«ولعن الله قاتليك لعن الذين مسخوا قردة وخنازير».

وفي الدعاء مسائل، منها:

المسألة الأولى: جواز اللعن على مستحقه، وهل يترتب ثواب على الإتيان به؟

إنّ من المسائل التي نالت اهتمام شريحة واسعة من المسلمين هي مسألة (اللعن) لبعض الرموز والشخصيات سواء أكانت حية أم ميتة ولاسيما إن بعض تلك الرموز كانت من مكونات الحدث التاريخي والعقائدي بوصفها رموزا إسلامية جلس بعضها على سدة الحكم في مراحل زمنية متعددة وأماكن مختلفة.

ومن الأمور التي فاقمت اللغط من البعض حول هذه المسألة هو إشاعة اللبس بين السباب أو الشتم وبين اللعن؛ أو عدّ اللعن:

هو الشتم والسباب، في حين أن الأول أمر به القرآن والسنة، والثاني نهيا عنه، كما أن شياع: أن الميت لا تجوز عليه إلا الرحمة أو (أذكروا محاسن موتاكم)[1]، مما استعمله متزلفو الحكام وأهل الهوى لغرض التستر على جرائم الحكام وإعذار الطواغيت هو مما زاد في هذا اللبس. ولرفع هذا اللبس ينبغي الإشارة إلى بعض النقاط، فمنها:

---

(١) مستدرك الحاكم: ج١، ص٣٨٥. صحيح ابن حبان: ج٧، ص٢١٩.

أولا: مفهوم المحاسن والمساوئ

إن المحاسن والمساوئ التي ترافق سيرة الإنسان المسلم في حياته حتى مماته لها مفهومان، مفهوم عرفي اجتماعي؛ ومفهوم شرعي. فقد يكون حجاب المرأة في مجمع ما سيئة في حين يعد السفور حسنة في مجتمع آخر أو يكون الاحتيال شطاره، والمكر ذكاء وهما من المحاسن في مجتمع معين (اسلامي) وهكذا تختلف المحاسن والمساوئ في المفهوم الاجتماعي حسب المعطيات الثقافية. ففي المفهوم العرفي الاجتماعي تختلف المساوئ والمحاسن حسب ثقافة هذا المجتمع أو ذاك.

أما في المفهوم الشرعي - (ونقصد به القرآن والعترة) - فالمحاسن هي فضائل الأخلاق، والمساوئ هي رذائل الأخلاق، أو هي (التقوى، والفجور) فإذا كان الميت من أهل الفجور وبيده كانت رقاب الناس، أو أنه يشرع لهم أمور دينهم ودنياهم بصفته ولي أمرهم فعندها كيف يمكن تجنب الحديث عن تلك المساوئ التي سنها للأمة وأمر باتباعها وعاقب على مخالفتها.

أو أن تلك السيرة كانت تخص أشخاصا تصدوا للتنظير في الشريعة أو الفتيا في الأمور الدينية وهم أبعد الناس عنها، وأضر الخلق بها وبأهلها، وكيف بعد التكتم على هذه الانتهاكات والتستر على تلكم الموبقات التي صدرت من أولئك المنظرين في الشريعة والمفتين في أحكام الحلال والحرام أن ينبّه الغافل ويتعلم الجاهل ويتجنب البصير ويتبرأ العارف من هذه الرموز؟!.

ولذلك: لا يمكن أن يتحقق الغرض الرسالي من التوحيد بدون معرفة رموز الشرك ومطفئي السنن ومحرفي الكلم من مواضعه، كما لا يمكن أن يتجنب الإنسان الوقوع في الفتن ما لم يتعرف على محدثيها ومروجيها ومناصريها.

ثانيا: اللعن في اللغة

(اللعن) لغة هو الطرد من الخير[١]، أي رحمة الله تعالى، فلا تنفعه شفاعة أحدٍ فهو في سخط الله تعالى وموضع نزول نقمته ـ عزّ شأنه ـ، وبهذه الحالة كيف لا يستحق اللعن من كان هذا حاله، وقد لعن الله تعالى في محكم كتابه الجاحدين والظالمين والمنافقين، وأمر سبحانه بمتابعة اللعن لهم:

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّـٰعِنُونَ﴾[٢].

وبقوله:

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمۡ أَنَّ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةَ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ﴾[٣].

ثالثا: جواز اللعن

أما الدلالة في جواز اللعن، فقد قيل: (إن الآية وإن وقعت في صورة الإخبار، ولكن المراد بها الإنشاء والأمر، واستدل على جوازه وحسنه أيضا بأنه قد صح عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قد لعن عمرو بن العاص عند هجوه للنبي صلى الله عليه وآله وسلم في بعض أشعاره. فقال صلى الله عليه وآله وسلم:

«اللهم إني لا أحسن الشعر ولا ينبغي لي، اللهم العنه بكل حرف ألف لعنة»[٤].

---

(١) الصحاح للجوهري: ج٦، ص٢١٩٦. تاج العروس للزبيدي: ج١٨، ص٥١٠ـ٥١٢.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٥٩.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ٨٧.

(٤) الاحتجاج للطبرسي: ج١، ص٤١٢. المحصول في علم أصول الفقه، لفخر الدين الرازي: ج٤، ص٢٤١، وجاء فيه: «إني لا أحسن الشعر فالعنه بكل قافية لعنة».

وأنه قد صح عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه لعن معاوية، وعمرو بن العاص، وأبا موسى الأشعري، وأبا الأعور السلمي؛ فلولا أن اللعن على من يستحقه كان موجبا للثواب لما بادر إليه سيد الأنبياء صلى الله عليه وآله وسلم وسيد الأوصياء عليه السلام، وكذا تواتر عن سائر الأئمة المعصومين عليهم السلام، لعن أعادي الدين، وفعلهم حجة على العالمين، ورغبوا الشيعة في لعن أعداء أهل البيت بأسمائهم، وذكروا للعنهم ثوابا عظيما، كما لا يخفى على من تتبع آثارهم عليهم السلام.

وممن جوز اللعن من المخالفين: سعد الدين التفتازاني، فإنه قال في شرح المقاصد: (ما وقع بين الصحابة من المحاربات والمشاجرات على الوجه المسطور في كتب التواريخ، والمذكور على ألسنة الثقات، يدل بظاهره على أن بعضهم قد حاد عن طريق الحق، وبلغ حد الظلم والفسق، وكان الباعث عليه الحقد والعناد، والحسد واللداد، وطلب الملك والرئاسات، والميل إلى اللذات والشهوات، إذ ليس كل صحابي معصوما، ولا كل من لقى النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالخير موسوما.

إلا أن العلماء لحسن ظنهم بأصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ذكروا لها محامل وتأويلات بها تليق، وذهبوا إلى أنهم محفوظون عما يوجب التضليل والتفسيق، صونا لعقائد المسلمين من الزيغ والضلالة في حق كبار الصحابة، سيما المهاجرين منهم، والأنصار المبشرين بالثواب في دار القرار.

وأما ما جرى بعدهم من الظلم على أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فمن الظهور بحيث لا مجال للإخفاء ومن الشناعة بحيث لا اشتباه على الآراء، ويكاد تشهد به الجماد والعجماء، ويبكي له من في الأرض والسماء، وتنهد منه الجبال، وتنشق منه الصخور، ويبقى سوء عمله على كر الشهور ومر الدهور، فلعنة الله

على من باشر أو رضي أو سعى، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى.

فان قيل: فمن علماء المذهب من لا يجوز اللعن على يزيد، مع علمهم بأنه يستحق ما يربو على ذلك ويزيد، قلنا: تحاميا على أن يرتقى إلى الأعلى فالأعلى، كما هو شعار الروافض، على ما يروى في أدعيتهم، ويجري في أنديتهم، فرأى المعتنون بأمر الدين الجام العوام بالكلية طريقا إلى الاقتصاد في الاعتقاد، بحيث لا تزل الأقدام عن السواء، ولا تضل الأفهام بالأهواء، وإلا فمن خفي عليه الجواز والاستحقاق، وكيف لا يقع عليهما الاتفاق؟، وهذا هو السر فيما نقل عن السلف من المبالغة في مجانبة أهل الضلال، وسد طريق لا يؤمن أن يجر إلى الغواية في المآل، مع علمهم بحقيقة الحال وجلية المقال)[١].

قال الشيخ محمد قاهر القمي: انظر إلى هؤلاء كيف يجوزون تحريم ما حلل الله من لعن من يستحق اللعن من غير اذن من الله، وقد قال الله تعالى:

﴿ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾[٢].

وسخافة عذر التفتازاني من قبل المانعين من اللعن السائغ شرعا لا يخفى عن اللبيب المنصف.

إن قيل أواجب متمم للإيمان اللعن على مذهب الإمامية أم مستحب مكمل للإيمان؟، قلنا: على مذهب الإمامية بغض أعداء أهل البيت واجب، لأن به يتم حب أهل البيت الذي أمرنا الله به، وجعله أجر الرسالة، وتواتر عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم

(١) شرح المقاصد، التفتزاني: ج٢، ص٣٠٦ـ٣٠٧.

(٢) سورة يونس، الآية: ٥٩.

وجوبه علينا، فإن حبهم وحب أعدائهم لا يجتمعان، ونعم ما قال الشاعر:

تـود عـدوي وتـزعم أننـي أحبـك إن الـرأي عنـك لعـازب

وأما اللعن فغير واجب، بل مستحب مكمل للإيمان، وتحديث بنعمة الرب، وأي نعمة أعظم من بغض أعداء أهل البيت، ومن أعذار الإمامية في سب أعداء أهل البيت، أن أهل السنة يحكمون على قتلة عثمان ومحاربي علي عليه السلام من طلحة والزبير وعائشة ومعاوية، الذين قتل في حربهم نحو مائة ألف من المهاجرين والأنصار وتابعيهم، من العلماء والعباد والزهاد، وأن كل ذلك كان منهم بالاجتهاد، وهم غير مؤاخذين بل مثابون، وإذا جاز الاجتهاد في قتال أخي النبي صلى الله عليه وآله ووصيه والخليفة إجماعا، وفي قتلة عثمان والأنصار والمهاجرين والتابعين، جاز الاجتهاد في لعن بعض الصحابة، مع وفور الأحاديث والآثار الدالة على مخالفتهم للنبي صلى الله عليه وآله وسلم وعداوتهم للوصي، بل هو أولى بالجواز، لأن السب الذي جوزه الشيعة إنما هو دعاء عليهم، والباري تعالى إن شاء لم يستجبه، وليس مثل سفك دماء المهاجرين والأنصار وتابعيهم.

وهذا معاوية مع ما فعل من قتل المؤمنين ونهبهم، سن لعن علي وأهل بيته عليهم السلام، واستمر ذلك في زمن بني أمية ثمانين سنة، ولم ينقص ذلك من شأنه عندهم، ولم يخرج من العدالة فضلا عن الإيمان، فكيف يفسّقون الشيعة بلعن بعض الصحابة، مع ظهور الدليل على استحقاقهم اللعن؟!

وكيف يجوز للمخالف أن يقول بجواز اجتهاد معاوية وأمثاله في قتال علي عليه السلام ولعنه، وقتل المهاجرين والأنصار مع عدم الدليل والشبهة وبعدم جواز اجتهاد الشيعة في لعن أعداء أهل البيت، مع وفور الأدلة من الكتاب والسنة المتواترة.

ومن العجب أن المتأخرين من المخالفين قد بالغوا في المنع عن لعن أعداء أهل البيت، حتى حكم بعضهم لفرط عصبيتهم وعدم ديانتهم بكفر من سب الشيخين، بعد ما زعموا أن سباب أمير المؤمنين عليه السلام لم يخرج من العدالة والإيمان، وحكم بعضهم بأن سب الشيخين كفر وسب الختنين فسق.

انظر أيها اللبيب المنصف إلى هؤلاء الجهلة كيف حطوا مرتبة أمير المؤمنين عليه السلام؟، وخالفوا الله ورسوله في قوله صلى الله عليه وآله وسلم:

«يا علي حربك حربي وسلمك سلمي»[1].

وفي قوله:

«من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه».

وفي قوله:

«علي حبك إيمان وبغضك نفاق».

وأمثالها من الأحاديث المتواترة الثابتة الصحيحة عند المخالف والمؤالف)[2].

المسألة الثانية: من هم الذين مسخوا قردة وخنازير؟

إنّ من الحقائق التاريخية التي تحدث عنها القرآن الكريم هي حقيقة المسخ الذي عاقب الله به جماعة من بني إسرائيل.

وقد اختلفت الآراء حول هذه الحقيقة القرآنية، فقال الشريف المرتضى:

(المسخ أن يغير صورة الحي الذي كان إنساناً يصير بهيمة، لا أن يتغير صورته إلى صورة البهيمة، الأصل في المسخ قوله تعالى:

(١) الأمالي للشيخ الصدوق: ص٦٥٦. كفاية الأثر للقمي: ص١٤٨.

(٢) كتاب الأربعين، محمد طاهر القمي الشيرازي: ص٦٣٥.

﴿كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ﴾[1].

وقوله تعالى:

﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّـٰغُوتَ﴾[2].

وقد تأول قوم من المفسرين آيات القرآن التي في ظاهرها المسخ، على أن المراد بها أنا حكمنا بنجاستهم، وخسة منزلتهم، وايضاع أقدارهم، لما كفروا وخالفوا، فجروا بذلك مجرى القرود التي ـ لها ـ هذه الأحكام، كما يقول أحدنا لغيره: ناظرت فلانا وأقمت عليه الحجة حتى مسخته كلبا على هذا المعنى.

وقال آخرون: بل أراد بالمسخ أن الله تعالى غير صورهم وجعلهم على صور القرود على سبيل العقوبة لهم والتنفير عنهم، وذلك جائز مقدور لا مانع له، وهو أشبه بالظاهر وأمر عليه، والتأويل الأول ترك للظاهر، وإنما تترك الظواهر لضرورة وليست هاهنا. فإن قيل: فكيف يكون ما ذكرتم عقوبة؟

قلنا: هذه الخلقة إذا ابتدأت لم تكن عقوبة، وإذا غير الحي المخلوق على الخلقة التامة الجميلة إليها، كان ذلك عقوبة، لأن تغير الحال إلى ما ذكرناه يقتضي الغم والحسرة. فإن قيل: فيجب أن يكون مع تغير الصورة ناس قردة، وذلك متناف.

قلنا: متى تغيرت صورة الإنسان إلى صورة القرد، لم يكن في تلك الحال إنسانا، بل كان إنسانا مع البنية الأولى، واستحق الوصف بأنه قرد لما صار على صورته، وإن كان الحي واحدا في الحالين، ويجب فيمن مسخ قردا على سبيل

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٦٥.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٦٠.

العقوبة أن يذمه مع تغير الصورة على ما كان منه من القبائح، لأن تغير الهيئة والصورة لا يوجب الخروج عن استحقاق الذم، كما لا يخرج المهزول إذا سمن عما كان يستحقه من الذم، وكذا السمين إذا هزل.

فإن قيل: فيقولون إن هؤلاء الممسوخين تناسلوا، وأن القردة في أزماننا هذه من نسل أولئك. قلنا: ليس يمتنع أن يتناسلوا بعد أن مسخوا، لكن الإجماع على أنه ليس شيء من البهائم من أولاد آدم ولولا هذا الإجماع لجوزنا ما ذكروا على هذه الجملة التي قررناها لا ينكر صحة الأخبار الواردة من طرقنا بالمسخ لأنها كلها تتضمن وقوع ذلك على من يستحق العقوبة والذم من الأعداء والمخالفين.

فإن قيل: أفتجوزون أن يغير الله تعالى صورة حيوان جميلة إلى صورة أخرى غير جميلة بل مشوه منفور عنها أم لا تجوزون ذلك؟.

قلنا: إنما أجزنا في الأول ذلك على سبيل العقوبة لصاحب هذه الخلقة التي كانت جميلة، ثم تغيرت، لأنه يغتم بذلك ويتأسف، وهذا الغرض لا يتم في الحيوان الذي ليس بمكلف، فتغير صورهم عبث، فإن كان في ذلك غرض يحسن لمثله جاز)[1].

أما لماذا وقع المسخ على هؤلاء؟ فجوابه نجده عند الإمام زين العابدين عليه السلام، فقد روي أنه قال:

«كان هؤلاء قوما يسكنون على شاطئ بحر فنهاهم الله وأنبياؤه عن اصطياد السمك في يوم السبت، فتوصلوا إلى حيلة ليحلوا بها لأنفسهم ما حرم الله، فخدوا أخاديد وعملوا طرقا تؤدي إلى حياض يتهيأ للحيتان الدخول فيها من تلك الطرق، ولا يتهيأ لها الخروج إذا

---

(١) رسائل المرتضى، الشريف المرتضى: ج١، ص٣٥٤.

همت بالرجوع، فجاءت الحيتان يوم السبت جارية على أمان لها فدخلت الأخاديد وحصلت في الحياض والغدران، فلما كانت عشية اليوم همت بالرجوع منها إلى اللجج لتأمن من صائدها فرامت الرجوع فلم تقدر، وبقيت ليلتها في مكان يتهيأ أخذها بلا اصطياد لاسترسالها فيه وعجزها عن الامتناع لمنع المكان لها، وكانوا يأخذون يوم الأحد ويقولون: ما اصطدنا في السبت وإنما اصطدنا في الأحد، وكذب أعداء الله بل كانوا آخذين بها بأخاديدهم التي عملوها يوم السبت حتى كثر من ذلك مالهم»[(١)].

المسألة الثالثة: الحكمة في دعائه عليه السلام باللعن على قاتلي زهير بالمسخ قردة وخنازير

يمكن الوقوف على الحكمة في دعاء الإمام الحسين عليه السلام باللعن على قاتلي زهير بن القين بالمسخ قردة وخنازير من خلال النقاط التالية:

أولا: إن العامل المشترك بين الذين مسخوا قردة وخنازير وبين قتلة زهير بن القين ـ عليه السلام ـ هو الاحتيال على الشريعة، فأولئك احتالوا على الحكم الشرعي بعدم الاصطياد يوم السبت فنصبوا شباكهم يوم الجمعة وأخرجوها يوم الأحد فعلق بها السمك في يوم السبت وتحقق بهذا الفعل مصداق الاصطياد وظهر احتيالهم على الحكم الشرعي.

وأما هؤلاء فقد احتالوا على المسلمين وادعوا أنهم مناصرو سنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وحماة حرمة أصحابه والمطالبون بدم عثمان بن عفان، فهاهم اليوم

(١) الحدائق الناضرة، المحقق البحراني: ج٢٥، ص٣٧٧.

يقتلون رجلاً عُرف بأنه عثماني الهوى وكان يدعو لنصرته، فلماذا يقتلونه اليوم، فبقتلهم إياه ظهر احتيالهم على السنة النبوية؛ فهم في حقيقتهم طلاب دنيا ومال كما هو حال الذين مسخوا قردة وخنازير.

ثانيا: إن بني إسرائيل قد عرفهم القرآن بأنهم قتلة الأنبياء عليهم السلام، بل ويقتلون كل من يقوم بنصحهم وإرشادهم إلى الصواب وتعريفهم بقبح أعمالهم كما هو حال مؤمن آل فرعون الذي نصح قومه وأخلص لهم النصيحة فقابلوه بالقتل.

وكذا كان حال زهير بن القين فلقد أخلص لهم النصيحة حينما تبين له أن قومه الذين يدعون نصرة السنة النبوية والحفاظ على حرمة الخليفة عثمان بن عفان والصحابة، هم في هذا اليوم يقتلون السنة وينتهكون حرمة صاحبها صلى الله عليه وآله.

وكيف ستكون للسنة حرمة ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تُسبى بناته وتُسحق أطفاله بحوافر الخيل!؟. ولذلك كان زهير بن القين ناصحاً للسنة ولقومه الذين اغتروا وافتتنوا بأئمة الضلال ودعاة الباطل. ومما يدل على هذه الحقيقة:

١ـ حينما أرسل إليه الإمام الحسين عليه السلام في طريقه إلى العراق وأخبره بما قاله سلمان له حينما كانوا معاً في غزوة بلنجر: (إذا أدركتم شباب آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم فكونوا أشد فرحا بقتالكم معهم بما أصبتم من الغنائم)، حينها أيقن أن حفظ السنة النبوية، بل وحفظ القرآن هو في نصرة ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؛ وأن الفوز بالجنة لا يتحقق إلا بالانضمام إلى ركب سيد شباب أهل الجنة وليس إلى سادات أهل النار كابن سمية وابن مرجانة وابن هند.

٢ـ حينما اكتملت الجيوش الزاحفة إلى كربلاء من الكوفة في يوم التاسع من المحرم تقدم عمر بن سعد فنادى بتلك الجموع: (يا خيل الله اركبي وأبشري،

فركب في الناس ثم زحف نحوهم بعد صلاة العصر، و– وكان الإمام – الحسين عليه السلام جالساً أما بيته محتبيا بسيفه أخفق برأسه على ركبتيه، وسمعت أخته زينب الصيحة فدنت من أخيها فقالت: يا أخي أما تسمع الأصوات قد اقتربت؟ قال: فرفع الحسين عليه السلام رأسه فقال:

«إني رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله في المنام فقال لي: إنك تروح إلينا».

قال: فلطمت أخته وجهها وقالت: **يا ويلتى**، فقال عليه السلام:

«ليس لك الويل يا أخية، اسكتي رحمك الرحمان».

وقال العباس بن علي: **يا أخي أتاك القوم**، قال: فنهض ثم قال:

«يا عباس اركب بنفسي أنت يا أخي حتى تلقاهم فتقول لهم: ما لكم وما بدا لكم؟ وتسألهم عما جاء بهم».

فأتاهم العباس فاستقبلهم في نحو من عشرين فارسا فيهم زهير بن القين وحبيب بن مظاهر، فقال لهم العباس ما بدا لكم وما تريدون؟ قالوا: جاء أمر الأمير بأن نعرض عليكم أن تنزلوا على حكمه أو ننازلكم، قال: فلا تعجلوا حتى أرجع إلى أبي عبد الله فأعرض عليه ما ذكرتم قال: فوقفوا ثم قالوا: ألقه فاعلمه ذلك، ثم ألقنا بما يقول: قال: فانصرف العباس راجعا يركض إلى الحسين يخبره بالخبر، ووقف أصحابه يخاطبون القوم، فقال حبيب بن مظاهر لزهير بن القين: كلم القوم إن شئت وإن شئت كلمتهم، فقال له زهير أنت بدأت بهذا فكن أنت تكلمهم فقال لهم حبيب بن مظاهر: أما والله لبئس القوم عند الله غدا قوم يقدمون عليه، قتلوا ذرية نبيه صلى الله عليه وآله وعترته وأهل بيته عليهم السلام وعباد أهل هذا المصر المجتهدين بالأسحار والذاكرين الله كثيرا فقال له عزرة بن قيس: إنك لتزكي نفسك ما استطعت.

فقال له زهير: يا عزرة إن الله قد زكاها وهداها، فاتق الله يا عزرة فإني لك من الناصحين أنشدك الله يا عزرة أن تكون ممن يعين الضلال على قتل النفوس الزكية.

قال: يا زهير ما كنت عندنا من شيعة أهل هذا البيت إنما كنت عثمانيا، قال: أفلست تستدل بموقفي هذا أني منهم؟ أما والله ما كتبت إليه كتابا قط، ولا أرسلت إليه رسولا قط، ولا وعدته نصرتي قط، ولكن الطريق جمع بيني وبينه، فلما رأيته ذكرت به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومكانه منه، وعرفت ما يقدم عليه من عدوه وحزبكم فرأيت أن أنصره وان أكون في حزبه وأن أجعل نفسي دون نفسه حفظا لما ضيعتم من حق الله وحق رسوله صلى الله عليه وآله وسلم)[1].

فهذه المحاورة وان كنا قد أوردنا ذكرها في ترجمة زهير الا ان ذكرها هنا ليدل بوضوح على حقيقة دور زهير بن القين عليه السلام في إلقاء الحجة على هؤلاء وكشف حقائق نفوسهم، وأنه كان الناصح المخلص لمن يدعون حب عثمان بن عفان.

٣ـ لم يكتف زهير بن القين بهذا النصح الذي قدمه لعزرة بن قيس وإنما قومه بهذا النصح وبالغ فيه في يوم العاشر حينما استأذن الإمام الحسين عليه السلام في أن يخطب القوم فأذن له.

(فخرج إليهم على فرس ذنوب وهو شاكٍ في السلاح، فقال: يا أهل الكوفة نذار لكم من عذاب الله إن حقا على المسلم نصيحة أخيه المسلم، ونحن حتى الآن إخوة وعلى دين واحد وملة واحدة ما لم يقع بيننا وبينكم السيف وأنتم للنصيحة منا أهل فإذا وقع السيف انقطعت العصمة وكنا أمة وأنتم أمة إن الله قد ابتلانا وإياكم بذرية نبيه محمد صلى الله عليه وآله وسلم لينظر ما نحن وأنتم عاملون إنا ندعوكم إلى

(١) مقتل الإمام الحسين عليه السلام، أبي مخنف: ص١٠٤ إلى ١٠٦.

نصرهم وخذلان الطاغية عبيد الله بن زياد فإنكم لا تدركون منهما إلا بسوء عموم سلطانهما كله ليسملان أعينكم ويقطعان أيديكم وأرجلكم ويمثلان بكم ويرفعانكم على جذوع النخل ويقتلان أماثلكم وقراءكم أمثال حجر بن عدي وأصحابه وهانئ بن عروة وأشباهه.

قال فسبوه وأثنوا على عبيد الله بن زياد ودعوا له وقالوا والله لا نبرح حتى نقتل صاحبك ومن معه أو نبعث به وبأصحابه إلى الأمير عبيد الله سلما، فقال لهم عباد الله إن ولد فاطمة عليها السلام أحق بالود والنصر من ابن سمية فإن لم تنصروهم فأعيذكم بالله أن تقتلوهم فخلوا بين هذا الرجل وبين ابن عمه يزيد بن معاوية فلعمري إن يزيد ليرضى من طاعتكم بدون قتل الحسين.

قال فرماه شمر بن ذي الجوشن بسهم وقال اسكت أسكت الله نأمتك أبرمتنا بكثرة كلامك، فقال له زهير: يا ابن البوال على عقبيه ما إياك أخاطب إنما أنت بهيمة والله ما أظنك تحكم من كتاب الله آيتين فأبشر بالخزي يوم القيامة والعذاب الأليم، فقال له شمر: إن الله قاتلك وصاحبك عن ساعة قال: أفبالموت تخوفني؟! فوالله للموت معه أحب إلي من الخلد معكم.

قال: ثم أقبل على الناس رافعا صوته فقال: عباد الله لا يغرنكم من دينكم هذا الجلف الجافي وأشباهه فوالله لا تنال شفاعة محمد صلى الله عليه وآله وسلم قوما هراقوا دماء ذريته وأهل بيته وقتلوا من نصرهم وذب عن حريمهم، قال: فناداه رجل فقال له: إن أبا عبد الله يقول لك: «أقبل فلعمري لئن كان مؤمن آل فرعون نصح لقومه وأبلغ في الدعاء لقد نصحت لهؤلاء وأبلغت لو نفع النصح والإبلاغ»[1].

---

(١) تاريخ الطبري: ج٤، ص٣٢٣ إلى ٣٢٤. مقتل الحسين عليه السلام، أبي مخنف: ص١٢٠. إبصار ←

ويكشف قول الإمام الحسين عليه السلام لزهير بن القين بعد خطبته عن الحكمة في دعائه عليه السلام عليهم باللعن الذي نزل ببني إسرائيل فمسخهم الله قردة وخنازير.

بل يكشف القول المروي عن حذيفة بن اليمان عن تحقق دعوة الإمام الحسين عليه السلام عليهم بالمسخ قردة وخنازير؛ قال رضي الله عنه: (لتعملن عمل بني إسرائيل فلا يكون فيهم شيء إلا كان فيكم مثله، فقال رجل تكون فينا قدرة وخنازير؟ قال: وما يبريك[1] من ذلك، لا أم لك، قالوا: حدثنا يا أبا عبد الله!، قال:

«لو حدثتكم لافترقتم على ثلاث فرق: فرقة تقاتلني، وفرقة لا تنصرني، وفرقة تكذبني، أما إني سأحدثكم ولا أقول: (قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم): أرأيتكم لو حدثتكم أنكم تأخذون كتابكم فتحرقونه وتلقونه في الحشوش، صدقتموني؟».

قالوا: سبحان الله! ويكون هذا؟، قال:

«لو حدثتكم أنكم تكسرون قبلتكم، صدقتموني؟.

قالوا: سبحانه الله!، ويكون هذا؟، قال:

«أرأيتكم لو حدثتكم أن أمكم ـ عائشة ـ تخرج في فرقة من المسلمين، وتقاتلكم صدقتموني؟».

قالوا: سبحان الله! ويكون هذا؟)[2].

←

العين، محمد السماوي: ٢١٦٦.

(١) يبريك، أي ينجيك، ويأمنك من الوقوع في الفتنة، وهو من البراءة.

(٢) المصنف، ابن أبي شيبة الكوفي: ج٨، ص٦٣٥. كنز العمال، المتقي الهندي: ج١١، ص٣٤١. رسائل المرتضى: ج١، ص٣٥٢. وقد أورده المختصر.

المحتويات

الفصل الثاني:

دعاء الإمام الحسين عليه السلام وخصوصية المكان والزّمان

الفصل الثالث:

الخصوصية الزمانية لدعاء الإمام الحسين عليه السلام

الفصل الرابع:

علاقة الإمام الحسين عليه السلام بالدعاء

الفصل الخامس:

مواضع دعائه قبل البدء في القتال

الفصل السادس:

تحقق الأثر الغيبي في دعاء الإمام الحسين عليه السلام

الفصل السابع:

مواضع أدعيته عليه السلام لأصحابه عليهم السلام